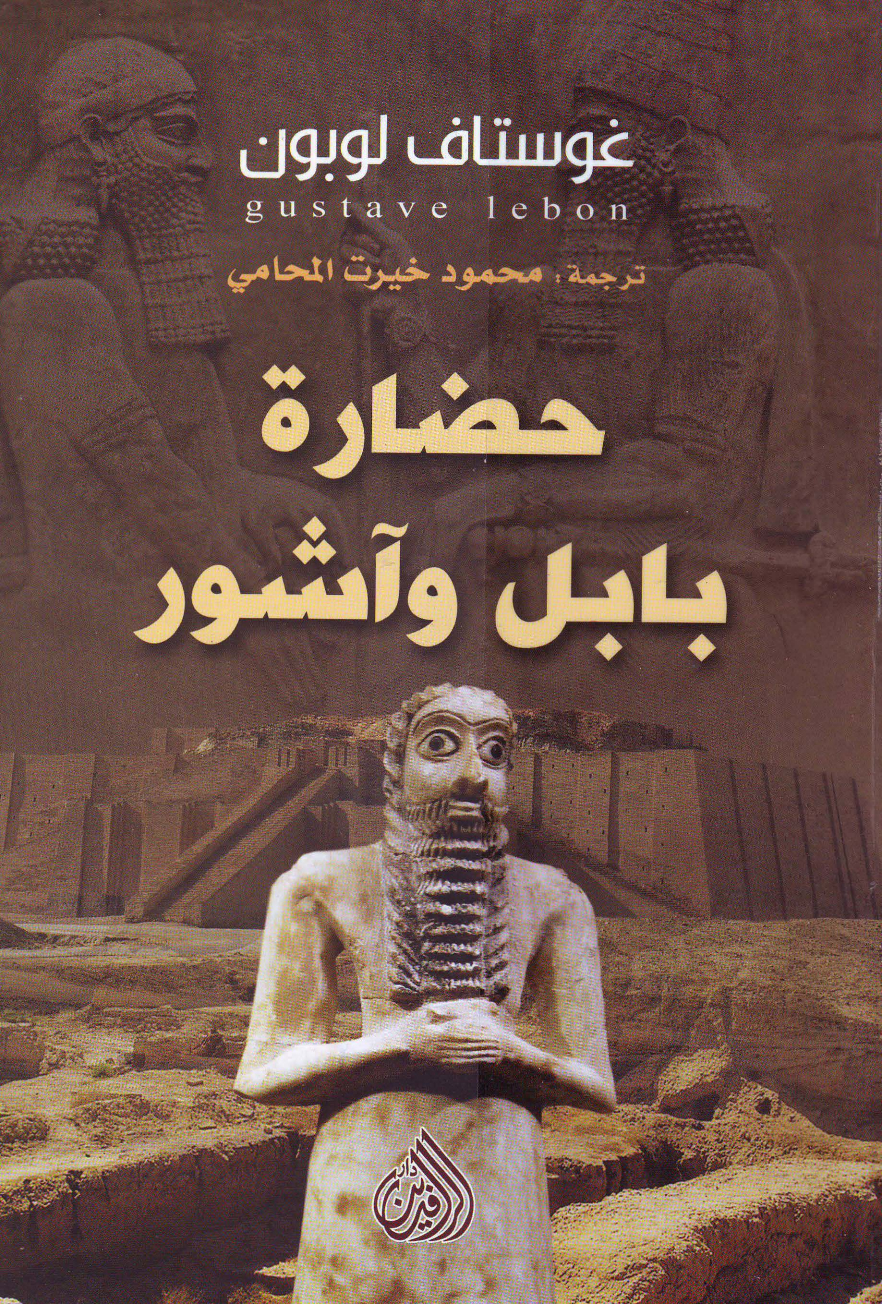

غوستاف لوبون
gustave lebon
ترجمة: محمود خيرت المحامي
حضارة
بابل وآشور

حضارة بابل وآشور

تأليف : جوستاف لوبون
ترجمة: محمود خيرت المحامي

القياس : ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات : ١٥٦ صفحة



طباعة ونشر وتوزيع:

بيروت ـ لبنان
٠٠٩٦١ ١ ٥٤١٩٨٠
العراق ـ بغداد
٠٠٩٦٤ ٧٨١٠٠٠١٠٠٥
Email: **daralrafidain@yahoo.com**

©جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأيّ شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأيّ شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

All rights reserved, is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book, or part thereof, or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information, whether electronic or mechanical, including photocopying, recording, or storage and retrieval, without written permission from the rights holders

هام: إنّ جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر..

Printed in Lebanon

حضارة بابل وآشور

تأليف

جوستاف لوبون

ترجمة

محمود خيرت المحامي



مقدمة

للأستاذ الكبير سلامه موسى

عنيت المطبعة العصرية عناية كبيرة باخراج مؤلفات جوستاف لوبون باللغة العربية . وهذا الكتاب الذى نكتب مقدمته يختلف عما سبق أن ترجم للمؤلف . لأن الموضوعات التى عولجت فى الكتب السابقة كانت اجتماعية يبحث فيها المؤلف قيمة الأفكار الاشتراكية والثورة الفرنسية ونحو ذلك[1] . أما هذا الكتاب فيبحث الحضارات القديمة فى بابل واشور مهد الأمم العربية الحاضرة .

ولسنا هنا بسبيل التقدير للفلسفة الاجتماعية التى كان جوستاف لوبون يؤمن بها ويدعو إليها فى أواخر القرن الماضى وبداية هـذا القرن . فان تفكيره هنا كان ثمرة الوضع الاقتصادى الذى كانت تعيش فيه طبقته ، وثمرة النهضة الاقتصادية التى كانت فرنسا تستمتع بها فى أيامه . فانه كان ينتمى إلى الطبقة المتوسطة . وهى فى فرنسا تتألف من المالكين الصغار ، سواء أكانوا يملكون أرضاً للزراعة أو دكاكين للتجارة . وهؤلاء كانوا مطمئنين إلى عيشتهم ، يكرهون التغيير . ثم كانت الطوالع الاقتصادية القريبة لا تدل على خطر قادم . لأن تغلب المتاجر الكبيرة على المتجر الصغير لم يكن قد بدت أماراته . ومن هنا الموقف الفلسفى الاجتماعى الذى وقفه جوستاف لوبون . موقف المدافع عن حق الامتلاك الفردي ، الكاره

---

(١) وهذه الكتب القيمة هي « روح الاشتراكية » و « روح السياسة » و « روح الثورات » و « الآراء والمعتقدات » الناشر

للاتجاهات الاشتراكية بأنواعها. وهنا أيضاً محور فلسفته الاجتماعية حين يتكلم عن الثورة الفرنسية، أو عن الأحزاب الفرنسية فيما بين ١٨٨٠ و ١٩١٠

ولكن جوستاف لوبون كان مؤرخاً قبل أن يكون فيلسوفاً. بل هو قد صار فيلسوفاً لأنه كان مؤرخاً. وعنايته بدراسة الأمم القديمة هي عناية المؤرخ العالي الذي يحاول أن يكتب التاريخ باعتباره تاريخ الحضارة والتطور الاجتماعي وارتقاء الفنون، وليس تاريخ الحروب والأمراء والنوادر عن ابهة هذا الملك أو كرم ذلك الأمير. ونحن في هذا الكتاب نقرأ وصفاً للدرجات الأولى في سلم الرقي البشري كما كانت ممثلة في حضارتي بابل وأشور

وقد مات جوستاف لوبون قبل أن تظهر مدرسة البؤرة الواحدة. أي تلك المدرسة التي تزعمها اليوت سميث الانجليزي وبرستيد الأمريكي. وهي تقول إن الحضارة الأولى الزراعية إنما نشأت في مصر فقط. ثم بعد ذلك شرعت تتفشى إلى جميع جهات العالم وقاراته. وإننا نجد بالاستقصاء آثار الحضارة المصرية القديمة في انجلترا، كما نجدها في مكسيكا والهند والصين، بل حتى بين القبائل المتوحشة في أفريقيا. بل هناك لغويون مثل رندل هاريس استطاعوا أن يردّوا بعض الأسماء الانجليزية والروسية إلى أصل مصري قديم. وعندهم مثلا أن أنقرة عاصمة تركيا إنما هي «أنخ رع». كما أن موسكو تعني «مدينة الجلود أو الفراء» في اللغة الفرعونية القديمة

ولكن جوستاف لوبون لم يدرك هذه المدرسة. ولو أنه أدركها لانتفعنا كثيراً بتفكيره: المعارض أو المؤيد. فانه عالج أمم الشرق الأوسط باعتبارها مستقلة الواحدة من الأخرى، أي باعتبارها البؤر المتعددة

للحضارات الأولى . ولكنه مع ذلك وجد وجوهاً كثيرة للتشابه تومىء إلى وحدة الأصل

ويستطيع القارىء الذى يطلب شرحاً موجزاً للنظرية القائلة بوحدة الأصل أو البؤرة الواحدة للحضارة أن يقرأ كتابى « مصر أصل الحضارة»

وقيمة جوستاف لوبون هنا أنه جمع مقداراً عظيماً ، بل عظيما جداً ، من المعارف التاريخية عن هاتين الأمتين القديمتين . ونحن فى مصر نحتاج الى الكثير من هذه المعارف ، وخاصة عن تلك الأمم السامية التى تقع شرق مصر ، والتى تناوبت التاريخ وأضاءته قروناً عديدة بألوان من ثقافتها الفنية . وهو يسرد لنا قصة هذه الحضارات ، ويتدرج بنا من البدايات المتواضعة ، فيتناول العقائد الدينية ووصف المعابد ، ثم يتدرج الى ترف الملوك وارتقاء الفنون بما يكشف لنا عن صفحات مجهولة من التاريخ . وهى جميعها تلصق بنا لأننا أبناء هذه الأمم وأحق البشر بدرسها . وكان يجب أن تتفشى بيننا المؤلفات التاريخية فى وصف الأشوريين والأيرانيين والممالك السامية العديدة من أرض النهرين الى تدمر وبطرة . وكان يجب أن تستفيض بيننا المؤلفات عن حضارات الفراعنة المتوالية منذ العصور الحجرية الى دخول العرب . ولذلك نحن نرحب بظهور هذا الكتاب لأنه يسد فراغاً أو بعض الفراغ . ولأنه ليس بقلم مؤرخ ، وانما بقلم فيلسوف ، أى بقلم أحسن المؤرخين . ذلك أن التاريخ يجب أن يكتب فى استغراض وتحيز ، أى ان الكاتب يجب أن يكون له من سرد الحوادث مغزى اجتماعى وهدف فلسفى . وهذا هو ما يفعله جوستاف لوبون

وبابل واشور مملكتان نهضتا على أرض النهرين ، أى العراق تقريباً .

ولا يظنن القارىء أن الصلة مقطوعة بين الدولة العباسية والدولة الاشورية. فان الخلفاء العباسيين وجدوا شعب اشور وبابل فى العراق ، بل وجدوا أيضاً أولئك اليهود الذين كانوا قد نفوا من اورشليم قبل ١٤ قرناً الى أرض العراق . حتى ان نقيبهم أيام العباسيين كان يقيم حقه فى النقابة على أولئك الذين سبقوه قبل ١٤٠٠ سنة أيام النفى ، أى السبى

وقد عنى المترجم المرحوم محمود خيرت عناية كبيرة فى التزام الأصل. ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً . ويجب أن يضاف هذا الكتاب الى مكتبة التاريخ القديم عند كل منقف عربى

ويحسن بالقارىء الذى يدرس هذا الكتاب أن يقرأ أيضاً كتاباً آخر للمؤلف هو « الحضارة المصرية القديمة » الذى نقله الى العربية الاستاذ م . صادق رستم ، وقامت بطبعه ونشره المطبعة العصرية . ذلك لأن الحضارات الثلاث ، أى المصرية والبابلية والأشورية ، تفهم اكثر بالمقارنة والمضارعة . وهو ، أى القارىء ، يزداد معرفة بهذه الحضارات القديمة عند ما يقرأ أيضاً كتابى « مصر أصل الحضارة » وهو تحت الطبع

وقد حاولت في هذا الكتاب الاخير أن اشرح نظرية البؤرة الواحدة للحضارات القديمة . وهذه البؤرة ، كما قلت ، هي مصر .

وعندى أن أقرب الأشياء الى دراسة الدين هو دراسة التاريخ القديم. وقد كانت أوربا فى عصر النهضة تتعلم « الانسانية » بدراسة الأغريق والرومان القدماء حتى كانت تسمى هذه الدراسة باسم « البشريات » أو « الانسانيات » . ولا يزال هذا الاسم معروفاً فى الجامعات الأوربية الى اليوم .وذلك لأن التاريخ يكشف عن هذا التضامن البشرى فى المجهود العام

نحو الرقى والثقافة والحضارة فيبعث على التفاؤل بالمستقبل والايمان بالخير العام . بل هو أحياناً يكشف أيضاً عن المأساة البشرية ، مأساة الفقر والظلم اللذين عانتهما جماهير الأمم من استبداد الطغاة والمستبدين . اعتبر مثلا كلمة « مسكين » التي يعرفها الباريسيون فى عصرنا الحديث بمعناها العربى ، معنى الذلة والحقارة والفقر بل ، العجز . فان هذه الكلمة كانت تدرج على ألسنة البابليين منذ أربعة آلاف سنة ، أى قبل الميلاد المسيحى بنحو ألفين من السنين بهذه المعانى أيضاً . وهنا مغزى يجب الا ننساه

واعتبر أيضاً هذا التدرج فى المؤسسات البشرية : من الكهانة ، الى الملوكية ، إلى القضاء . ومن العائلة إلى المجتمع ، إلى الفنون العصرية ، تجد أنه يكشف لنا عن سنة التطور التى يجب الا ننحرف عنها . فان جميع هذه المؤسسات نشأت بدائية غشيمة ، ثم انتهت الى ما وصلنا اليه من ارتقاء عام .

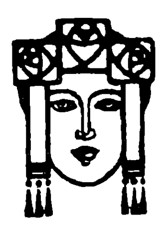
بدأ حمورابى فى بابل بمعاقبة المخطىء ، أو المجرم ، بعقوبات انتقامية . ووصلنا نحن بالعقوبة حتى جعلناها أحياناً « مع وقف التنفيذ » .

وكان ملوك القدماء آلهة . اعتبر الاسكندر المقدنى كيف كُرّس وقدس فى معبد آمون حتى صار الهاً . أما فى ١٩٤٦ فقد أعلن امبراطور اليابانيين للشعب أنه ليس الهاً . . .

وهكذا . نحن نسير فى تطور . ودراسة التاريخ القديم هى خير ما يضىء لنا هذا الطريق نحو التطور والرقى ؟

يونيو ١٩٤٧ سلامه موسى

ابواب الكتاب



الباب الأول

البيئـــة والجنس

١ — البيئة



إنَّ ما جادَ به نَهرا دِجلة والفرات على الجزيرة والعراق (مابين النهرين) من الخصب والرخاء لم يكن أقل مما أسبغه نهر النيل على أرض مصر من هـذا القبيل . فمن فيضهما أترعت الحياض والغـدران ، وأمرعت الأودية والمروج بين المفاوز والصحارى ، فصارت مَهْداً لعصر جديد من عصور الحضارة الزاهية .

ولـكنَّ هذين النهرين الاسيويين ليس لهما ما للنيل من النظام والقوة ، لأن فيضانهما لا يأتي بطريقة دورية ثابتة ، ولأن قوة جريانهما ليست متسـاوية . فبينما يندفع نهر دِجلة في مجراه اندفاعاً شديداً يعوق الملاحة ، ترى نهر الفرات ينحدر انحداراً غير محسوس ، ثم يفيض فينشر من حوله بِطاحاً ومستنقعات فسيحة تضرُّ بالصحة وتجعل المنطقة التي تعمّها غير صالحة للسكن .

لذلك كانت أرض ما بين النهرين في أشدِّ حاجـة الى سواعد الرجال وعملهم المتواصل (بخلاف وادي النيل) لتنظيم جريان الميـاه . فلم تستطع الحضارة هناك أن تميس في ثوبها القشيب الأنيق إلا بعد أن أفرغ هؤلاء الرجال جهدهم في تقويم أوَد هذين النهرين . ولمـا وقفت حركة العمل وأهمل نظام الري ، أجدبت الأرض وأمحل الزرع والضرع ، فوقف السير في طريق الثروة وانهارت مدنيـّة تلك العواصم العامرة القائمة على ضفاف النهرين

وسنرى بعد قليل مبلغ ما قام به هؤلاء الرجال من الأعمال الشاقة المتواصلة لادراك

الغاية من زراعة السهول الواسعة الأطراف في اراضي الجزيرة والعراق ، ونذكر الأسباب التي حالت دون المضيّ في هذا السبيل .

على أن معظم أرض ما بين النهرين اليوم ليس إلا صحراء اندفنت في جوفها بقايا المدن القديمة فصارت آكاماً وتلالا وكثبان رمال . فلا ترفع التراب عن وجه هذا السهل الفخم حتى تتجلى لك من تحته عظمة تلك المدن التي كانت فيما مضى زاهرة عامرة . وما من يوم يمر إلا ويتحف العالم بشيء جديد من الشواهد على مجد تلك الممالك الغابرة

والآن لم يبق لنا سوى آثار تلك العظمة وذلك المجد القديمين ، حتى إن الأرض نفسها التي كانت في الزمن الماضي كثيرة الخصب وافرة الغلال أصبحت كأنها سئمت الانتاج . ومع ذلك ففي فصل الربيع ، حين يعيد الفيضان الى أوردتها الجافة بعض الحياة ، نراها تسترد شيئاً من الخصب والنضرة. ولكن رياح السموم اللافحة لا تلبث أن تعبث بها في الصيف فتجف ، إلا ما كان منها على ضفاف الأنهر والجداول .

ثم أن الرطوبة المدفونة في الأرض في أسفل الفرات تُهيّئ السبيل لتفشي الأوبئة ، وتحول المستنقعات في كثير من جهاتها دون صلاحيتها للسكنى . على أن بعض فلول العرب الفوا هذا الجو الوبيل ، حتى انهم لا يضربون خيامهم او يبنون أخصاصهم إلا في الآجام والغُدران. وهناك لا تقع عيناك على أشجار إلا عند ضفاف الأنهر، ولا يزيد ارتفاع سوقها عن خمسة أمتار . والزوارق تجرى بين صفين منها ، ولكن ، ياويل ركابها حين يضعون أقدامهم على الأرض الغمقة فانهم يغوصون فيها .

ويجتمع نهرا دجلة والفرات في شط العرب (١) . وقد كانا في العصر الذي قبل التاريخ مستقلان عن بعضهما الى ان يصبا في الخليج الفارسي. وكان بين مصبيهما نحو عشرين فرسخاً . وقد تجمّع من رواسبهما مثلث يُشبه دلتا النيل ، يأخذ في الاتساع

(١) أطول وأعظم وأهمّ نهر في آسيا الغربية ، وله منبعان في جبال أرمينية ، أحدهما الجنوبي واسمه « مُرادشاي » يسير مستقلا نحو ٢٧٠ ميلا حتى يلتقي بنهر « فرات (Frat) » الشمالي عند بلدة « رِكبَان مادن » فيتكون من مجموعهما نهر الفرات (Euphrates) الذي يسير جنوباً حتى يتلاق ونهر دِجلة (Tigris) قبلما يصلا الى الخليج الفارسي بنحو ستين ميلا عن بلدة القُرنة . ويسمى هذا الجزء الاخير المؤلف من نهري الفرات والدجلة « بِشَط العَرب » . وطول كل النهر بأقسامه الثلاثة ١٧٨٠ ميلا من المنبع الى المصبّ .

شيئاً فشيئاً وبطريقة منتظمة بحيث يمكن الاهتداء الى قياسها .

وكل من النهرين صالح للملاحة . إلا أن سرعة تدفق الدجلة وقلة عمق الفرات يعوقان سير السفن الكبيرة . ولهذا السبب ، والسبب الذى سنذكره عند الكلام على الزراعة ، اضطر السكان القدماء إلى إتمام عمل الطبيعة بما لجأوا اليه واستعانوا به من نظم الري .

ومن يطلع على تاريخ هيرودوتس ، يلمّ بما كانت عليه هذه البلاد - بلاد بابل واشور - من الحضارة والعمران . فانه بعد أن ذكر مجدها وأشار إلى ثروة بابل العظيمة ،قياساً على ما كانت تدفعه من الخراج الى ملك الفرس ، قال : -

« ليست الامطار بغزيرة في بلاد أشور ، وهي لقلتها تكاد أن لا تكفي لارواء جذور الحبوب المبذورة ؛ فكان الناس يعمدون الى استمرار ريّها بمياه النهر حتى تنضج . ولم يكن كنهر النيل يفيض من نفسه فيروي ما حوله من السهل ، بل كان الري هنالك بحاجة الى سواعد عاملة وآلات رافعة

« على أن بابل كانت كمصر ، كثيرة الترع والقنوات ، ومنها ما كان كافياً لسير السفن التى تتجه جنوباً بغرب من الفرات الى دجلة حيث تقع « نينوى » الشهيرة بخصبها وكثرة حنطتها

« نعم انه لم يكن التين والعنب والزيتون من حاصلاتها ، وقد يكون ذلك لعدم تجربة غرسها فيها ؛ ولكنها مع ذلك كانت بطبيعة أرضها صالحة لزرع كل نوع من أنواع الحبوب ، بحيث تبلغ غلة الكيلة مئتي كيلة وقد تبلغ الثلث مئة

« ولشدة الخصب كان عرض ورقة النبات يبلغ أربعة قراريط . واني وان كنت لا أجهل مبلغ ارتفاع سوق الجاورس والسمسم ، فاني أضرب عن ذكره صفحاً لاعتقادي أن الذين لم يروا بابل لايصدقون ما أذكره عن غلاتها

« ثم ان البابليين كانوا يستعملون زيت السمسم (سيرج) بدلا من زيت الزيتون . وكانت سهول بابل مملوءة من النخيل ، وجلّه مثمر ؛ وكانوا يقتاتون ببعضه ويستخرجون من الباقي عسلاً وخمراً »

ولقد كانت أشجار النخيل لكثرتها من أكبر موارد الثروة فى البلاد ، حتى ان « سترابون » كان يروي عنها شعراً فارسياً عدّ فيه نحو ثلاثمائة وستين طريقة مختلفة لاستخدامها والانتفاع بها .

على أن حاصلات كلدة وبابل لم تكن كحاصلات اشور أو أرض الجزيرة العليا، لأن مناطق الأولى كانت عبارة عن سهل فسيح متصل بعضه ببعض ، بخلاف الثانية التي كانت ترتكز في نصف دائرة على سلسلة جبال طوروس وأرمينية وكردستان، فهي لذلك منحدرة ، ولأنها أيضاً على مقربة من قمم تلك الجبال فقد كان هواؤها أقلّ

جفافاً وحرارة مما هو في بابل، وكانت مياهها غزيرة ، ولذلك لم تصلح للنخيل ولكنها كانت صالحة لما يغرس فى أوربا من أشجار الكريز والبرقوق والمشمش وغيرها ، ولما ينمو في غاباتها من أشجار الجوز والبلوط .

على أن أشور لم تخل في شمالها من جبـال يلوح للانسان انها قامت حائلا بين مجرى النهرين فاضطرا أن يخترقا منفذاً فيها حيث تتجمع المياه و تدور بين جدارين مرتفعين من حجارة سوداء شديدة الصلابة ، وحيث لايجد الانسان طريقاً يصلح لأن يضع قدمه فوقه . ولـكنّ كثـيراً من السياح دفعتهم جرأتهم الى المخاطرة بقواربهم الخفيفة في هذه الأحواض الموحشة وهم ثملون براح جمالها الرائع .

أما نقطة الانفصال بين المناطق الكلدانية والأشورية فظاهرة من ممر طبيعي في أعالى بلدة « هيت » على الفرات و « سمره » على دجلة . وهذا المرتفع من الأرض الذى يُشبه شاطىء رملي لبحر عظيم كان على ما يظهر فى العصور المزمنة ساحلا حقيقياً ترتطم عنده أمواج البحر الذي يطلق عليه الآن اسم الأوقيانوس الهندي .

ولا شك فى انه لما استعمر الناس هذا السّهل أول مرة كان الخليج الفارسى يغمره إلى مسافة أربعين أو خمسة وأربعين فرسخاً . إذ أننا نجد الآن فى مكان بابل عدداً لا يحصى من الاصداف والمحار . وكذلك نجـد فى مكان أبعد منه فى جوف الصحراء أرضاً مشربة ملحاً .

وكل الثروة المعدنية من الحجارة الصلبة والرملية ، و الرخام ، والحجر الاسود الصلد (basalt نسَفة) و المرمر ، والحديد ، والرصاص ، والفضة ، والانتيمون ، وغيرها نجدها فى المنطقة الجبلية من أرض مابين النهرين العليا . أما سهل بابل فليس فيه شيء من ذلك ، ولـكن فيـه منابع الأسفلت تتعرج مجاريـها السوداء كالثعابين فوق سطح الرمل الذهبي حيث تنحدر بعض الأحيان في الفرات .

وهاك شيء مما ذكره عن ذلك ديودوروس الصقلي :

« ومن جملة مدهشات بابل مقادير الاسفلت التي فيها والتي لا تنضب منابعها . فهي لـكثرتها لا تكفي لانشاء المباني الضخمة فحسْب ، بل ترى الاهالي يجمعون هـذه المادة ويستعملونها بعـد تجفيفها وقوداً بدلاً من الحطب »


(بنيب الجبار الاشورى)

ولكننا اذا سهل علينا أن ندرك إمكان قيام مدن عظيمة آهلة بالسكان في أعالي أرض الجزيرة عند منبع النهرين الخصيب البعيد عن الجبال التي قامت في نصف دائرة كسد منيع دون غارات المغيرين ، فانه ليس من السهل أن ندرك كيف أمكن حضارة رائعة أن تنشأ وتترعرع في المنطقة القاحلة المحرقة الممتدة من هضاب ايران الى شواطىء البحر الابيض المتوسط حيث حدود المملكة الكلدانية .

نعم يصعب علينا أن نهتدي الى علة ذلك وقد اكتظت هذه المنطقة بالبلدان العامرة وكنوز العالم القديم حتى فاقت بابل أختها نينوى في المجد والثراء ، والرواء والخلود ، وكادت تصبح سيدة المدن لولا ضرتها العنيدة طيبة المصرية ، تلك المملكة الثانية التي كان لها عرش الماضي .

على أن بابل لم تقاوم وحدها فيما مضى من القرون قوة الصحراء الهادمة التى أدرجتها شيئاً فشيئاً فى أكفانها ، فان تدمر لا تزال ترفع عن أعمدتها الشامخة كفنها الرملى .

ولكن « تدمر » ، وان كانت ابنة هذه المنطقة ، إلا أن حقيقة حياتها و تقدمها لم تفهم الى الآن كما فهمت بابل لأنها لم تشيد مثلها على شاطىء نهر .

ثم اننا لنتساءل عن المعجزة التى كانت سبباً فى قيام تلك الممالك الجامعة لشتات الأمم ، فى مناطق تكاد لا تكفى الآن لسكنى عدد قليل من القبائل الرحل .

والجواب عن ذلك سهل إذا رجعنا إلى السبب نفسه . لأنه اذا كان نهر

واحد سبباً فى حياة مصر ، فان طريقاً واحداً كان أيضاً السبب الذى خلق تينك المملكتين العظيمتين « كلدة واشور »

ولكن هذا الطريق الذى اخترق قديماً تلك البلدان العظيمة لم يكن طريقاً عادياً بل انه كان أكبر طرق العالم القديم ، والطريق الوحيد الذى كان يصل الشرق الأقصى ومصر بأوروبا ، وينقل أهل الشرق إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط حيث كانوا يذهبون على سفن الفينيقيين القوية الى حيث شاؤوا من البلاد المعروفة حينئذ

وهكذا كانت القوافل الكثيرة لا تنقطع عن هاتين المملكتين آتية من صيداء وصور ، بينما كانت السفن تنقل اليهما الغلال والمصنوعات والموادّ الثمينة من بلاد الحبشة ، صاعدة نهريّ دجلة والفرات (عن طريق الخليج الفارسي) .

وعلى ضفاف هذين النهرين ، وعلى طول مجراهما فى الصحراء ، كانت حركة التجارة سبباً فى عمران تلك البنادر العديدة التى كانت بمثابة مستودعات تجارية على امتداد طريق تلك القوافل .

ولما كانت الزراعة وحدها قوام حياة مثل هذا العدد الكبير من الناس ، كانت الحاجة ماسة إلى معالجة أعمال الريّ الواسعة لا سيما فى أرض كأرض الكلدانيين يكفيها القليل من الماء ليظهر ما لها من هبات الخصب والنضارة .

على أن أهلها ما كانوا أيضاً ليضنوا بالمال أو العمل فى هذا السبيل . وهكذا كانت أرض الجزيرة القلب الذى يخفق بحياة العالم القديم . ثم انها كانت من الوجهة الجغرافية مركزاً وسطاً تتجه اليه كل العيون ، حتى صارت فى نظر القدماء مهد الجنس البشريّ . ولذلك كان هذان النهران من أهم الأسباب لاستبقاء هذا المقام . ولأنهما كانا غير كافيين ، لريّ كل هذه الأراضي ، اضطرت الأيدي العاملة الى استيفاء ما لم تستكمله الطبيعة بتلك الأعمال العظيمة التى لا تزال تدهشنا آثارها .

ولما دالت دولة الكلدانيين والأشوريين ، فان الشعوب التى خلفتهم ، وهم الفرس والاغريق ، والعرب أخيراً ، انتفعوا باستخدام أعمال سلفهم ، فظلّ لتلك الممالك شبابها القديم على رغم ما كان يمزقها من الثورات والغزوات . ولكن مركز المدنية

أخذ يتنقل شيئاً فشيئاً الى أن اكتشف « ڤاسكو دي جاما[1] » (Vasco de Gama) طريقه البحرية الجديدة التي تصل بين الشرق والغرب.

ولما كان الطريق الأول البريّ بطيئاً وغير مأمون ، فقد قضي عليه هذا الطريق البحري الجديد . وهكذا أصبح طريق النقل المفضّل هو إما بالطواف حول افريقا بحراً ، أو عن طريق القاهرة فالبحر الأحمر ، إلا للقليل من القوافل التي كانت تخاطر بسلوك الطرق القديمة التي وطئها تحوتمس وقمبيز واسكندر الأكبر .

وانقرض سكان تلك الممالك شيئاً فشيئاً ، وهبت الرمال من مضاجع السكون تثور على تلك المدن المنعزلة ولا تجد من يقاومها .

وعادت تلك الصحراء التي ذللتها القرون الماضية تبسط حجاباً كثيفاً من الرمال فوق تلك المدن التي شمخت في الماضي بأنفها وهزت أعطاف العزة والسؤدد .

٢ — الجنس

يتعذّر علينا جداً أن نعرف بالتدقيق أصل أجناس سكان « كلدة » أو غيرها من بلدان العالم القديم . ومهما دققنا البحث في الاكتشافات الحديثة فقد تعرض لنا فترة نتخبط عندها في ليل حالك الظلام ، ونضطر الى الوقوف ونحن لا نرى هادياً ، ولا نبصر نوراً .

ولقد دلّ اكتشاف سر الخط الأشوري «المسماريّ» على انه كان في أرض الجزيرة (ما بين النهرين) لغتان مختلفتان ، لجنسين مختلفين من الناس ؛ لغة نينوى الأشورية ، ولغة كلدة السومارية الاكادية .

وهكذا انقشع ظلام الابهام عن أصل سكان نينوى الأشوريين ، واتضح أنهم لم يكونوا من غير الساميين . أما الكلدانيون فان الصعوبة لا تزال قائمة في معرفة جنسهم . وقد كانوا منذ أقدم الازمنة ينقسمون الى شعبين ، أحدهما « سومر » والآخر « أكّاد »

---

(١) بحّار برتغالي اكتشف في سنة ١٤٩٨ طريق رأس الرجاء الصالح الموصّل الى الهند

ولانهم وجدوا ان اللغة « السومار.اكادية » لغة مُلزِنَه (agglutinante) ، وفيها الكثير من الشبه بلغة سكان الاورال الطائي ، ذهب الظن الى أن الكلدانيين من أصل طوراني . ولكن اتضح الآن أنه ظن بعيد عن الحقيقة ،

أولا ، لأننا مهما رجعنا الى الوصف واستنطقنا النقوش البارزة لنستحضر صورة صحيحة للكلدانيين،لا نجد بينهم و بين الطورانيين شبهاً.فلم يكن لهم . على مايظهر ، ذلك اللون النحاسيّ ، ولاتلك الوجنات البارزة ، ولا العيون المنحرفة ، بل كان لونهم أسمر ضارباً إلى السواد ، دون أن يلتبس أصلهم بالزنوج . وكانوا كبار الأجسام مع رشاقة ، ولهم شعر ناعم وأنوف معتدلة ، مما يحمل على الظن انهم أقرب الى الجنس الحبشي ؛ إذا شئنا أن نوازن علمياً بينهم و بين جنس آخر .

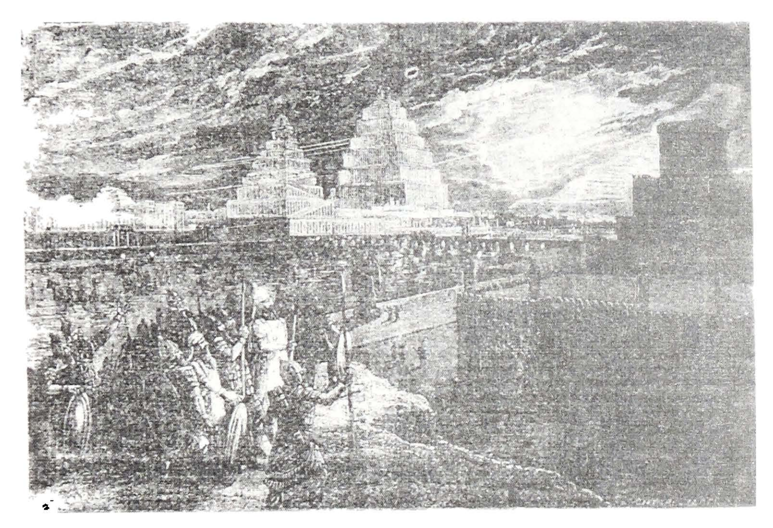
ومن جهة ثانية فان بعض الشبه بين اللغات الطورانية واللغة الكلدانية يرجع سببه الى شيء من النقص فى اللغة الكلدانية لا إلى جوهرها . حتى انها لما كانت لغة مُلزِنة كاللغات الطورانية ، دخلها كثير من الكلمات الكوشية .

ولدينا دليل آخر من التوراة ، وان كان يحتمل الشك ولكن يجب أن نستأنس به أو نعتبره شاهداً علي منشإ هذه الأجناس القديمة . فقد جاء فى الاصحاح العاشر من سفر التكوين (الاصحاح العاشر والعدد السادس ثم الثامن) : -

« وبنو حام هُم كوش ، ومِصرايم ، وفوط ، وكنعان

« وكوش ولد نمرود الذى ابتدأ يكون جباراً فى الارض ، الذى كان جبارَ صيد أمام الرب . لذلك يُقال كنمرود جبار صيد أمام الرب . وكان ابتداء مملكته بابلَ وأرَكَ وأكّدَ وكَلدة (كَلنة) فى أرض شنعار . من تلك الأرض خرج اشُّور وبنى نينوى » الخ .

فاذا صحت رواية التوراة لم يبق أقل شك فى أن الكلدانيين كانوا اخوة المصريين الذين تناسلوا من مصرايم ؛ واخوة الحبشان الذين تناسلوا من فوط . وهكذا نخرج كما خرج رولنسون (Rawlinson) ، الى أن الانسانية مدينة بحضارتها الأولى الى ذرية حام . ومن الأسف أن الغموض والتناقض ، لايزالان إلى الآن محدقان بالمسائل المعقدة الخاصة بنشأة الأمم وأصلها .



(منظر تخيلي لما كانت عليه المعابد والقصور المشيدة على أرصفة بابل)

فبينما نرى ان التوراة نفسها التى جعلت الكلدانيين أولا من أقدم سكان أرض مابين النهرين ، عادت أخيراً ، كما جاء فى سِفر اشعيا ، فجعلتهم مستعمرة بسيطة من مستعمرات الأشوريين :

قال النبى أشعيا : هذه هي بلاد الكلدانيين ، التي لم تكن فيما مضى ، لان أشور هى التى عمرتها وأقامتها لرجال الملاحة .

ومع ذلك فان هذه الرواية الثانية لا يصح الأخذ بها لعدة أسباب سنذكرها .

ومما يجب التسليم به هو أن الكلدانيين من أقدم شعوب العالم. فبلادهم أخت مصر الكبرى ، والكتب العبرية والتواتُر يؤيدان أن كلدة كانت أقدم بلد معمور ، وأنها مهد الجنس البشرى . فهناك تبلبلت الألسن ، ومن هنالك خرج ابراهيم وأشور ، وهما أصل الأمم السامية .

والذي يستنتج من بعض الافتراضات الكثيرة التى عمد اليها المؤرخون لحل هذه المسألة المعقدة هو أن بابل كانت أولا مأهولة بخليط من الأجناس يتخللهم

العنصر الكوشي ، ثم أخذ هذا الخليط يتجانس حتى طغى عليه العنصر السامى الذى كانت له الغلبة أخيراً .

ومع ذلك فليس الساميون هم أول من وضع أساس المدنيات الزاهرة القديمة في أرض ما بين النهرين . فان هذا الفضل يرجع إلى أمم أخرى اعرق فى المدنيَّة ، هى أمم الاكّاديين والسوميريين الذين استقروا أولا عند ضفاف نهر الفرات حيث نشروا الكتابة ، والصناعة ، ونظام الحكم ، والشرائع ، والدين

وهنا نتساءل : من أين جاء هؤلاء الناس ؟

قال رولنسون (Henry Rawlinson) ، أنهم جاؤوا من الحبشة عن طريق البحر (الخليج الفارسي) ، ثم صعدوا في نهريّ الفرات والدجلة يحملون معهم كنوز الحضارة التى انتعشت وقتئذ عند أعالي النيل .

على أنى لا أخطىء إذا جاريت ظنى وذكرت أنهم انما جاءوا من هضاب آسيا الوسطى وهم مشربون بذكاء الطورانيين ونشاطهم

وعلى أية حال فالذى يجب ملاحظته هو أنه ، بالرغم من تغلب النسق الساميّ فى النقوش الموجودة فى ما بين النهرين ، وبالرغم من أن الممالك الكبرى التى سنتفرغ لذكرها كانت تحت سيطرة وحكم الساميين ، إلا أن الجنس الساميّ لم يكن العالم مدينًا له بحضارة الكلدانيين والاشوريين القديمة

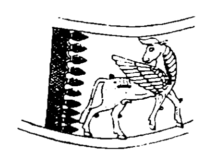
ويغلب على الظن أن الذين وضعوا أساس هذه الحضارة هم اخوة المصريين الأولين أو معاصروهم أبناء شسوهور (Schesou-Hor) الذين عاشوا قبل الدولة القديمة ، والذين ، كما بلغنا عن طريق الاساطير وغيرها ، قد اختصتهم الآلهة ليكونوا أول الهداة الى السير في سبيل التقدم ، ومن عهدهم أخذت الانسانية تتقدم بخطى واسعة وسريعة وثابتة .



الباب الثاني

تاريخ آشور وبابل

١ — الأساطير ومصادر التاريخ



ان تاريخ أشور وبابل ، أو كلدة ، كان فى هـذا القرن ، كتاريخ مصر ، موضع عناية المؤرخين ولما حُلَّت رموز الكتابة الهيروغليفية — هذا الاكتشاف العظيم الذي هدانا إلى ماضي وادى النيل — حُلت بعدها رموز أخرى لا تقل عنها إبداعاً وهي الكتابة المسمارية (أو الاسفينية) .

وهذه الكتابة الغريبة التى تستمد اسمها من شكلها ومن الزوايا التى تتخالل حروفها المشابهة للمسامير ، كانت كتابة الكلدانيين والأشوريين والفُرس . ولقد كانت وسيلة لكتابة لغـات كثيرة ، ولذلك اعترض الباحثون فيها صعوبات أكثر مما لقيـه الباحثون فى الخط الهيروغليفي .

واتفق أن بعض السياح فى خلال القرون المتأخرة نقلوا معهم الى أوروبا شيئاً من هذه الخطوط المسمارية باعتبار انها عاديات أو طلاسم ، ولم يخطر ببال من رآها أن لهامعنى ولم يكن من اهتمام أو ميل الى تفهمها لأن تلك الآثار كانت قليلة نادرة ، والحجارة الأثرية التى عثروا عليها فى أسيا لم يكن يُظن انها يمكن أن تزيد شيئاً على ما أخذه التاريخ العام من مؤرخي الاغريق (وتوراة العبرانيين) .

ووقف الناس عند العبارات المبهمة التى جاء ذكرها فى التوراة ، والاساطير التى وردت على لسان هيرودوتس ، وديودورس ، وسترابيون منقولة عن ستيزياس ، ولم يتقدموا قيد أنملة .

وكان ستيزياس هذا ، وهو طبيب اغريقي في بلاط ارتخرسيس(الثاني نيمون) (Artaxerxes Mnemon)[1]، مرجع تلك الروايات البعيدة عن كل تصديق .

ولذلك لم يبق غير مرجعين وحيدين ، وان كانا مشكوكا فيهما أيضاً ، وهما بعض أوراق من كتاب لكاهن كلداني اسمه بيروز (Bérose) معاصر للاسكندر ، وهو الذي كتب تاريخ الاشوريين نقلا عن المخطوطات المسمارية . فكان في هذا التاريخ مثل مانيتون في ما وضعه عن تاريخ مصر .

ومما يؤسف له أنه لم يصل الينا من هذا التاريخ سوى فقرات ذكرها أوزيب (Eusèbe) ويوسف وغيرهما من المؤرخين .

و بناء على هذه المراجع الناقصة ، المشكوك في صحتها ، يمكننا أن نلخص تاريخ أول الممالك الكبرى الاسيوية في ما سيأتي .

فاذا رجعنا إلى أبعد مدى في الماضي وجدنا أمامنا آثار الطوفان ، وذكريات عن أسرة واحدة نجت من طغيانه وقد استوت فلك نوح على جبل (أرارات) بارمينية . وكذلك برج بابل ، وتبلبل اللغات (اختلاطها) ، وتشتت الناس . ثم يخرج علينا فجأة من هذا الغموض البهيم « نمرود » الصياد الجبّار .

وما كانت الكتب العبرية المقدسة وحدها هي التي حاكت نسيج هذه السير ، فان التواتر ، والاساطير وغيرها أيضاً ، نقلتها الينا من الجزيرة والشام و بلاد العرب .

نعم ان الأسماء لم تستقر على أصلها . لانهم ذكروا اسم كزيسوسروز(Xisouthros) بدلا من نوح ، وايستوبار (Istoubar) بدلا من نمرود مثلاً ، ولكن السيَر كانت فيما عدا ذلك منطبقة على بعضها تمام الانطباق

---

(١) ملك الفرس من سنة ٤٠٥ الى سنة ٣٥٩ ق . م . الذي قتل اخيه كورش الصغير في سنة ٤٠١ ق . م .

ثم ان علم التاريخ ، رغم ما بلغه فى أيامنا من التقدم ، لا يهدينا الى بيان دقيق عن هذه العصور الغابرة ، ولذا فنحن مضطرون الى الالتجاء الى تلك الذكريات المبهمة لنرى من خلال الحضارات الاسيوية الأولى ما كان من أمر الانقلابات الطبيعية ، والتغيرات العظيمة التى هزت الكون ، ومهاجرة الأجناس وتفرقها على وجه البسيطة ثم قيام الأبطال والمغامرين من الناس الذين حرروا العالم من فوضى الهمجية بما أسسوه واكتشفوه .

ومثل أولئك الابطال فى آشور وكلدة أو مصر أو اليونان وغيرها كانوا يعتبرون كآلهة . وكل ماذكره الأقدمون عن أصلهم متشابه ، وخلاصته ان تلك العصور عريقة فى القدم عراقة خرافية ، وأنه كان يدير شؤون شعوبها أشخاص فى مقام الآلهة .

ففى تاريخ بيروز[1] (Bérose) نجد ، كما رأينا في دولة الشوهور على ضفاف النيل ، ان مثل هذه السلالات الالاهية قد حكمت الكلدانيين الأولين الذين يرجع تاريخهم الى مئات الألوف من السنين .

وما كان للملوك البشرية وجود إلا بعد الطوفان ، فقد ظلت أسراتهم تحكم نحو ثلاثين الف سنة أو أكثر .

ولا يكاد المرء يفرغ من قراءة تلك القصص الاساطيرية ، ويبدأ فى مطالعة ما كان يظنه التاريخ الحقيقى فى كتابات هيرودوتس وديودورس وسترابون ويوسف ، وكذلك التوراة ، حتى يرى نفسه أمام حوادث تكاد لا تقل غرابةً عن تلك الخزعبلات ، مثل انقضاض نينوس (Ninus) بجيوشه العظيمة على نصف آسيا واخضاعها وما قامت به سيميراميس (Sémiramis) من الأعمال المدهشة .

ويلى ذلك تاريخ من نسج الخيال عن هذه الملكة البديعة الحسن ، الكاملة العقل ، التى فتنت الناس ، وأخضعت الشعوب ، وأنشأت المدن التى لا مثيل لها ، وأقامت القناطر على الأنهر ، وشقت الطرق فى الجبال ؛ والتى كان موتها كمولدها عجيباً

---

(١) بيروز اسم كاهن كلداني وضع في القرن الثالث قبل الميلاد تاريخاً شهيراً عن كلدة وعن أشور ، ولكن هذا التاريخ قد اختفى الآن .

مدهشاً . ذلك التاريخ الذى سحر العقول من خلال القرون مازال يحتفظ لها بكرامتها العتيقة على رغم الاكتشافات العلمية الحديثة التى أثبتت خزعبلة قصتها .

ويستحيل الآن أن نصدق تلك الخرافات التى رويت فيما مضى عن سميراميس ، بل من الصعب أن نصدق انه كان لها وجود وشخصية على الاطلاق .

وعلى رغم افتتاننا بحقائق التاريخ ، وقبل الدخول فى تاريخ الأشوريين الوحشي ، وما كان على عهدهم من التقتيل والتعذيب ، لا نرانا نقوى على كبح جماح أنفسنا دون الشك فى ما رواه ديودوروس عن سيرة تلك الأميرة الغريبة ، وأن لا نترسم وجه تلك الملكة التى، وان كانت لم توجد فعلاً ، فأنها تركت ، ولا تزال تترك ، فى عقول الناس المفتونين بها أثراً من مجدها وعظمتها . وهاك مارواه عنها : —

« ما كانت سميراميس سوى ابنة رجل آدميٍ من معبودة سماوية ، أرادت أن تستر زلتها عند ولادتها ، فتركتها فى الصحراء حيث كان يغذيها ، سنة كاملة ، سرب من الحمام . ثم التقطها الرعاة بعد ذلك فشبت ونمت وأصبحت فريدة بين النساء فى الجمال .

ولقد أبصر بها ضابط آشوري عظيم ، هو مينونيس (Ménonès) حاكم سوريا ، فشغف بها وتزوج منها . وبعد قليل رافق هذا الضابط ملكه نينوس (Ninus) فى حملة على بقطريانه (Bactriane) ، فأخذ سميراميس معه

ولكن الملك وجيشه وجدوا مقاومة شديدة عند أسوار مدينة بقطرة (Bactres) حتى تراءى له إستحالة الاستيلاء عليها .



(صورة تقديم الهدايا)

ولقد لاحظت سميراميس ان كل الهجمات كانت موجهة إلى الجانب المشرف

على السهل ، والى الجهات الأخرى الغير حصينة ، بعكس القلعة التى لم يهاجموها مطلقاً نظراً لموقعها الحصين . ولاحظت أيضاً أن حراس القلعة أسرعوا الى ذلك الجانب لاسعاف اخوانهم عند الحصون الخارجية المنخفضة . فبادرت وأخذت معها نفراً من الجند المعتادين تسلق الصخور والاسوار ، ثم انسلت من طريق وعر الى ناحية من تلك القلعة ودخلتها . ثم أعطت إشارة متفقًا عليها إلى القوة المهاجمة فى الجانب الآخر ، وكانت بعض نقط الدفاع فيها ضعيفة ، فارتاع المحصورون من ضياع القلعة وولوا الادبار قانعين بالسلامة .

وهكذا سقطت هذه المدينة العظيمة فى يد الأشوريين . . . . .

ولقد أعجب الملك ببسالة سميراميس فغمرها بالهدايا . ولكنه شغف بها حبًا فطلب الى زوجها أن ينزل له عنها فيزوجه بابنته سوزان . غير أن مينونيس أبى أن يرضى بهذه المبادلة ، فهدده بأن يفقأ عينيه إذا لم يذعن لارادته فى الحال . وهكذا أثر فيه هـذا التهديد والحزن فشنق نفسه . أما سميراميس فتسنمت عرش الحكم بعد موت الملك نينوس ، الذى يظن بعض المؤرخين أنه كان بتدبيرها ، وهكذا اصبحت ملكة أشور المطلقة . فشرعت فى اجراء اصـلاحات عظيمة ، التى لو كانت تمت لفاقت الاصلاحات التى أجراها أعظم الملوك .

واتسعت فتوحاتهـا من صحاري ليبية الى شواطىء الهندوس . وشيَّدت مدينة بابل وأحاطتها بسور منيع فى نصف دائرة ، لايقل طوله عن ثلاثمائة وستين ستاداً (عبارة عن ستة وستين كيلو متراً) . وكان هذا السور على مناعته عريضاً بحيث كان من السهل أن تجرى فوقه ست مركبات بعضها بجانب بعض .

أما في الداخل فقد أنشأت على نهر الفرات قنطرة من خشب الارز والسرو ، يبلغ عرضهـا نحو ثلاثين قدماً . ثم أقامت علي ضفتيه الأرصفة بعرض ذلك السور . وشيدت عند طرفيْ تلك القنطرة قصرين شاهقي الارتفاع ، يصل بينهما نفق تحت النهر بحيث يمكنها أن تنتقل من أحدهما إلى الآخر دون أن تضطر إلى عبور النهر .

ثم انها أقامت فى وسط المدينة هيكلاً فخماً للاآه بيلوس [1] (Bélus) الذي كان الاغريق يخلطون بينه وبين إلاههم جوپيتر (الاه الآلهة)

---

(١) ابو زوجها الملك نينوس ، كما ورد في اساطير الاشوريين

أما الحدائق المعلقة ، إحدى عجائب الدنيا السبع ، المنسوبة فى بعض الروايات إلى سميراميس ، فقد ذكر ديودوروس انها من عمل أمير من نسل هذه الملكة أنشأها لزوجته الفارسيّة على مثال آكام ومروج بلاد فارس المكسوة بالخضرة .

على ان هذه الأعمال الرائعة لم تحل بين سميراميس و بين ملاهيها ، فلم تنسَ ما كانت عليه من الجمال الباهر

ولقد قال ديودوروس انها أحجمت عن الزواج الشرعي حتى لا يفلت من يدها صولجان الحكم . غير انها كانت تختار للذّتها أجمل رجال جيشها ، حتى إذا قضت منهم لبانتها أعدمتهم . . . .

أما نهاية سميراميس فقد أحاط بها الغموض كما أحاط بنشأتها . فقد اختفت فجأة من الوجود . وفى اسطورة ، استحالت إلى « حمامة » ، حتى ان الاشوريين أخذوا يقدسون هذا الطائر لهذا السبب .

وقد ذكر ديودوروس ان بابل لم تكن المدينة الوحيدة التى شيدتها سميراميس ، بل انها شيدت مدناً أخرى كثيرة ومن ضمنها مدينة اكباتان (Ecbatane) التي اختارت لها بقعة تروقها

وربما كان ما أمرت هذه الملكة العجيبة بأن يُحفَر على قبرها لا يقل فى الاهمية عن بقية أعمالها العظيمة وهو : -

« ان الطبيعة خلقتنى امرأة ، ولكن أعمالى ساوتنى بأشجع الرجال . فلقد جلست على عرش نينوس الذى يمتد ملكه شرقاً الى نهر هينامانيس (Hinamanès) ، وجنوباً الى بلاد البخور والمُرّ ، وشمالا الى حدود بلاد الساس (Saces) و سوجديان (Sogdiane) . ولم يُتَح لاشوري قبلي أن يرى البحار ، أما أنا فرأيت منها أربعة لم يمخر عبابها أحد لبعدها . وجعلت الانهر تجري حيث أريد ، في كل مكان نافع ، فأصبحت الارض كثيرة الخصب . وكذلك أنشأت القلاع والحصون المنيعة ، وشققت بحديدي في الصخر طرقاً ومسالك لمركباتي لم تقع عين حيّ ، حتى الحيوانات المفترسة ، على مثلها»

« ومع ذلك لم تمنعنى هذه المشاغل من أن آخذ قسطي أيضاً من اللهو والحبّ »

واذا كنا قد وقفنا قليلا عند هذه الرواية التى أصبحت الآن أسطورة لا يقبلها



(جِنّيّ أشوري مجنّح)

التاريخ ، فلأنه لا يمكننا الكلام على آسيا القديمة قبل أن نلقي نظرة عاجلة على هذه المرأة العجيبة .

ولقد ظلت بابل سيدة آسيا الوسطى ، تشبه في الحقيقة تلك المرأة ، التى روت الأساطير انها هي التى شيّدتها ، حتى أنها كانت مثلها متكبرة ، شهوانية ، شديدة الطمع والقسوة ، مولعة بجمال الفن وجلائل الأعمال ، توّاقة الى قهر الطبيعة وحكم الناس .

فبابل ، كسميراميس ، دفعت مثلها الأنهار تجري حيث كانت تشاء ، ومثلها أقامت الحصون والقلاع والاسوار ، وشقت الطرق في الصخور . وحاكتها في كل شيء ، حتى في الغموض الذي ران على نشأتها ونهايتها ، فلم يتمكن أحد من معرفة العصر الذي شيدت فيه ولا اليد التى وضعت حجر أساسها .

وهاهو الشغف البشري يدفع الناس الآن عبثاً الى رفع هذا الكفن الرملي عنها ، ولكنهم لم يقفوا بعد على سر عظمتها ومجدها الا على وجه التقريب .

ان سيرة سميراميس لم تخل من معنى . وهبها كانت خرافة ، فاننا لانملك اغفال الكلام على صورتها المهيبة التى خلدها التواتر ، وجعل لها حياة أبقى من حياة كل الملوك الذين صاغ صلصال ما بين النهرين تماثيل وجوههم الحجرية. وهي ما زالت ، وستبقى الى الأبد صامتة خرساء

ومن الصور التى أعقبت سميراميس ونقلتها الينا الاساطير صورة ساردناپال (Sardanapale) الشهواني المخنث ، وسنحاريب (Sennachérib) الذي يروى أن ملكا من ملائكة الله أفنى جيشه ، ونبوخذ نصر (Nabuchodonosor) الذي قضى عليه كبرياؤه أن يمسخ فى صورة دابة ترعي عشب الحقول ، وبلشاصّر (Balthazar) الذي خيل اليه أن يداً خفية أخذت تخط امامه كلمات مُرعبَة مخيفة [١]

على أنه لم يبق لدينا إلاّ القليل من هذه الأساطير كلها ، بعد أن عم الحفر سهول الفرات ودجلة ، وهدانا إلى بعض حقائق وتواريخ ممالكها القديمة ، بفضل العقول العاملة الجبّارة التى وفقت إلى حل رموز ما كشفوه من الآثار .

وكان أول هؤلاء العاملين إفرنسياً هو المسيو اميل بوتا (قنصل فرنسا في الموصل) . فانه في سنة ١٨٤٣ كان له شرف اكتشاف قصر اشوري مدفون تحت الرمل ، ظهر انه قصر سارجون الثاني (Sargon) الاكادي القريب من المدينة المعروفة الآن باسم خورزاباد (Khorsabad) . ولقد انفصلت تحت معاول الفعلة اجزاء مهمة من طلاء الجدران كانت مغطاة بنقوش بارزة بديعة ، وكتابة لم يفهم لها معنى الى الآن .

وكان بوتا يحسب انه بهذا الاكتشاف قد وفق الى كشف الستار عن نينوى ، ولكنه كان مخدوعاً وان كان هذا القصر قريباً (١٤ ميلا) من أطلال تلك المدينة القديمة

ولسوء حظه حالت السياسة بينه وبين مواصلة مساعيه ، لان ثورة سنة ١٨٤٨ اضطرته الى العودة الى بلاده ، فخلفه انكليزي هو المستر لايارد الذي كان له فضل الاهتداء الى عاصمة أشور ، التى ظلت زمناً طويلا سيدة أسيا كلها .

---

(١) سفر دانيال (من التوراة) الاصحاح الخامس والعدد الخامس وما بعده .

ومن ذلك العهد سارت أعمال الحفر سيراً حثيثاً في جنوب وشمال الجزيرة (مابين النهرين) ، فهدتنا الى قصور شامخة بديعة ، وفن كان الى ذلك العهد مجهولا ، ودور كتب كاملة ، قام الآجر فيها مقام الرق والبردي ، وكلها شواهد على أن مدنيَّة راقية سبق أن أزهرت في تلك السهول التي أصبحت مقفرة الآن .

وهاج هذا النجاح طمع انكلترة ؛ فواصلت جهدها في البحث والتنقيب ، حتى اصبح المتحف البريطاني يملك الآن من هذه الآثار مجموعة نادرة لامثيل لها في المتاحف الأخرى

ومع ذلك لم يكن هذا كل شيء . فان تلك الآثار الخطيّة العظيمة ، وما حوته من أسرار الأمم الغابرة ، ظل لغزاً من الالغاز زمناً طويلا .

وكاد الامل يخيب من حلِّ رموز هذه الخطوط المسمارية ، المخالفة لغيرها من الخطوط ، والتي هي مفتاح لغات لم تنطق بها شفة من قرون عديدة . وتلك الالغاز التي كان يُظن أنه لا يمكن أن يكشف اللثام عنها بغير معجزة من معجزات العلم . وقف أخيراً على كنهها علماء موفقون أمثال جروتفند ، وبورنوف ، ولاسين ، ورولنسون ، وأوبيرت الذين بفضل عَبْقريتهم ، ولقاناتهم وجَلدهم ، وتضحياتهم وضعوا



(معبود أشوري برأس بَشَر وجسم أسَد)

في أيدينا مفتاح الباب الذي ندخل منه الى مجاهل ذلك التاريخ وتلك الحضارة التي كان يحوم الشك حول وجودها .

فلم يصعب بعد ذلك الوقوف على ماضي الكلدانيين والاشوريين البعيد ، لانهم هم أنفسهم الذين تكفلوا بأن يقصوا علينا أخبار حروبهم ، وأعمالهم ، ومطامعهم ، ومغامراتهم ، واكتشافاتهم ، وأحقادهم ، وحبهم ، وآلامهم ، وأفراحهم .

نعم ان الصحائف التي تركوها لنا لم تُحَل رموزها كلها الى الآن ، ولكن المستقبل كفيل باماطة اللثام عنها . وما في أيدينا منها كاف لأن يبعث هذه الأمم البائدة من قبورها ؛ وهو ما سنعالجه في الصفحات التالية (ان شاء الله) .

٢ — ممالك ما بين النهرين الاربع

إن سكان مابين النهرين (أرض الجزيرة وغيرها) الأقدمين، قسمان : الكلدانيون وعاصمتهم بابل على نهر الفرات ، والأشوريون وعاصمتهم نينوى (على نهر الدجلة)

أما تاريخهم الذي اتُفق على انه يبدأ منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، فينقسم الى أربعة عصور ، كانت فى خلالها كل عاصمة من تينك العاصمتين لها الارجحيَّة على الاخرى.

وهذه العصور هى : -

١ - عصر الامبراطورية الكلدانية الأولى ، ويبدأ منذ اربعة آلاف سنة قبل المسيح ، وينتهي في القرن الثالث عشر قبله

٢ - عصر الامبراطورية الأشورية الاولى ، من عهد غير معلوم ، الى الف سنة قبل المسيح

٣ - عصر الامبراطورية الاشورية الثانية ، من منذ الف سنة ، الى سنة ٦٢٥ قبل المسيح

٤ - عصر الامبراطورية الكلدانية الثانية ، من سنة ٦٢٥ الى سنة ٥٣٣ قبل المسيح

ولقد كان المقياس الذي امكن به الوصول الى هذا التقسيم هو تغلب احدى العاصمتين على الأخرى كما سبق الكلام . فكانت الغلبة احياناً لملوك نينوى وأحياناً

لملوك بابل . ولكن جوهر التاريخ من حيث ذكائهم ومدنيتهم وفنونهم واحد ، حتى ان أجناسهم ولغاتهم انتهت بأن امتزجت بعضها ببعض ، فأصبح من الصعب الاهتداء إلى أصل جنس كل منهما ولغته ما لم يُرجع في ذلك إلى أبعد العصور .

على ان بابل لم تتفوق إلا من حيث التهذيب العقلي ، أما نينوى فكان تفوقها بقوة جيوشها

وكان الكلدانيون أعرق الناس في المدنية ، ومنهم اقتبس جيرانهم قواعدها وأساليبها . أما رطانتهم فكانت « السومروأ كادية » وظلت هذه وقتاً طويلاً اللغة المقدسة التي يتكلم بها أهل ما بين النهرين .

وكثير من النصوص المكتوبة بهذه اللغة عُني الاشوريون بترجمتها والمحافظة عليها .

واعتاد الأشوريون أن يكتبوا باللغتين معاً، فكانت اللغة القديمة تظهر إلى جانب رطانة نينوى حتى أصبحت هذه الرطانة هي المتداولة في كل وادي دجلة والفرات

وكان همّ الساميين في آشور منصرفاً في أول الأمر إلى الحروب والغزوات ، حتى ان آسيا القديمة كانت دائماً عرضة لحملات الملوك النينويين ، وهكذا لم تخل شوشن[1] وبابل وارمينية وفينيقية وسورية وفلسطين وشمال بلاد العرب من حكم تغلاث فلاصر (Téglathpalazar) وسرجون وسنحاريب واشور بانيبال .

وما كان هؤلاء المغيرون الغلاظ القلوب يبتعدون حتى تهبّ تلك البلاد المقهورة الى رفع رأسها واسترداد استقلالها وهي تحسب نفسها بعيدة عن متناول أيديهم ، ولكنهم سرعان ما كانوا يعودون فينقضّون على العصاة ويسومونهم أشدّ العذاب والتنكيل ، ويمثلون بهم أقبح تمثيل ، كما هو مذكور في آثارهم بكل تفصيل ، كأنما كانت تلك الأفعال من بعض أسباب الفخار والمجد .

---

(١) وبالفرنسي Susiane او Susa او عيْلام Elam وهو اسم بلاد كانت في جنوب ما بين النهرين عند رأس الخليج الفارسي ، وتحدّها شمالاً اشور ، وغرباً بلاد فارس . وعيلام ايضاً اسم اكبر ابناء سام . وشوشن ايضاً اسم اقدم مدُن الشرق (راجع دانيال ٨ ـ ٢ وتكوين ١٠ ـ ٢٢ وارميا ٤٩ ـ ٣٥)

ولا تختلف وحشية الأشوريين عن توحُّش اليهود في تاريخ البشرية. فقد كانت أسوار مدنهم تُزيَّن برؤوس قتلى حروبهم وغزواتهم ، وجلود اسراهم المسلوخة عن أبدانهم وهم أحياء . وكان ملك نينوى يضحك ويلهو مما تقشعر من هوله الابدان ، مثل منظر الصفوف الطويلة من التعساء الذين كانوا يعانون سكرات الموت فوق الخوازيق . وظلت عصور الدول الأربع على هذا النحو من عصيان يعقبه غزوات تتجدد فيها هذه المجازر والفظائع .

واذا كان الأشوريون لم يتركوا مخطوطات أو مبتكرات فنية أو آثاراً تدل على مدنية زاهية ، فان كلمة واحدة (همجيَّة) تكفي لوصف عصرهم الأرجواني ، ثم ندعهم بعد ذلك ينامون إلى الأبد في مجدهم الوحشي الدامي .

وقد لا نلام إذا وافقنا مسيو لنورمان على قوله : « ان الهمجيَّة خير الف مرة من مدنية كهذه » ومع ذلك لا يسعنا إلا الاعجاب بالجمال الفني الذي ينعكس من تلك النقوش البارزة ، ومن مهارة الأيدي التي نقشتها ، لأن عيوننا تقف مبهورة أمام بقايا قصور الأشوريين . ونزداد دهشة حين نفكر في أن الانسانية مدينة لوحشية تلك العصور العاقلة ، بما أفاضت عليها من نعم العلوم وحسنات الفنون ، التي ابتكرتها عقول هؤلاء العباقرة .

وربما كان العامل الوحيد الذي رفع تاريخ نينوى الى مستوى أفخم المآسي هو مزاحمة مصر لتلك المدنيَّة الآسيوية العظيمة . لأننا نرى اسرة تحوتمس تتقدم حتى نهر الفرات ، ونرى سنحاريب واشور بانيبال يهبطان وادي النيل حتى طيبة .

ومن جراء هذا الصراع استهدفت الأمم التي بينهما للغزو والسحق (كأنها بين كفيّ الرحى) ، حتى اضطرت سورية وفلسطين أن تحالف إحدى هاتين القوتين العظيمتين لتتحرَّر من نير استعباد الأخرى ، ولكنهما في الحقيقة كانتا تخرجان من حكم لتدخلا تحت حكم آخر ، وتظلاَّن عرضة لعداوة الدولة الاخرى ، حتى أن قائد سنحاريب كان يقول لضباط ابزيخياس (Ezéchias) :

« على من تتكلون في مقاومتي ؟ فهل أخذتم عهداً من ملك مصر على مظاهرتكم. انه كالقصبة المرضوضة تجرح يد من يتوكأ عليها ولا تجديه فتيلاً »

ولقد كان طريق مِجدُّو (Mageddo) مفتاح النيل الوحيد الى الفرات . وهو طريق مرت عليه القرون كما مر عليه فرعون وملك نينوى والنصر يعقد فوقه تارة لأحدهما وطوراً للآخر . وكم من المواقع استعرت نارها حول هذه القلعة ، وكم من المرّات امتلأ هذا الطريق بجثث القتلى .

ولا نتعرض هنا لذكر تفاصيل هذه الحروب ، لأنها أصبحت معروفة بكل أطوارها وتواريخها وأسماء قوادها ووحدات جيوشها ، وأحوال النصر والهزيمة التي مرت بها . كل ذلك وجد مخطوطاً بفضل ذكاء آشور العملي وعنايتها ونظامها وان كان نظاما خشنا قاسيا . فقد أنشأت ترتيباً خاصاً للمذابح ، وأفردت سجلات وافية لأنواع التعذيب والتنكيل .

على ان هذه البيانات كان الى جانبها كثير من اللعنات مستنزلة غضب الآلهة وسخطهم على كل من يمسّ شواهد عظمة نينوى وانتصاراتها بسوء .

واليوم قد نفضت هذه الآثار عنها ثوب الاحتجاب ، ولاحت لنا رائعة في وضح النهار بفضل ذلك الآجر السليم الذي كان دفيناً في بطون الرمال . وهو أكبر معين لنا على نشر أخلاق اولئك القوم الذاهبين وفنونهم وعلومهم وحياتهم وخواطرهم . وفى ما يلي نوجز الكلام على الحوادث الرئيسية التى لها علاقة بهذه الدول الأربع .

الامبراطورية الكلدانية الأولى

﴿ من سنة ٤٠٠٠ الى سنة ١٣٦٠ قبل المسيح ﴾

ليس لهذا النعت بالامبراطورية «الكلدانية الأولى» التى تشمل الستةوعشرين قرنا الأولى من تاريخ كلدة أقلّ قيمة تاريخية . وعبثاً تقضي الوقت في معالجة الآراء التى لدينا عن موضوع كهذا بالتغيير والتبديل ، لأنها ليست بذات أهمية بالنسبة الى تاريخ الحضارة . وحسبنا القول انه لم توجد قط امبراطورية كلدانية أولى ، وانما كانت مجموعة ممالك كلدانية . وكل ما نعلم عن هذا العصر من المخطوطات التى وجدت إلى الآن يدلنا على أن هذه البلاد كانت منقسمة الى ولايات مستقلة ، وأُسر متناحرة لا تنقطع من بينها الحروب ، وكانت كلها سجالاً . أما تأسيس امبراطورية كلدانية



(صورة تخيلية عن وليمة من ولائم اشوربانيبال)

متجانسة فلم يخطر قط ببال ولاية من تلك الولايات ولا أسرة من تلك الأسر. ولذلك كان هذا العصر السحيق الذي نكتب عنه إنما هو صورة من انحصار الحكم في أيدي أشراف كلدة (نظام الاقطاعات) . ولقد سبق هذا العصر عصور الملوك الفاتحين في الشرق القديم كما في الغرب الحديث .

نعم ان معرفتنا قليلة عن ممالك الكلدانيين الأولى التى تتصل بعهد نمرود الأساطيري ، حين كان قادة بابل وغيرها مستقلين يحملون اسم باتيزي (Patesi) ، أي القساوسة او الكهنة الملوك .

على ان بعض آثارهم ، والحجارة الناطقة بما عليها من الخطوط والنقوش ، هي التى هدتنا تقريبا إلى ما بقي من ذلك العصر الطويل ، وكلها يدل على ان الكلدانيين كانت لهم مدنية زاهرة رائعة ، قد تعادل تلك التى كانت تتألق وقتئذ فوق ضفاف النيل ، وان ملوكهم كانوا يشيدون لها كل العظيمة في تلك العصور العريقة في القدم

وأول ملك هدتنا اليه تلك الآثار هو الملك ساروكينو (Sarrukinu) ، أو سرجون القديم (الاكادي) . كان متسلطاً على أكاد (Accad) وغزا سومر ، وشيد في اجادى (Agadé) ، عاصمة ملكه ، معبداً شهيراً بقي نحو ثلاثة آلاف سنة ، ورممه من بعده نابونيد (Nabonid) أحد ملوك بابل المتأخرين .

وهذا كان الدليل الأخير الذى بنينا عليه حكمنا بأن الملك السالف قام سنة ٣٨٠٠ قبل الميلاد . لأن نابونيد قال في ما نقشه على أحد الاسطوانات الصلصالية التى وجدت مطمورة في جدران هذا الهيكل الذي رممه : ان أعمدة هذا الهيكل لم يرها أحد منذ ٣٢٠٠ سنة . وقد عاش نابونيد قبل المسيح بخمسماية وخمسة وخمسين سنة ، وبناء عليه يكون قد مضى على هذا الهيكل ٣٨٠٠ سنة .

على ان ملوك الكلدانيين الذين كانوا من أبرع المشيدين للمدن والمعابد كانت لهم كذلك لغة راقية وأسلوب كتابي مُتقَن ، حتى ان أقدمهم وهو ساروكينو ، السالف الذكر ، وضع في اللغة « السوماروأكادينيه » مؤلفات في السحر والعرافة . ولقد ترجم أشور بانيبال ، آخر ملوك نينوى ، هذه المؤلفات بعد تأليفها بنحو ثلاثين قرناً .

ثم ان النذر اليسير الذي نعلمه عنهم يدل على ان عصرهم سبق بزمن قصير عصر

بناء الاهرام المصرية . وان هـذه المنطقة من المعمورة كان لها مدنية راقية منذ أقدم الازمان . ومع ذلك فان آثارها لا تسمح لنا ، لسوء الحظ ، أن نتجاوز الحد الذي وقفنا عنده في الكلام عليها .

ولقد ظلت الأسفار صامتة عن هذه القرون الستة والعشرين حتى اكتشفت المخطوطات المسمارية القديمة فزحزحت عن وجهها النقاب ، وأرتنا ان كلدة كانت منقسمة إلى عدة أسر ، وذكرت لنا أسماء بلدانها الشهيرة « كأريدو » التي كان لها هيكل فخم لم يبق منه الآن غير كومة من التراب لا يزيد ارتفاعها عن ستين قدماً ، وكسير تللا (تل - لوه) التي عثر فيها « سيورسارزيك » على مجموعة نفيسة من تماثيل بلا رؤوس محفوظة الآن بمتحف اللوفر . « وأور » وطن ابراهيم الخليل التي كان لها ملوك قبل المسيح بأربع وعشرين قرناً .

ومن أكبر حوادث هـذا الدهر الذي دام ستة وعشرين قرناً حادثة تركت أعمق أثر وهي اغارة العلميت (elamites أعجام بيروز) الذين انحدروا من شرق دجلة وجعلوا عاصمة ملكهم شوشن (Susa) قبل الميلاد بألفين وثلاثمائة سنة ، حيث نقلوا الى هيا كلها تماثيل الآلهة ، مثل آلهة « نانا » التي أخذوها من هيا كل الكلدانيين . ولكن « أشور بانيبال » استردها بعد ذلك بستة عشر قرناً .

ونحن نعلم ان هذا الفاتح استولى على شوشن قبل المسيح بثمانية وستين سنة . وانه ذكر في كثير من مخطوطاته ان تلك التماثيل التي استعادها ظلت في الهيا كل الأجنبية نحو الف وستماية سنة . فيرى من ذلك ان تلك الأغارة يرجع عهدها إلى ٢٣٠٠ سنة قبل الميلاد . وبمثل هذه الطرق الملتوية تمكنا بكل مشقة من تعيين بعض تواريخ هذا العصر الغامض المضطرب .

وتلا تلك الغارة غارات اخرى . وكانت كلدة مقسمة إلى عدة ممالك صغيرة فكان ذلك سبباً لوقوعها أخيراً فريسة للغزاة الأجانب . ومن المخطوطات التي عثرنا عليها عرفنا أن مُلك الكلدانيين استمر إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، حينما سقطت كلدة تحت سيادة نينوى .

وإلى الآن لم يُعرف كيف كان هذا السقوط . فقد بسم الحظ لأشور وتغلبت على سائر المدن وخضعت آسيا لسلطة سيد واحد .

الامبراطورية الاشورية الاولى

﴿ من عهد غير معلوم الى ١٠٢٠ سنة قبل المسيح ﴾

ان اسطورة نينوس وسميراميس ربما كان محلها صدر هذه الدولة، ولكن حلقات التاريخ الاشوري لاتذكر عنها شيئاً حتى ولا بطريق الاشارة . ولعل هذه الاسطورة من مخترعات بلاط الفرس حيث التقطها ستيزياس .

وكان يرى الآشوريون ان الاله آشور هو مؤسس دولتهم وان عاصمتها الاولى كانت الأصّر المعروفة الآن بقلعة شرغات ، وظلت كذلك طول عهد هذه الامبراطورية ، ولكن صدر هذا العهد كان غامضاً مجهولا . وخلاصة مايعلم عنه ان مصر في غضونه بلغت أوجها من القوة الحربية ، حتى ان تحوتمس الاول وصل الى كاركميش . وان تحوتمس الثالث فرض على ملك «الاصَّر» خراجاً يدفعه اليه . وان امنحوتب الثاني استولى على مدينة نينوى ثم عبر نهر دجلة .

ولقد ظهر على أثر ذلك أول وأكبر الملوك الغزاة الذي أعاد الى آشور مجدها العظيم . وهذا الملك كان اسمه « تغلاث فلاصَّر الاول » : وكان لايقل عن نمرود همة وقوة وبأساً ، فأخضع نحو اثنين وأربعين شعباً .

ولكن الآثار الحجرية المنقوش عليها وصف فتوحاته وقسوته لم تذكر شيئاً عن خاتمة ملكه . ويظهر ان بابل ، المدينة الكلدانية التي أخضعها ، عادت فاستردت ما كان لها من الحرية والمقام . وهكذا أصبحت آسيا ميداناً لحروب يتنقل حظ الغلبة والعظمة فيها بين آشور وكلدة .

ويعد « تِغلاث فلاصَّر » (Téglathphalazar) أول وأشهر ملوك الدولة الأشورية . ولم يحفظ لنا التاريخ الا أسماء بعض أسلافه من الملوك ، وفيما عدا ذلك ألبسته الايام ثوباً من الخفاء والغموض استمرَّ طويلاً الى ان عاد الى الظهور حينما ظهرت الأسرة الجديدة وأسست الامبراطورية الأشورية الثانية التي ظلت عاصمتها سيدة بلدان آسيا .

الامبراطورية الاشورية الثانية

﴿ من سنة ١٠٢٠ الى سنة ٦٢٥ قبل المسيح ﴾

منذ نشأة الامبراطورية الاشورية الثانية هُجرت مدينة « الاصُر » عاصمة اشور القديمة ، واتخذ الملوك مدينة « كالح » (Kalah) بدلا منها لاقامتهم.

وهذه المدينة (كالح) التي جملها أولئك الملوك كانت واقعة على نهر دجلة عند ملتقاه بنهر الفرات العظيم ، أمّا الآن فاسمها « نمرود » وقد ظهر من أعمال الحفر المستمرة فيها انها حافلة بالعاديات والآثار القديمة .

ولم تحافظ كالح على مركزها كعاصمة الامبراطورية إلا وقتاً قصيراً لان « أشور ناصر بال » ثامن أو تاسع ملوك الامبراطورية الثانية استبدل بها نينوى ، وكان أول ملك في عصره عاد الى فتوحات أسلافه الاقدمين .

وهكذا أخذت هذه المدينة التي لا تحصى موارد غناها وثروتها ، والتي ذكرها النبيّ ناحوم ، تنمو وتتسع حتى أصبحت سيدة بلاد الشرق ، وبزّت ضرّتها المصرية الشامخة « طيبة » .

ولقد كان ظهور هذه الامبراطورية الثانية فاتحة عهد جديد لتحديد تسلسُل سنَوات التاريخ ، وذلك لأن الاشوريين كانوا يطلقون على كل سنة اسم الموظف العظيم البارز فيها ، وهكذا كانوا يُسمُّون أول سنة من سنيّ حكم كل ملك باسمهِ .

ولقد كان « أشور ناصر بال » أعظم الملوك الذين جمعوا بين الفتوحات و إقامة الآثار . فانه دوّخ كل البلاد التي كانت على جانبي مجرى الفرات الادنى والمتوسط ، وفتح بابل ، وغزا سورية وفينقية ، حتى ان مصر كانت تهابه وتحاول مرضاته . وقد أكره كل ماضمه الى ملكه على إطاعته والخضوع له.

وحذا حذوه « شلمناصّر الثالث » فكان لا يكف عن الحروب التي هي من أعمال الاشوريين . وهكذا كانت نينوى لاتنتهي من حرب إلا لتتهيأ لحرب أخرى ، لأن الممالك الخاضعة لها كانت كلما آنست فتوراً في نشاطها الحربي ثارت ضدها وتألّبت عليها ، خصوصاً بابل التي كانت لاتخضع لنينوى إلا مكرهة مرغمة .

وخلفه بعض الملوك الذين لم يكونوا على شاكلته ، فضعفت هيبة نينوى في عيون الخاضعين لها وكان من جراء ذلك (على رواية اغريقية) أن هبّ اثنان جريئان أحدهما فارسي اسمه ارباس (Arbace) ، والثاني بابلي اسمه (Bélésis) بيليزيس وجمعا عدة قوات من الكارهين المتذمرين وحاصروا بها عاصمة أشور .

وظن ساروناپال ملكها الشهواني المتهتك أنه في مأمن وراء أسواره المنيعة ، متكلا على ما ذكره له العرّافون من أنه لن يكون في خطر إلا إذا كان النهر أيضاً من جملة الثائرين عليه . ولكن حدث بعد ثلاث سنين ان هطل المطر غزيراً ففاض دجلة فيضاناً لم يسبق له نظير ، وفتح في سور المدينة ثغرة دخل منها المحاصرون ، فنهض الملك يدافع ويكافح حتى إذا يئس تقهقر إلى قصره هو وأزواجه وأولاده وحاشيته وكنوزه ثم أشعل فيه النار ، على ماجاء في الاساطير الاغريقية .

على أن هذا الأفول الذي أصاب نجم نينوى لم يلبث أكثر من نصف قرن ، فلم تأت سنة ٧٤٥ ق . م حتى تبوأ عرشها ملك عظيم همام هو « تغلات فلاصَّر الثانى » ، فعاد اليها عهد الانتصارات الحربية الأولى ، وأصبح الجيش قبلة أهلها يبالغون في تكريمه وتعظيم شأنه . وبعد موت هذا الملك ووفاة « شلمناصر الخامس » بعده بلا عقب ، ولّوا عليهم أكبر قوادهم ، سرجون ، الذي أسس أسرة جديدة كانت من أكبر الاسر الغازية في العالم ، فأخضع كل الممالك القديمة التي كانت تابعة لنينوى وضمها الى دولته من جديد ، وأضاف اليها مملكة إسرائيل ، وجزيرة قبرص ، وفلسطين ، وأرمينية ، وجزءاً من بلاد فارس .

ولكي يخلد الى ماشاء الله ذكرى حكمه المجيد شيّد قصره الفخم الشهير باسم خورازاباد ، وهو أول قصر اهتدى معول « بوتّا » الى اكتشافه حوالي سنة ١٨٥٠

أما « سنحاريب » و « اسرحدون » — من سنة ٧٠٤ الى سنة ٦٦٧ قبل المسيح - فقد بذلا جهدهما في المحافظة على هذا المُلك الواسع الذي كان الضعف يتغلغل في طيّاته لانعدام التجانس والتآلف بين شعوبه .

وشهر سنحاريب الحرب على حزقيا ملك يهوذا ، ثم انحدر الى مصر حيث ضرب خيامه أمام « پيلوز » (Péluse) ولكن كارثة ظلت مجهولة الى الآن اضطرته الى التقهقر

والتعجيل في العودة الى بلاده أشـور حتى اذا بلغها لقي حتفه على يد أبنائه أنفسهم .

وكان حفيده أشور بانيبال هماماً فرفع نينوى الى ذروة قوتها ومجدها وكان أول ملك دوخ مصر كلها ولو وقتاً قصيراً وانتقم من طيبة بمثل ماانتقم تحوتمس من نينوى فيما سبق.

و يظهر ان الحظ أراد أن يخدم هـذا الملك فيمحو عن أرض مابين النهرين عار الحروب الماضية ، لاسيما التي شهرها العيلاميون على بابل . فتابع فتوحاته حتى شوشن فاستردها بعد أن ظلت في يدهم من سنة ٦٦٠ قبل المسيح ، كما استعاد آلهة الكلدانيين الذين نهبوها من ستة عشر قرناً .

ولم يكن هذا الملك القوي غازياً فاتحاً فحسب بل كان أيضاً محباً للعلوم والفنون ، فرفع منارها، وأتم بناء قصر سنحاريب في نينوى حيث كان الفن الاشـوري قد بلغ أعلى درجات الاتقان ، ثم جمع مكتبة عامرة يتحفنا الآن علماء اللغات القديمة بالشيء الكثير من فيض كنوزها .

وهذا العهد الذي بلغت فيه نينوى قمة مجدها كان أيضاً فاتحة العهد الذي سقط فيه صولجانها ، فاضمحلت تحت حكم ابن أشور بانيبال نفسه .

وكانت امبراطورية أخرى فتيّة قد نهضت في الشرق ، هي امبراطورية « مادي» ، و باتحاد ملكها سياجزار مع بابل ومصر تمكن من قلب هذه العاصمة التى طأطأ العالم رأسه أمامها قروناً طويلة .

وكان سقوط نينوى سريعاً وتاماً.ولا غرو فان الحروب المتوالية أنهكت قواها فجعلتها عبارة عن بناء شامخ واهي الاساس . فلما سقطت لم تستطع أن تنهض من سقطتها .

على ان هذه الكارثة الشهيرة ، الوحيدة من نوعها في تاريخ العالم ، ظلت مودعة أطباق الغموض المحزن . ولم يستطع مؤرخ قط أن يوقفنا على تفاصيلها ، كأن نينوى بعد أن انحلت وانسدل عليها ستار النسيان اختفت مرة واحدة من وجه الارض ، الى ان قام معول المكتشفين يزعج رفاتها في قبرها .

ولم يكن لدينا لمعرفة الاسباب المحزنة التي قضت القضاء الاخير على هذه المدينة الرائعة سوى أقوال أنبياء اليهود التى نمّت على شماتتهم بها وغيظهم منها وانذارهم لها بشديد العقاب الالاهيّ .

فما جاء في نبوة ناحوم بعنوان «وحي على نينوى » : «اني أقطع من بيت إلهك التماثيل المنحوتة والمسبوكة.أجعله قبرك لانك صرت حقيراً» . ومنها « ها أنا عليك ،يقول رب الجنود . فاحرق مركباتك دخاناً وأشبالك يأكلها السيف،وأقطع من الارض فرائسك، ولا يسمع أيضاً صوت رُسُلكِ » . ومنها : « وأطفالها حُطِّمت في رأس جميع الازقَّة ، وعلى أشرافها القوا قرعة ، وجميع عظمائها تقيدوا بالقيود». ومنها: «نعست رعاتك يا ملك أشور. اضطجعت عظماؤك ، تشتت شعبك على الجبال ولا من يجمع ... كل الذين يسمعون خبرك ، يصفِّقون بأيديهم عليك ، لانه على من لم يمر شرك على الدوام ؟ »

الامبراطورية الكلدانية الثانية

﴿ من سنة ٦٢٥ الى سنة ٥٣٣ قبل المسيح ﴾

ورثت بابل سطوة نينوى نحو قرن ، فكان لها ملك عظيم فخور مملوء بالمطامع تصدَّى لمناهضة سيرة سرجون وأشور بانيبال.

تسلَّم « نبوخذ نصَّر» مقاليد الملك الذي أسسه أبوه « نابو نصَّر» في عهده وصار من بعده بليَّة على الممالك الصغيرة في أسيا الوسطى، فأخضع أورشليم وقضى على شعبها بالسبي ، وحمل على صور الشامخة ، وبعد دفاع ثلث عشرة سنة فتحها عنوة . وكذلك نازل نيخو ملك مصر وهزمه شر هزيمة .

ثم وقف هذا الملك يستريح من عناء الفتوحات . وانصرف الى تجميل بابل ، فبلغت هذه المدينة شأواً بعيداً من الرفعة والمجد والفن، وفاقت نينوى حضارة وتمدناً،حتى أصبحت أعجوبة العالم القديم ، وقد استعمل مؤرخو الاغريق في وصف اتساعها وجمالها أبلغ تعبيراتهم.

على ان « نبوخذ نَصَّر» وجَّه همَّه أيضاً الى اعمال الري في بابل ، فأنشأ مراوي (مساقي)جديدة ، بعد أن كَرى (طهَّر) القديمة ، ثم نشَّط الملاحة في الخليج الفارسي .

فحقّ لهذا الملك العظيم أن يفاخر بأعماله ،حتى ان التوراة أشارت الى زهوه الذي بلغ به حد الجنون . وذكرت ان الله عاقبه على شروره فمسخه دابة رعت الكلأ سبع سنين . ولعل منشأ هذه الرواية يعود الى شخصه وهو في إحدى نوبات جنونه .

أما ابنه «بيلشاصَّر» فلم يعرف كيف يصون مجد بابل ، فأخذت الدولة الكلدانية

تضعف شيئاً فشيئاً حتى غزاها كورش (Cyrus) ملك فارس سنة ٥٣٣ قبل المسيح . وبهذه الغزوة كتب للعالم الشرقي أن يتخلص ، الى أمد طويل ، من نير « الساميين » .

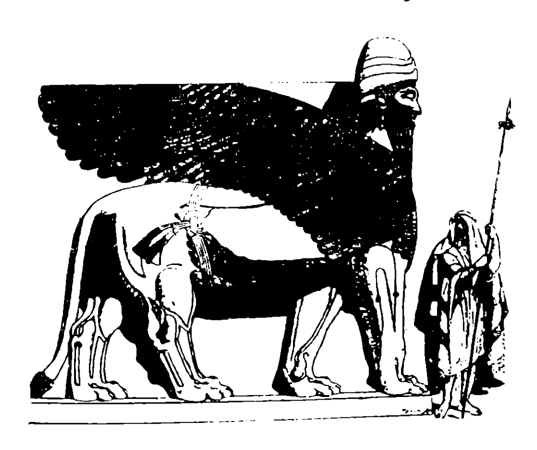
ونحن نعرف من التوراة (دانيال ، الاصحاح الخامس) سيرة بلشاصر آخر ملوك بابل وكيف فوجيء وهو في وسط لهوه ، بالجيش الفارسي الذي دخل المدينة بعد أن حول مجرى الفرات.

ونعرف أيضاً خبر الحادثة العجيبة التي ذكرتها التوراة وخلاصتها ، أن يداً خفية خطّت في ليلة الوليمة الفاخرة التي صنعها لعظائه على حائط القصر هذه الكلمات المزعجة : « مَنامَنا تَقَيل وفَرْسِين » وهي تنذر بخراب الدولة الكلدانية ، وقد تمَّ خرابها فعلاً قبل أن يبزغ الصباحُ ، وأُدرجت في اكفان الفناء .

ولقد ذكر النبي أرميا أن صوتاً رنَّ تلك الليلة في بابل ، ثم عقبه انهيار عظيم تجاوب صداه في كل أنحاء المملكة ، لأن الله قضى على بابل بالخراب ، وقضى على أصوات أبنائها بالخفوت . وهكذا سقطت بابل سقوطاً لاقيام بعدهُ : —

« سأدع أمراءها ، وعقلاءها ، وقوادها ، وقضاتها ، وشجعانها ، يثملون ، ثم ينامون نوماً أبدياً لايستيقظون بعده .

هكذا قال ربّ الجنود » .



الباب الثالث

اللغـــة والخط والأدب

١ – اللغة والخط

دلت الآثار الخطية التي وجد كثير منهـا في أرض الجزيرة على انه كان فيها لغتان ، أقدمها « السوماروا كادية » التي بها تكلم وكتب الكلدانيون الأولون . وهي عبارة عن الفاظ كوشيّة في صِيَغٍ طورانية . والثانية من أصل سامي محض، وهي الأشورية التي تغلبت على اللغة القديمة فحلت محلها في بابل ونينوى .

ومع انتشار اللغة الأشورية ظلت السومارية شائعة ،وعني القوم بدرسها والمحافظة عليها ، فكان لها مقام اللغات العلمية النبيلة التي وجب على كل مواطن مثقف أن يلم بها.

وأخذ علماء نينوى يشرحون المخطوطات الكلدانية القديمة ، ويعلقون عليها كما نفعل نحن بالمؤلفات الأغريقية واللاتينية . واهتموا بوضع أصول نحوية وقواميس لفهم هذه اللغة المُماتة ونشرها ، وتركوا لنا كثيراً من هذه الكتب ،وأهمها نراه مكتوباً بلغة سومارية إلى جانب اللغة الآشورية . وكل مانعلمه عن مؤلفات الكلدانيين ولغتهم انما وصلنا عن طريق الجنس السامي الذي حل محلهم .

هكذا كانت تلك الشعوب القديمة ،وأولئك الملوك الذين شيدوا القصور وأنشأوا المدن الفاخرة ،قبل أن تتردد على شفاه الناس أقاصيص الألياذة والأوديسة الساحرة ، تتسلط على عالم عريق في القدم . وكلما عثرنا في تراب الصحارى على بعض ما تركوا من الآثار الرائعة يخيل الينا أن عصرهم هذا كان من مبتكرات الوهم والخيال . ولـكن الواقع هو أن الفاظ « تغلات فلاصًر » و « سرجون » و « أشور بانيبال » الخشنة، لم

تكن سوى أسماء ملوك من عنصر فنيّ ، بالنسبة للعناصر التى سبقته، ظهر ليمثّل بدوره مشهداً من مشاهد التاريخ اللانهائي التى تعاقبت على مسرح الحياة البشرية منذ الازل .

وكانوا هم أيضاً لا يَرون في تلك الأمم التى سبقتهم أمماً جاهلة متوحشة، بل كانوا يطأطِؤن لها رؤوسهم احتراماً ، كما نُطأطي، نحن بدورنا رؤوسنا أمام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس .

ولعلهم توهموا فيهم الألهام فاتخذوهم قبلة ونموذجاً ، وفاخروا بأنهم وارثوا مدنيتهم وحُفّاظها من بعدهم ، ان لم يباهوا أيضاً باحتذاء مثالها والنسج على منوالها .

فلا غرو إذن أن شخصت أبصارنا إلى هذه المكتشفات التي مضت عليها القرون العديدة وهي دفينة في صدور الأزمان .

وكيف لا نذكر ما تركته مدنيتنا خلف ظهرها من روائع ذلك الماضي السحيق ، وما نالت من مجهودات الاجيال التي قام عليها أساس معارفنا ونحن لا نشعر بها .

فمن هم الكلدانيون القدماء الذين قبل أن نكون ، وقبل أن يكون لنا فنون وعلوم وتقاليد وأديان ، كانوا يفيضون على جانبي الفرات من معجزات الذكاء والثقافة ، و يعنون بحفظ آثارهم المخطوطة على الألواح الطفليَّة التي نجدها الآن تحت الرمال.

ومن أين جاؤوا ؟ وعمن تلقوا فيوض تلك الأنوار ؟

أ كانوا مسبوقين بأمم أخرى ذكروها لنا في نقوشهم التى لم تزل مطمورة في اطلالهم ليهدونا الى جذور شجرة الحضارة البشرية التى لا تفتأ تتكرر صورتها على كر الأجيال ؟

ربما يكون لهذه الأسئلة نصيب من الجواب متى انتهينا من حل رموز ما بقي من شوارد الآثار التى تركتها لنا آشور و بابل ، والتى ستميط يد المكتشفين اللثام عنها يوماً من الأيام

على ان المكتبة الوحيدة التى أسسها الملك آشُّور بانيبال فى قصر قويونجيك بنينوى تركت من لوحات الآجرّ كتلة لا تقلّ مساحتها عن مائة متر مكعب ، تكفي سطورها لتملأ ما لا يقل عن خمسمائة مجلد ، كل منها يحوي خمسمائة صفحة من القياس الكبير .

على ان هذه النصوص لم تُترجم كلها ولم تحلّ إلا رموز جزء قليل منها مكتوب باللغة السومارية الغامضة ، لأن العلماء لم يقفوا تمام الوقوف بعد على أسرارهذه اللغة .

وكانت كتابة الأشوريين والسوماريين والأمم المجاورة في بلاد مادي وفارس وأرمينية على أسلوب خَطّي واحد هو الخطّ المسماريّ الذي سُمّي كذلك لأنه على شكل المسامير والأركان مصفوفاً أفقياً أو عمودياً ، أو على شكل سنان الرمح .

وهذه الكتابة الغريبة ، وكذلك أصل الكثير من العلوم ، يرجع عهدها الى الكلدانيين القدماء ، قد ظلت دارجة الاستعمال في آسيا مدة طويلة بعد سقوط بابل . واستعار الايرانيون بعض حروفها للرمز بها الى الاصوات ، كما أن هذه المسامير الهجائية التي ظهرت في زمن كورش استمرت الى حكم الاسرة الأرساثيدية (Arsacides) .

على أن تلك الكتابة المسمارية الكلدانية والاشورية هي كتابة صوتية وليست هجائية ، فلا تدلّ على مجرد الأصوات العادية بل على المقاطع . وأقدمها مُستنبط مباشرة من الكتابة الهيروغليفية ، ومن السهل تتبع الأسلوب الذي تولدت به عنها .

ولقد فعلنا مثل ذلك حين أردنا الوصول الى طريقة استحالة الحروف الهيروغليفية الى حروف هيراطيقية ، ثم الى خط جار .

ولكن مصر لن تتخلص قطعاً من الخط الهيروغليفي التي تعبر فيه الحروف عن المعاني ، مع أن بعض ألواح الاجرّ الكلدانية تدلنا على أن خطهم كان يعبر عن المقاطع ، وقد كان أول نموذج من هذا النوع في العالم .

ويمكن أن يُقال أن كلدة رجعت الى وسط بين الخط الهيروغليفي والمسماري . فجعلت حدود الحروف الدالة على المعاني في خطوط مستقيمة بدلا من تلك الاركان . وهذا الخط الذي سمي خطاً بالخط الهيراطيقي لبث حتى حكم الاشوريين كما دلت عليه بعض الحجارة الاثرية

ولكننا نرى في الخط المسماري الأشوري ان الشكل الدال على المقطع ، والمتفرع من الشكل الدالّ على المعنى ، أصبح كلاهما بعيداً عن الآخر كل البعد .

وأول تغيير طرأ على الخط الهيروغليفي انه استحال الى بعض خطوط مستقيمة .

ويحتمل أن الخط لم يتقدم أكثر من ذلك . وبهذا الرسم المعتدل كان ينقش على الحجارة . ولكن الكلدانيين قديماً عكفوا على الكتابة على ألواح من اللبن اللين . وقد تكون الآلة التي استعملوها هي سبب تلك الاركان التى ظهرت في كل خطوطهم .

وهذه الآلة التي وجد منها كثير في الخرائب كانت من سن الفيل، تنتهي بطرف على شكل مثلث ، وبهذا الطرف كانوا يضغطون سطح الصلصال فيحصلون على الشكل الذي تكوّن أوضاعه المتعددة تلك الخطوط المسمارية .

وهذه الخطوط كانت عند الكلدانيين أو الاشوريين تتركب من ثلاثة أنواع من الحروف؛الحروف الأصلية الدالة على الاصوات ، ثم العلامات المتفق عليها والتى لم يكن لها قيمة صوتية إلا انه كان يرمز بها الى الاسم أو الى كلمة خاصة . وحروف الدلالة، وهذه كانت توضع امام اسماء الاعلام وتوضح ماتدل عليه الكلمة التالية لها، إلهاً كان أم ملكاً، أم رجلاً، أم امرأة، أم بلدة، أم شعباً، أم حيواناً، أم معدناً . فكانت أشبه بالحروف الكبيرة التى تكتب عندنا[1] في أول الكلمات للدلالة على بعض ما ذكر .

والخط الكلداني والأشوري صعب القراءة ، وهو يحتوي على أكثر من ٣٠٠ حرف ليس لها معان محدودة

وهناك صعوبة أخرى غير هذه ، وهي أن الكُتّاب كانوا يملأون الفراغ القليل بكثير من النصوص ، فكانت خطوطهم دقيقة مندمجة بعضها ببعض حتى انه كان يصعب تمييزها بغير مجهر .

أما الخطوط التى كانت على جدران القصور من الخارج والداخل، وعلى التماثيل، فقد كانت مخصصة للملوك والحوادث المهمة المتعلقة بهم .

على انهم أيضا كانوا يستعملون اسطوانات أو قوالب مستطيلة من الطفال يخطون عليها بعض الاسماء التى لايريدون أن يطلع عليها أعقابهم وذراريهم، فيدفنونها فى مبان خاصة يشيدونها لهذا الغرض

أما العقود التى كانت تكتب بين الافراد فكانت تخط على ألواح من الطفال ، على مثال قطع الصابون الذي نستخدمه في زينتنا .

(١) أى عند الفرنسيين ، وهي مايسمونه MAJUSCULE

ولكي يصونوا هذه العقود من التلف كانوا يغلفون الالواح بطبقة طفالية يكتبون عليها صورة ثانية مما كُتب على الألواح المُغلَّفة ، ثم يشوونها في الأفران لتجفّ وتتصلَّب . وهكذا يظل هذا الأثر في مأمن من التلف . فاذا تشوهت بعض نصوصها أزيلت تلك الطبقة الخارجية للوقوف على الحقيقة من الالواح الاصليّة .

وكانت الكتب تخطّ على قوالب من الطفال . وقد أشرنا سابقاً الى الكتب التى حوتها مكتبة آشور بانيبال وكانت موضوعة في غرف القصر الذي شرع جدُّه « سرجون » في بنائه بنينوى ، وأتمّه هو من بعده .

وروى لايارد[1] الذي اكتشف هذا الكنز التاريخي والأدبي العظيم ، أنه رأى هذه القوالب مبعثرة في عدة غرف مركومة بعضها فوق بعض . ووجد البعض سليماً والبعض مهشماً . ومن الكتابات المنقوشة عليها اتضح أن تلك المكتبة كانت في طبقة القصر العليا ولكنها سقطت الى أسفله على أثر انهياره .

وأكبر جزء من هذه المكتبة يوجد الآن في المتحف البريطاني . وسنرى محتوياته في ما يلي .

ومما يجب الالتفات اليه أنه لم يُعثَر في الآثار الاشورية ، ولا في أي جهة من أرض الجزيرة على أثر لوَرق أو رقّ ، مع انه لا يوجد أقل شك في أن الآشوريين ، نظراً لعلاقاتهم الكثيرة بالبلدان المجاورة عموماً ، وبمصر خصوصاً ، كانوا لا يجهلون هذه الموادّ ، ولا سيما ورق البردى ، ولكنهم لم يستعملوه الا في أحوال قليلة .

وكان الكلدانيون والأشوريون يهتمون كثيراً للمستقبل ، وكأنهم كانوا يعلمون انهم يعملون للأجيال القادمة . وكثير من أسفارهم ، والمواد التى استعملوها في كتابتها ، يدل على شدة شغفهم بتخليد أعمالهم ، وأن لا تمتدّ اليها يد التلف . حتى انهم وجدوا الآجر أصلح لهذه الغاية ، وأقل عرضةً للتغير من الحجر والمعدن ، لان رمل الصحراء الناعم يغطي تلك الألواح فيصونها .

وهذه الألواح تتألف منها أحياناً كتب واسعة متتابعة على ترتيب ونظام خاص ،

---

(١) اوستن هنري لايارد (Austin-Henri Layard) منقّب انكليزي ، ولد في باريس في سنة ١٨١٧ وتوفّي سنة ١٨٩٤ .

حتى ان آخر سطر من كل صفحة يُكتب مرة ثانية في رأس الصفحة التالية لربط الصفحات ببعضها . وعشاق اللغة الأشورية الذين قضوا حياتهم و بذلوا أقصى جهدهم في حل رموزها قد نجحوا أخيراً في حل طلاسم هذه اللغة القديمة التى عفا عليها النسيان عدة قرون . وها هي الآن تهدينا الى الأفكار والعواطف والعقائد والأجناس التي كان لها الشأن العظيم في ذلك العالَم الأسيوي القديم .

٢ — الأدب

قبل أن يستقرّ الآشوريون الساميون في أرض مابين النهرين ، و بينما كانت حضارة الكلدانيين تزهو على ضفاف الفرات ، وقد أفاضت على أمم الشرق ، ثم الأغريق من بعدهم ؛ في ذلك العصر القديم المحفوف بالغموض ، كان للسوماريين وأهل أكّاد مؤلفات في الأدب .

وكان الكلدانيون لا ينشرون مكتشفاتهم أو يخلدون أخبارهم بعبارات موجزة أو بروايات مبهمة ، بل كانوا يضعون في ذلك كتباً حقيقية ، ومؤلفات شاملة تتناول كثيراً من الموضوعات كالتاريخ ، والعلوم ، والدين ، حتى القصص والأساطير .

و بترجمة النصوص السومارية الأكادية القديمة قد نتمكن من معرفة أصل هذه الكنوز ، لأن مكتبة « أشور بانيبال » مملوءة بنتف كثيرة منها لابد أنها كانت الخاطر الأول الذي ألهم الكتاب النينويين .

وكان ملوك أشور يعنون كثيراً بترجمتها ، ولكن هذه التراجم تحول بيننا و بين صحة الحكم على قيمة الأسفار الكلدانية الأدبية ما دُمنا لانستطيع الحصول على غير أصول أو تراجم نينوية .

وكل ما يمكننا أن نقوله الآن ، أخذاً عن الآثار الأشورية ، أن الكلدانيين كانت لهم مكتبات وكتب ومدارس (دور علم) عامرة منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، أي في عصر سرجون القديم الذي أشرنا اليه .

ولقد أخذ المؤرخ « بيروز » تاريخه مباشرة عن كتب بابل ، لأن الاغريق يذكرون هذه الكتب ، التى طالت شهرتها وذاعت ، حتى ان

«داسماشيوس» (Dasmascius) حدثاني رسالة «الأصول الأربعة» عن أصل الخليقة، مما استنبطه من مخطوطات كلدانية وجد لها ترجمة صحيحة في مكتبة أشور بانيبال .

ومهما يكن من قيمة هذه المعلومات فلا يمكننا أن نذكر شيئاً عن مؤلفات الكلدانيين في الأدب ونكتفي بفحص ما ورد في أسفار نينوي .

وكان الأشوريون يهتمون كثيراً بصحة اللغة ووضوح الأسلوب . وأكثر كتبهم تبحث في قواعد اللغة ، وتشابه الألفاظ ، والكلمات الصوتية ، والاشتقاق . وكانوا يعنون اكبر عناية بلغة الكلدانيين القديمة ، وقد وجدت لهم معاجم وكتب للتمرينات والتراجم ، كانت على ما يظهر تدرّس بالمدارس لحفظ قواعد تلك اللغة .

وآثار نينوي التاريخية الدالة على ذلك كثيرة ، بعضها مخطوط على المباني أو على اسطوانات الآجر التى كان الملوك يدفنونها تحت الجدران ، وبعضها مرصود في المؤلفات التى حوتها مكتبة أشور بانيبال .

أما أسلوب الكتابة فانه فخم يتناول الألقاب الرنانة الضخمة في المواضيع الخاصة بالملوك ، وهي تفيض بالصور والتزاويق . وتحتوي الكتب بيان السنين مرتبة ترتيباً دقيقاً محكماً ، ولكن ذلك بالنسبة الى الحوادث التاريخية لا إلى الأدب .

وفي مكتبة نينوى رسائل مطوّلة تبودلت بين الملوك وقوادهم ، أو بينهم وبين العلماء الذين كانوا يرسلونهم الى الخارج لرصد الأفلاك

على اننا نترك الكلام الآن على الآثار الدينية والتشريعية الى فرصة أخرى ، ونحصر بحثنا هنا في مايتعلق بالأدب المحض ، خصوصاً الأقاصيص الخرافية والاساطير

وهذه وجد منها شيء كثير في الألواح الآشورية التي سبق ترجمتها ، ولكن بعضها مهشّم . وما سلم منها يدلنا على أن اولئك القوم كانوا قادرين على تأليف القصص الخيالية ، والوقوف بهـا عند خاتمة معقولة على رغم ما يتخللها من الحوادث المتشعبة الكثيرة التى تهزّ العواطف

وأكمل هذه القصص القصة الخاصة بنزول الإلاهة العظيمة «أشتار» الى الجحيم . وهي خرافة لا تخلو من مغزى ادبى ، وأسلوبها شعريّ راقٍ

أما «أستار» هذه فكانت إلاهة الحب (زهرة - ڤينوس) في بابل . ولمّا

فقدت ولدها ، عقدت نيتها على انتزاعه من مرقد الأموات ، ذلك المرقد المختفي في أحشاء العالم الذي تحكمه آلهة الأرض .

وسنذكر لك شيئاً من هذه القصة التي تذكرنا بما كتبه « دانتي » عن الجحيم .

وهذا المكان الذي يفتح القبر طريقه لنا هو : -

« المكان الذي ندخله ، فلا نخرج منه

« الطريق الذي نسلكه ، حينما نذهب ولا نعود

« المقر الذي ندخله ، فنجد بدل النور ظلاماً

« المثوى الذي فيه نعضّ الأرض ، ونأكل الأوحال

« حيث لا نرى النهار ، وقد كُتب علينا أن نبقى في الظلام »

ثم تأتي «إستار» بلا خوف ولا وجل إلى مدخل هـذا « البلد الساكن » فلا يفتح لها الحارس بابه ، ولكنها تهدده ، فيضطر الى التماس الاذن في دخولها من إلاهة الأرض العظيمة

وحينئذٍ يخطر الاحياء ببال ملكة الأموات ، فتقابل (تُعارض) بينهم وبين نفسها ، والظلال التي تخيم على شعبها وتقول :

« ان مثلنا كمثل النبات المحصود

« ان مثلنا كمثل الزهرة الذابلة ، أما هم فكالشجرة المثمرة »

ومع ذلك تسمح بقبولها قائلة :

« اذهب أيها الحارس وافتح لها الباب ، بعد أن تجرّدها من ثيابها ، وفقاً لتقاليدنا الخالدة . » - فيفتح الحارس الباب ، قائلاً لها : -

« ادخلي أيتها الإلاهة ، وليكن ما أردتِ

« فان هـذا البلد الساكن ستُفتح أبوابه لكِ . » - وحينما تدخل من أول باب يستوقفها الحارس ، وينزع التاج الذي يزيّن رأسها ، فتسأله :

« لماذا تخلع أيها الحارس هـذا التاج الذي يزين رأسي ؟ » فيجيبها :

« ادخلي أيتها الإلاهة ولا تسألي، فهذه شريعة إلاهة الارض العظيمة . »

وعند الباب الثاني ينزع قرطها ، وعند الثالث ينزع عقدها ، وعند الرابع ينزع

طيلسانها ، وعند الخامس حزامها المرصَّع بالحجارة الكريمة ، وعنـد السادس أساورها وخلاخيلها ، وأخيراً عند الباب السابع يخلع أقرب ثوب الى جسمها .

فتصيح به « لماذا تنزع ثوب عفافي أيها الحارس !! »

فيقول « أيتها الالاهة هكذا قضت شريعة إلهة الأرض العظيمة . »

ولما مثلت استار بين يدى الالاهة الجبارة ، سخرت هـذه منها ثم سلَّطت عليها الامراض العضالة ، وبعد ان عذبتها ردحاً من الزمن زجتها في غيابة السجن الأبدي.

« فعمَّ الحزن الالاهة ، وشمل وجه الأرض .

« وابتعد الثور عن البقرة والحمار عن الاتان

« ورغبت الزوجة عن الزوج تقاومه وهي بين ذراعيه

« لأنه ذاع في كل مكان :

« بأن استار نزلت الى جوف الأرض ولم تصعد منه »

وحينئذ أجمع الآلهة على إيفاد رسول الى ملكة الأرض العظيمة يأمرونها بواسطته ان تفك اسرها. فأطاعته على مضض (كما روت القصة) ولطمت جبينها ، وعضّت أناملها ، ولم تقوَ على عصيان ارادة الآلهة فقالت « لِنامتار » مستشارها :

« اذهب يانامتار الى ذلك السجن الأبدي ، واخفِ الالواح التى يمكن بها الاهتداء الى معرفة المستقبل ، ثم بعد ان تسقي إستار من ماء الحياة أبعدها عني »

وهكذا خرجت إستار مجتازة تلك الأبواب السبعة ، وقد وجدت عند كل منها ما تركته من حليها وثيابها .

اما ابنها الذى ارادت أن تنتشله من مُقام الأموات فأمره ظل غامضاً .

على ان هـذه الاسطورة تنتهى ببعض الطلاسم السحرية والرُّقي والتعاويذ التى قد يكون الغرض منها انتشال هذا الولد السماوي المحبوب.

وهكذا ترى فيها ذلك الخيال الشرقى الساحر ، والذوق المفطور على حب الصور الدقيقة اللطيفة . والحديث يسير بخطى نشيطة لا يشوبه التطويل المملّ الذى يألفه شعراء الهند . ويمكن قياسه تقريباً على الأقاصيص الفارسية والعربية الساحرة الممتعة

ويمكن ان يقال أن هـذه الأسطورة ليست الوحيدة من بين أساطير الأدب الأشوري ، فأن هناك نتفاً تدل عنواناتها على أن هـذا الأدب حوى غيرها لا يقل عنها سمواً ودقة .

ومن ذلك :

سيئات شياطين الشر السبعة . وخطيئة الآله زو . والخارج على بلّ . وغزوات لوبارا . والاه الطاعون . وكذلك قصة الفرس والثور ، وقصة الثعلب والنسر والثعبان ، وكلها كانت منتشرة بين الشعب .

ولقد كان ذلك الأدب البعيد يتخذ من أوصاف الثعلب رمزاً الى الدهاء وسعة الحيلة ، حتى أنه بعد أن حُكم عليه بالموت لجريمة من الجرائم خرج منها سليماً بسبب الأسلوب القوي الذي اتبعه في دفاعه .

ومع ذلك فأنها خواطر كثيراً مالا كتها ألسنة الامم لأنه «لا جديد تحت الشمس.»

اما الامثال الأشورية فكانت تذهب دائماً الى أن الأنسان خُلق ضعيفاً ، جاهلا ، شريراً ، يرتكب الخطايا وهو لا يشعر بها . والشائع وقتئذ على ضفاف الدجلة والفرات ان السعيد من يولد مكللا :

« اذا وضعت امرأة طفلا وكان على رأسه اكليل . فأن ذلك يُبَشِّر بأن السعادة ستحل معه في البيت »

وكثير من الشواهد تدل على أن الأشوريين كانوا يعرفون الأوزان ، و يقولون الشعر . وفي أقاصيصهم الحماسية ما يُعدّ لبلاغة أسلوبه وسمو موضوعه وذكر الآلهة فيه ، من خير ما وصل الينا من الشعر الحماسي .

وفي هذا النوع كانت أقاصيص « إستوبار » تعد من الطبقة الأولى . وما كان إستوبار غير « نمرود » الذي جاء ذكرهُ في التوراة .

وما جاء في اسفارهم أيضاً عن حكاية الطوفان لا يخرج في كل تفاصيله عما ورد في الكتاب المقدس . (التوراة)

واسوة بغيرهم من الأمم لم يهمل الأشوريون الشعر الغنائي ، وكانوا ينظمونه في الغالب لتكريم الآلهة ، ويوقعونه على بعض الات الطرب ، وقد وُجد منه كثير في

مكتبة نينوي . على انا نذكر هنا على سبيل المثال قطعة منه كانت كثيرة الانتشار

« اللهمّ الذي لا تخفى عليه خافية في الظلام ، والذي يضيء لنا الطريق بنوره

« انك الاله الحليم الذي يأخذ بيدِ الخطاة و ينصر الضعفاء ،

« حتى ان كل الآلهة تتجه أنظارهم الى نورك ،

« وشياطين الهاوية تاتهم انظارهم وجهك ،

« حتى كانك فوق عرشك عروس لطيفة تملأ العيون بهجة ،

« وهكذا رفعتك عظمتك الى اقصى حدود السماء ،

« فأنت العَلَم الخفّاق فوق هذه الأرض الواسعة .

« اللهمّ ، ان الناس البعيدون ينظرون اليك و يغتبطون »

فالخواطر الشعرية التى سحرت قلب الانسان ، على شدة خشونته وقساوته ، كان لروح الأشوري الجامدة المتكبرة نصيب منها .

ولكن هـذا الشعب الذى كان ذكاؤه الجامح يدفعه الى التسلُّط ، كان له جيران لا يقلون عنه عظمة ، ولكنها عظمة قائمة على اللطف واللين .

أن هـذا الشعب يمجّد الهته كما يُمجِّد ملوكه ، لأن الأولين بسلطتهم الالاهية ، والآخرين بقوة سيوفهم يضمنون له سيادة العالم لمدي طويل

وفي بعض المخطوطات ما ترجمته : -

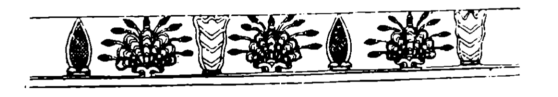
« أيتها الأيام والسنون والحياة الطويلة ، ويا أيها السيف القوي ، ويا أحقاب

« المجد ، كوني من بعض منح سيدنا الملك الذي وهب مثل ذلك لآلهته .

« فهل تنمو حدود أملاكه الواسعة ويزيد سلطان حكمه ؟

« انه بزّ الملوك بسلطانه وملكه ، فهل يعيش حتى يبلغ أرْذَل العُمُر ؟

« واذا كان قد كتب له النعيم في أيامه الحاضرة ، وفي أعياده فوق الجبل الفضي ، وفي السماء ، فهل تكون أيامه الطويلة مقدسة في حضرة الآلهة الذين يسكنون آشور ؟ »



الباب الرابع

العلوم والصنائع

١ – العلوم

طارت شهرة الكلدانيين العلمية في العالم القديم . ولقد وصلت الينا بعد أن رنّ صداها في جوانب التاريخ .

وهكذا كان الأغريق الراسخون في المدنية يقولون بأعلى صوتهم أنهم أخذوا مدنيتهم عن مدارس العلم القديمة التي أزهرت فوق مجرى الفرات الأدنى في العصور القديمة .

واستمر العلم الكلداني محترماً مرعياً إلى عهد نينوى وبابل ، حتى أن ملوك آشور كانوا يرسلون كثيراً من رعاياهم ليأخذوا العلم عن « أور » في اجاديا ، ذلك المعهد العلمي الذي كان يتألق نوره فيمزق ظلام العصور الأولى ، عصور ماقبل التاريخ .

ولذلك كان يقول ديودوروس ، وهيرودوتس ، وسترابون ، وأرسطو ، وآخرون ، أن نمو العقل البشري كان مترعرعاً وكاهلاً فوق ضفاف الفرات قبل أن يولد ويظهر على ضفاف النيل .

وإذا وقع الاجماع على هذا الرأي فلا بد أنه قائم على أصول ثابتة ، ولذلك لا يكتفي العلم الحديث في اثباته بما جاء في الأساطير والسير الخرافية ، بل يعمد إلى البحث عن مصادر هذه الأصول ، وان كانت مباحثه لم تصل حتى اليوم إلى نتيجة يصح الوقوف عندها .

ومن نتائج العناية بدراسة بقايا تلك المدنية القديمة ، وترجمة النصوص الأشورية والمسمارية ، علمنا أن مجرى الفرات الأدنى كان مأهولاً بشعب ذكي ، ظامئ إلى المعرفة ، ماهر في معاملاته صبور في أبحاثه . علاوة على كونه أول من حاول الاهتداء إلى أسباب الظواهر الطبيعية التي كانت تجري أمام عينيه .

على أن مجهودات هذا الشعب العظيمة كانت مع ذلك لا تتعدى حَدّ البحث والاجتهاد في سبيل الكشف عما يمكن إدراكه من نظام هـذا الكون المعقّد، الذي لم نتمكن حتى الآن نحن أيضاً من أن نمسك إلا أطراف الخطوط الهادية اليه .

وتتلخص علوم الكلدانيين والآشوريين في بضع معلومات فلكية ورياضية، وفي مجموعة مشوّشة من التنجيم والسحر، ومعلومات بسيطة عن أصول الأشياء .

وسنوجز الكلام على ما عرفناهُ عن هـذه المعلومات من خلال ما تركه كتاب العهد القديم، ومما وجدنا من صحف الآجر التي كانت بدور الكتب الآشورية .

وسنرى من ذلك أن ما بلغته مجهودات رجال العلم الحـديث عظيم جداً بالنسبة إلى ما وصل اليه أولئك الناس في تلك العصور القديمة .

على أنه لا يصح أن يغيب عن الأذهان أن فتح الطريق الجديد أصعب كثيراً من سلوك الطريق المفتوح الممهد، وأن ما وُفّقت أيدينا اليه من روائع الاكتشافات ما كان ليتم لولا ما كان عليه ذلك الشعب الساذج من النشاط والعمل وحب التنقيب، حتى أنه عنـدما تجلت له السماء صافية ونجومها زاهية متألقة، أخـذ يغوص في أعماقها ليهتدي إلى سر النظام العام الذي يسيّر هذا العالم .

نعم أن مهد عِلم الفلك كان في كلدة . كان فى تلك السهول الفسيحة الأرجاء التي يجري الفرات فيها فلا يدرك النظر آخر مداه، وفي تلك السماء الشديدة الزرقة التي ما كانت تشوبها سحب أو تكدرها غيوم، بينما النجوم تتلألأ فيها بشكل لا نجده نحن فى سمواتنا القاتمة .

وكان في بلاد بابل مراصد هَرَميَّة عالية، إلى جانب قصور الملوك، تُعَدّ أيضاً كهياكل، والفلكيون يرصدون فيهـا الفلك وحركاته وكل ما يجري فيه، ويقابلون تقاريرهم المختلفة بعضها ببعض، وكانوا يكتبونها بأمر الملك ويعرضونها عليه . ولقد عثر المكتشفون في نينوى على كثير من الألواح الدالة على ذلك، فمنها : -

«يا آلهة نابوت ومردخاي، اكتبي لملكنا وسيدنا التوفيق. مُدّي فى أيامه وارزقي جسمه العافيه وقلبه الرضى.

« في اليوم السابع والعشرين اختفى القمر . ولقد ظللنا بعـد ذلك الى اليوم

« الثلاثين نبحث عن سبب اكفهرار الشمس من غير كسوف . أما في اليوم الأول
« من الشهر التالي ، شهر دوزو (يونيه) ، فقد رأينا القمر يقطع السماء فوق نابو
« (عُطارد) الذي أرسلت الى سيدي الملك فيما سلف خلاصة بحثي عنه . أما في يوم
« انو (Anu) حول نجمة بيرجيه (Berger أي الراعي) فقد أخذ ينحدر في سيره ،
« ولم يكن قرناه ظاهرين في كل طريقه بسبب المطر . وفي يوم «أنو» أخطرتُ سيدي
« الملك بما شاهدته عند اقترانه .

« ولقد ظهر بعدئذ فوق نجمة شار (Char المركبة) في مسيره يوم بيل
« (Bel أعظم آلهة بابل) اختفى عند تلك النجمة .

« أسأل لسيدي الملك السعادة والسلام . »

مثل هذه الأرصاد المجموعة بعناية يوماً بعد يوم مدى عدة قرون كان من شأنها أن تؤدي الى بيانات دقيقة عن حركة الكواكب ، وسمحت للكلدانيين أن يتنبأوا على وجه تقريبي بما سيقع من خسوف القمر في مواعيده وتواريخه ، في أدوار جملتها ٢٢٣ شهراً قمرياً أي نحو ثماني عشرة سنة .

وكل دور من هذه الأدوار كان يطلق عليه اسم « ساروس » الكلدانيين . وقد عرفه الأغريق من بعدهم، خصوصاً الفيلسوف ساليس المليتي ،الذي حقق وضبط حسابه.

ويحسن أن لا يذهب بنا الظن الى أن علماء بابل كانوا على علم تام بدقائق الحساب المعقد الذي يمكّننا اليوم من معرفة تواريخ عودة الخسوف والكسوف بكل دقّة

أمّا ما كانوا يصلون اليه من النتائج فقد كان على وجه التقريب . نعم أنهم كانوا يعلمون ان كسوف الشمس ناشيء عن توسط القمر بين الأرض و بين هذا الكوكب العظيم ، ولكن تنبؤهم به كان يخطيء أحياناً بخلاف تنبؤهم بخسوف القمر ، لأن « الساروس» في الحقيقة لم يكن كافياً لجعل تنبؤهم قائماً على أساس الدقة .

وقيل أن فلكيي بابل كانوا لا يجهلون وقت اعتدال النهار مع الليل . والاغريق الذين كانوا على علم به قالوا انهم أخذوه عنهم .ولكن مبلغ ما وصل اليه علمهم، وما عثرنا عليه منه ، يدل على أن حسابهم لم يكن من الدقة بحيث يصل بهم الى هذه الغاية

وربما وصلوا اليها على وجه التقريب ، بطرق تجربيةً لاتسير على قواعد صحيحة ثابتة كما كان الحال في ما يختص بالخسوف والكسوف .



(ملك اشوري ووزيره)

ونحن مضطرون الى التسليم بأن ارصادهم الفلكية هذه قد استمرت زمنًا طويلا جداً ، مما يحملنا على الرجوع بمدنيتهم الى عهد سحيق لا يمكن قبوله ومما لا شك فيه هو ان الكلدانيين ، والاغريق من بعدهم ، يرتدون بابحاثهم الفلكية الى ٤٧٠٠٠٠ سنة قبل التاريخ . ونحن لا يمكننا الى الآن التسليم بمثل هذا الرقم الخرافي

والتاريخ الوحيد الذي نعرفه يقينًا هو تاريخ حكم سرجون القديم ، الذي يرجع الى ٣٨٠٠ سنة قبل المسيح .

ولقد جمع هذا الملك في مخطوط واحد - عثر المكتشفون على بعض بقاياه - كل البيانات الفلكية التي انتهت الى عهده.

أما اذا أردنا أن نرجع الى بيان صحيح دقيق ، وجب علينا أن نعود إلى عهد

نبوخذ نصّر ، أي الى ٧٢١ سنة قبل الميلاد ، فنرى أن هذا الملك أراد أن يبدأ كل شيء من تاريخ ملكه ، فأعدم كل التقاويم والكشوف الفلكية التي كانت باقية الى عهده ، وقطع علينا الطريق لمواصلة البحث في ما وصل اليه علم الكلدانيين في الفلك .

وفي عصره كان البابليون ، ومن باب أولى الأشوريون ، يعلمون كثيراً عن الكواكب الظاهرة للعين المجردة . ويميزون تمام التمييز بين النجوم الثابتة ، ويطلقون عليها هذه الأسماء :

إيا ، أي ساتورن أو زُحَل . وبيل ، أي جوبيتير أو المشتري . ونرجال ، أي المريخ ، وإيستار ، أي ڤينوس أو الزُّهَرة . ونابو أي عُطارد

وكانوا يعدون القمر والشمس من بعضها

ثم انهم كانوا يقسمون هذه الكواكب إلى مجاميع مختلفة وضعوا لها مسمّيات ورموز ، خصوصاً التي تتألف منها منطقة البروج

وكانوا يعلمون أن السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وربع يوم ، ولكنهم في أحوالهم المدنية كانوا يعمدون الى السنة المركّبة من اثنى عشر شهراً قمريًا ، حيث يكملونها في أوقات ثابتة بشهر إضافي .

وكانت تقاويمهم متنوعة ، فمنها ما هو خاصّ بالعبادة والأعياد الدينية ، ومنها ما كان خاصًا بسير الفصول ، وشروق الكواكب وغروبها ، ونوع ثالث منها كان يُرجع اليه لمعرفة التغيرات الجوية ، وحالة الحاصلات ، وما يعتريها من الجدب والخصب .

وهذه التكهنات أو التنبؤات التي نشأ بعضها من ملاحظات دقيقة لم تكن هي وحدها كل ما اهتم به كهنة الكلدانيين ، لانهم كانوا فوق ذلك يستعملون أساليباً من التنجيم والطلاسم اشتهر بها علماء بابل .

وكان تأثير الكواكب في سير الفصول ، ومدد الأيام ، و بعض الظواهر الطبيعية متغلغلا في نفوس أهل ذلك العصر . حتى أن كل حركة كانت تقع فوق سطح الأرض كانوا يعللونها بأنها حاصلة من تأثير الأجرام السماوية .

ولقد كان البحث عن الصلة بين الكواكب من حيث ظهورها وما يقع على الأرض من الحوادث وسيلة اتخذوها الى التحدث بمصير الناس والدول ، حتى أصبح

ذلك مشغلة للكلدانيين وأساساً لعلم خفي كانوا ينشرونه على العالم حتى أخذه عنهم الأغريق، ثم الرومان، فالعرب، ثم انتشر في قارة أوروبا وبقي أثره إلى الآن.

ويمكن الاهتداء الى موجز من علوم الفلك والتنجيم عن علماء بابل مما ذكره ديودورس الصقلي، لأن الاكتشافات التي تمت على أيدينا لم تهدنا الى شيء كثير من ذلك ؛ فخير لنا أن نرجع الى روايته :

« ان الكلدانيين هم أقدم سكان بابل ، وكان مقامهم في الدولة كمقام الكهنة في مصر لهداية الناس الى عبادة الآلهة . فكانوا يقضون حياتهم بالتأمل في المسائل الفلسفية ، ولهم شهرة لا تجارى في علم التنجيم حتى كانوا يخبرون بالغيب ، ويحاولون منع الشر وجلب الخير بوسائل لاتتعدى التطهر أو القربان أو السحر . وكان من ضمن وسائل عرفانهم الغيب العيافة (أو زجر الطيور) . وكانوا يفسرون الأحلام ويعملون الخوارق. ولتضلعهم من معرفة احشاء الضحايا كان الناس يعتقدون أن مايقولون هو الحق .

« ولقد كانت هذه العلوم ميراثاً يأخذه أبناء الكلدانيين عن آبائهم ، ولهم في مقابل ذلك اعفاؤهم من أثقال الالتزامات العامة، ورفع الضرائب عن كواهلهم

« وكان الكلدانيون يقولون بأبدية العالم، وأنه لم يكن له أول يبتدئ عنده حتى يكون له آخر ينتهي عنده . وبموجب فلسفتهم كانوا يعتقدون بأن الحياة والنظام اللذين تظهر بهما المادة انما هما سرًا من أسرار الآلهة . وأن مانراه في السماء لم يكن اتفاقا وانما هو أثر من آثار إرادتها .

« ولقد أطالوا النظر الى الكواكب من غابر الزمن ، فاهتدوا الى حركتها وتأثيرها في الناس ، وبها توصلوا الى علم الغيب (الطوالع) الذي أخذوا ينشرونه في العالم .

« وكان أهم علم في نظرهم هو العلم الخاص بحركة الكواكب السيارة الخمسة ، وكانوا يسمونها «بالترجمان». وأهمها عندهم وأكبرها تأثيراً ما كان يسميه الاغريق «كرونوس» (Kronos) أي زحل، ويطلق الكلدانيون عليه اسم كيلوس (Kélus) .أما الكواكب الأخرى فأسماءها هي على ماهي عليه الآن ، أي المريخ (Mars) والزهرة (Venus) وعطارد (Mercure) والمشترى (Jupiter) .

« أما تسميتهم إياها « بالترجمان » فلأن الكواكب السيارة التى لها حركات

خاصة ليست لسواها من الكواكب الثابتة ، كانت تدلّهم على الحوادث وتكشف للناس عن نيّات الآلهة الحسنة .

« وكانوا يقولون أن الباحثين المهرة يمكنهم أن يُنبئوا بالغيب بمجرد النظر الى الشروق والغروب ، ولون الكواكب ، فيخبرون بما سيقع من العواصف والأمطار ، والحرارة الشديدة ، وظهور الكواكب ، والخسوف والكسوف ، والزلازل ، وكل مايقع على الأرض من التغيرات ، وفي ذلك كثير من إشارات السعود أو النحوس للافراد ، والبلدان ، والامم ، ولا سيما الملوك .

« وكانوا يقولون أن في الطبقة السفلى من تلك الكواكب الخمسة ، ثلاثون كوكباً اسمها الآلهة « المستشارة » ، نصفها يتجه الى سطح الأرض ونصفها الآخر يتجه الى قاعها . وهي كلها رقيبة على مايجرى بين الناس وفي السماء . حتى ان كل عشرة أيام يقوم من بينها كوكب مندوباً عنها من المناطق العليا الى السفلى ، بينما ينتقل كوكب آخر من جوف الأرض الى مافوقه ، وذلك في أوقات معيَّنة .

« ومن بين هذه الكواكب المستشارة اثنا عشر كوكباً يتحكم كل منها في شهر من شهور السنة ، ويكون واحداً من اثنى عشر رمزاً لمنطقة البروج .

« وكل من الشمس والقمر والكواكب الخمسة المتقدم ذكرها تمر بهذه الرموز فتتم الشمس دورتها في مدى سنة ، وأما القمر ففي مدى شهر .

« ولكل كوكب مدار خاص .

« وتختلف الكواكب بعضها عن بعض باختلاف سرعتها والزمن الذي يقطعه مدارها ، وتؤثر في ميلاد الناس وحظوظهم ، ولذلك يتخذها الباحثون كتاباً يقرأون في سطوره الغيب . فذكروا نبوءات كثيرة لعدد لايُحصى من الملوك . كداريوس الظافر ، واسكندر ، وأنتيجون ، وسلوقيوس تيكاتور . ويظهر ان هذه النبوات صدقت ولم تخطئ ، وسنتكلم عليها في مكانها .

«ولم يحرم الخاصة من الوقوف على مخبَّئات مستقبلهم ، وكانوا يدهشون ويعجبون بدقّة أولئك المنجمين .

« أما فيما عدا منطقة البروج فقد ذكروا أربعة وعشرين نجمة ، نصفها فى الشمال

ونصفها في الجنوب، سمّوها قضاة الكون . اختص الظاهر منها بالأحياء ، والخفي بالأموات.

«أما القمر فقد كان الكلدانيون يقولون أنه يدور تحت كل الكواكب قريباً من الأرض بسبب الثقالة (Pesanteur) ويتم دورته في وقت قصير ، ليس اسرعة حركته ولكن لأن مداره قصير

« ونور القمر مكتسب ، وخسوفه مسبب عن وقوع ظل الأرض عليه ، كما ذكر الأغريق

« أما عن كسوف الشمس فقد كانت معلوماتهم مبهمة ، حتى انه لم يكن في وسعهم أن يتنبأوا عن زمن وقوعه

«وللكلدانيين عن الكرة الأرضية آراء غريبة . فقد كانوا يذهبون الى أنها مجوّفة . وأتوا ببراهين عديدة على صحة نظرهم في نظرياتهم المختصة بنظام الكون واحكامه . »

وكان الشهر القمري عندهم ينقسم الى ثمانية وعشرين يوماً ،أي الى أربعة أسابيع ، كل أسبوع منها سبعة أيام .

وهم أول من سمّى هذه الأيام السبعة بأسماء الكواكب السبعة . وقد حفظنا عنهم ذلك،أما اليوم السابع فقد كانوا يعتبرونه يوم راحة ، كيوم السبت عند اليهود. وكان لديهم آلات يقيسون بها الزمن ، منها المزاول الشمسية ، والساعات المائية ،وآلات معدة لأخذ ارتفاع الشمس

وروى هيرودوتس أن الاغريق أخذوا عن الكلدانيين تقسيم النهار الى اثنى عشر جزءا . ولا ريب في ان هذه الاجزاء هي ساعات النهار الاثنتا عشرة ،من الصباح الى المساء ، لان الكلدانيين كانوا يقدّرون اليوم ، أي الليل والنهار ، بأربع وعشرين ساعة

ونحن نعلم أن سكان الجزيرة اخترعوا أصطرلابا (astrolabe) لقياس ارتفاع الكواكب ، ولا يبعد أنهم عرفوا بعض خواصّ العدسات ، فقد عثر المنقبون في خرائب نينوى على عدسة منها ، ويُظنّ أن بعض الكواكب التوابع للمشتري وزُحَل كانت لاتُرى في مراصد بابل إلا بعدسة . ولكن يجب البحث عن أدلة أقوى من تلك

للحكم على مسألة من الأهمية بمكان كهذه ، لأنه يصعب تصديق وجود مثل هذه الوسائل عند الكلدانيين مع عدم وجودها عند المصريين والأغريق الذين كانوا على أوثق الصلات بهم

أما المسائل الرياضية فالآثار الدالّة عليها ، مع قلتها ، تكفي للدلالة على أن الكلدانيين كانوا بها أيضاً أغزر علماً منهم بالمسائل الفلكية

ولقد وجد في « سِنقَرَه » (Senkereh) لوح قديم ، هو الآن بالمتحف البريطاني ، يُعد أكبر بيّنة على صحة ما ذكر • ويدلنا على ان عِلم الاعداد عند الكلدانيين كان لايقل عن مثله اليوم ،وأن تلك الامة كانت أولى الأمم التي اعتمدت وحْدة « مترية » كالوحدة التي نستعملها نحن (الفرنسيُّون)

وتلك اللوحة التي عثر عليها المنقبون في سنقرة مخطوط على أحد وجهيها مكعّبات الاعداد من رقم « واحد » الى رقم « ستين » وعلى الوجه الثاني سلسلة كاملة لمقاييس الاطوال .

وكان الكلدانيون يرجعون في حسابهم إلى ثلاث طرق .

وهذه الطرق هي الطريقة العشرية • ومنشأها اعتيادهم العدّ بأصابع اليدين العشرة ، والطريقة الاثنا عشرية ، وكانوا يستسهلونها لكثرة عواملها المعادلة لرقم ١٢ ، ثم الطريقة الستّينية وأساسها رقم ٦٠ ، فيمكن قسمتها إلى عشرات وإلى اثني عشرات فتجمع بين الطريقتين السالفتين .

وكثير من الأمم أخذت هذه الأساليب عن مخترعيها الكلدانيين واستعملتها . ونحن أيضاً نستعمل الطريقة العشرية ، والطريقة الأثنى عشرية في ما نطلق عليه اسم « الدزّينة » أو « الدّسْتة » (douzaine) وهي كثيرة الانتشار . وكذلك الطريقة الستينية فيما يتعلق بحساب الزمن أو تقسيم المحيط عند الملاحين أو الفلكيين . على أن هذه الطريقة الأخيرة لم يستعملها قديماً إلا علماء الكلدانيين . فقد كان محيط الدائرة مقسماً عندهم إلى ٣٦٠ درجة ، والدرجة إلى ٦٠ دقيقة ، وهذه إلى ٦٠ ثانية والثانية إلى ٦٠ ثالثة ورموز هذه التقاسيم هي التي تستعملها إلى الآن .

وكان اليوم عند الكلدانيين ينقسم إلى ٢٤ ساعة ، والساعة الى ٦٠ دقيقة

والدقيقة الى ٦٠ ثانية . وهم يطبقون هذه التقاسيم على المدد . فكانوا يفرضون فترة من الزمن طولها ٤٣٢٠٠ سنة يظهر لهم أنها يوم في حياة العالم [١]، وهذه الفترة تنقسم إلى ١٢ سارّ (Sare) أو ساعة من ساعاته وكل سارّ منها ٣٦٠٠ سنة . وكان السار ينقسم الى ٦٠ صوصّا (Sosses) أي دقيقة كونيَّة ، كل منها ٦٠ سنة ، وأخيراً الى السنة التي يعتبرونها بمثابة ثانية من ثواني الحياة العالميَّة .

أما طريقتهم في الوزن والقياس فكانت كالتي عندنا تقوم على وحدة طولية كان يطلق عليها اسم « أنپان » (Empan) وتعادل ٢٧ ملليمتراً . وكان مربع الأنپان ومضاعفاته وما تحت ذلك لقياس المساحة السطحية .

وعثروا في بابل عل مكاييل وموازين . فالأولى عبارة عن أوان من الآجرّ ، والثانية من البرونز ، ذات أشكال مختلفة ، منها ماهو على شكل أسد أو حلوف أو بطّ ، مذكوراً فوقها مقدارها مع اسم الملك واسم من اعتمد صحتها .

وأطلقوا على وحدةالأوزان اسم « مِين » (Mine) وكانت تعادل تقريباً ما زنتهُ ٥٠٠ جرام (رطل تقريباً) ومضاعفه وزنة (Talent) يساوي ٦٠ ميناً ، وهذه تقسم الى ٦٠ درهماً .

ومن هُنا نرى أن علوم الرياضة والفلك هي التي ترعرعت في بابل وفيما بعد انتشرت في آشور . ومن دار كتب اشور بانيپال علمنا أن البابليين والاشوريين حاولوا تصنيف الحيوانات والنباتات التي عرفوها

وكانت الحيوانات منقسمة إلى فصائل ، منها اللواحم (آكلة اللحوم) وتتناول كثيراً من الأنواع كالأسد والذئب والكلب الذي ينقسم إلى أنواع مختلفة . ومنها العواشب (آكلة العُشب أو النبات) كالثور والخروف والمعز . ومنها الحشرات ، وهي مرتبة على حسب طريقة غذائها . فمنها ما يعيش على الخشب والصوف ، ومنها ما يعيش عالة على الانسان والحيوان .

أما النباتات والمعادن فقد راعوا في تصنيفها أساساً يرجع إلى تشابهها وطرق استعمالها .

---

(١) يظهر ان مايقرب من ذلك كان معروفاً عند الصينيين والهنود أيضاً .

وقد عثر الباحثون على بعض أدراج حوت جغرافيــة بعض البــلاد الشهيرة وأسماءها وحاصلاتها .

وقصارى القول ، نرى أن نصيب بابل من المعرفة ، مهما يكن من شأنه ، لم يبلغ العلم بالمعنى الصحيح ، وإنما كان عبارة عن عــدّة ملاحظات ومحاولات دقيقة في هذا السبيل .

فقــد عرفوا أشياء كثيرة ، ولكن لم يكن لهم علم بالقوانين العامّة التي تدخل تحت سلطانها .

ومع ذلك لايحق لنا أن ننتقد الأســلوب الذي اتبعــوه ، فان كثيراً من أفذاذ مفكرينا يرجعون اليوم اليه من رصــد الحوادث والصبر على بحثها حتى يصــلوا إلى حقيقة القوانين .

ومعلوم أنه قبل فهم الطبيعة وتفسير سُنَنها يجب إطالة النظر إليها والتأمل فيها . فبعد ملاحظة ما لا يُحصى من المشَاهِد أمكن معرفة ناموس الجاذبيّة الذي بموجبه يسقط ثمر الشجر ، وتتمّ الكواكب دورتها بانتظام .

وولع الكلدانيين باكتشاف حقائق الاشياء انتقــل الى الاشوريين ، ثم الى الأغريق . فكلدة وحدها هي التي شعرت في ظلمة هذا الكون بالظمأ الشديد الى العلم . واليها وحدها يرجع الفضل في ما كسبته الانسانية من التقدم والارتقاء ، والخروج من طور البهيميّــة والوحشية

وهــذا الطِلَسْم الذي يحول بيننا وبين الوقوف في طريق التقــدم ، ألا وهو « العرفان » كان وجهة عقلائها وحكمائها ، كما هو قبــلة أنظار المفكرين فينا الذي يدفعهم الى مواصــلة البحث في رمال الصحراء عن الاطلال التي تهدينا الى ما كان عليه اهل تلك القرون البائدة .

٢ — الصناعة

يضطرنا البحث في صناعات الكلدانيين والآشوريين الى الرجوع الى العصر الحجري . لأن كثيراً من الادوات القديمة المصنوعة من الظِرّ (Silex حجر الصوان) وجدت في أطلال بلادهم .

ويمكننا أيضاً ان نهتدي الى أصل العصر البُرُنْزيّ ، لأن بعض المخلفات والمخطوطات هدتنا الى آثار هذا العصر الذى كان الحديد فيه نادراً جداً ، حتى كان لا يُصْنَع منه سوى الحلي

ولكن هذا المعدن وُجِد في كل ادوار العصور التاريخية وكثر استعماله . وكان من بين الدفائن التي عُثِر عليها بعض ادوات من الفولاذ . فهذه الصناعة أذن قديمة ، وكانت ذات شأن في البلدان المجاورة لأرض الجزيرة ، حتى لقد ذهب الظن الى ان فولاذ دمشق الشهير ، الذي كان الأقبال عليه شديداً في القرون الوسطى ، لم يكن سوى ما أخرجته مصانع بابل ثم استقر في سورية بطريق التّوارث . ولا نعرف أمة أدخلت الحديد والفولاذ في صناعاتها قبل الكلدانيين والآشوريين

والرأي التاريخي الذي يُعلِّل استمرار حكم نينوى لبلاد العالم القديم بسبب وفرة هذه المعادن لديها قد لا يخلو من الصحة .

وكان الآشوريون مولعين بالأسلحة. فسيوفهم وحرابهم وتروسهم ، ودروعهم (Bouclier) وخوذاتهم كلها كانت آية في المتانة والاتقان . على انه يكفي التأمُّل في الخناجر ذات المقابض التي على شكل سبعين التي نراها بين ايدي تماثيل ملوكهم حتي نقتنع أنها من أبدع الآثار الفنية

وكان عندهم عدا ذلك أدوات كثيرة كالمحاريث ، والمعاول ، والخطاطيف ، والسلاسل ، و المقابض ، والمفاصل وغيرها

وهذا المعدن كانوا يستعملونه أيضاً في الأبنية التي كانت في حاجة الى تقوية ، حتى ذكر ديودورس الصقلي ان قنطرة على الفرات في بابل كانت أعمدتها الحجرية مربوطة بمشابك (Fibulas) من الحديد ، وان الفراغ الذى بين أجزائها كان مَملوءاً بمذوَّب الرصاص لتوثيق الحجارة بعضها مع البعض . وهكذا كانت كل انواع الصناعات الحديدية زاهرة على ضفاف نهري دجْلَة والفرات

وكان الذهب والفضة مستعملين أيضاً ، ولكن بغير مَزْج ، وكانوا يطرّقونهما صفائح رقيقة يزيّنون بها الجدران ويصنعون منهما التماثيل :

قال هيرودوتس « انه كان في هيكل « بيل » تمثال كبير من الذهب يمثّل

جالساً ، وبقرب هذا التمثال مائدة كبيرة من الذهب أيضاً . وكان العرش وسلمه من هـذا المعـدن نفسـه ، ووزن كل ذلك ، على ما جاء في تقارير الـكلدانيين ، نحو ثمان ماية »

على أن ديودورس الصقلي ، الذي ذكر خبر هـذا الهيكل عن طريق السماع ، لأنه لم يرَ إلا أنقاضه ، وصف بعض تماثيل من الذهب ، وأفاعي من الفضة . وقال عن تمثال المشتري والمائدة التي امامه أنهما كانا مصفَّحين بالذهب .

وفي بعض المخطوطات أن الملوك كانوا يباهون بعظمة قصورهم التي كانت جدرانها مغشاة بالفِضّة . إذن كان صهر هذين المعدنين وتطريقهما (مطالها) من الأمور المعروفة في ذلك العصر .

ومما يستحق النظر هو صناعة البرونز . وهو مزيج من النحاس والقصدير . فمنه صنعوا النواقيس الرنّانة ، والأبواب السميكة ، والسياجات وأسوار القصور والمدن .

« وكان الدخول الى الحصن الذي شيدته « سميراميس » من باب ذي ثلاث طبقات ، خلفها غُرف من النحاس الأحمر لا تُفتح إلا بواسطة آلة ميكانيكية » كما رواه ديودورس الصقلي .

وكان البرونز يُصهر ويُصبّ في بابل وآشور . ويدل على ذلك ما عثروا عليه في أطلالها من التماثيل الصغيرة ، والزخارف ، والأواني ، والقدور ، والجامات (Coupes) والصحون ، وكذلك القوالب التي كانوا يصبونها فيها .

وبلغ من براعتهم أنهـم كانوا ينقشون الصُّوَر الدقيقة في الحجارة الشـديدة الصلابة ، كالحجر اليماني ، والعقيق الأبيض ، والجَزْع البقراني (Sardoine) وغيرها ، وكان نقش تلك الصـور الدقيقة يحمل على الظن بأن النقوش البارزة كان يستعان على صنعها بعدسات . وربما كانت العدسـة الزجاجية التي عُثر عليها في نينوى مما يقوي الظن بأن أولئك القوم كانوا يعلمون ما لتقعير العـدسة من قوة التكبير

وربما كان الحفر على الحجر الصلد أقرب عندهم الى الصناعة منه الى الفنّ ، لأن الصناع كانوا في حاجة الى السرعة إنجازاً لما يُطلب منهم .

قال هيرودوتس ، وأيَّده في ذلك بعض ما عُثر عليـه من المكتوبات ، ان كل

أشوري وكل بابلي كان له خَتم يستعمله كالأمضاءة ، يوقّع به على الآجر اللين في آخر ما يكتب عليه من الرسائل أو العقود .

أما الفقير الذي لا يملك ختماً فقد كان يبصم عدة مرات بظفره . ولكن ذلك كان نادراً ، لأن الأختام كانت متفاوتة الأثمان ، فلا يقتصر نقشها على الحجارة الكريمة بل كانت تتناول أيضاً الصَّدَف والحصَى .





على ان هذه الاختام كانت عُرضة للتجديد المستمر ، لأن أصحابها اعتادوا أن يضعوا كميَّة منها بين طبقات بناء قصورهم وغيرها من معابد وقلاع . ولا بد ان ذلك كان يحصل في إبَّان الاحتفالات التى كانت تقام عند وضع أساسات تلك المباني ، فيندفع الناس الى القاء أختامهم فيه ، مُضحون بتلك الآثار الثمينة التى جمعنا الكثير منها في متاحفنا العديدة ، وأغلبها على شكل اسطواني يدور حول محور (كالمحدَلة) بحيث يمكن طبع ماعليها من الصور بسرعة بمجرّد إمراره على سطح مُستوٍ .

وكانت قوالب الآجرّ تقوم مقام ورق البَرْدي أو (المُهْـرَق والرق) أو مقام الحجـر الذي لم يكن موجوداً عندهم ، ولذلك كانت صناعة الآجرْ من أهم الصناعات في ذلك الزمان

وكانت عجينة الآجرّ اللينة تُجفَّف في الشمس أو تُحرق في النار . وكانت الأولى تستعمل في الجدران الداخلية وتقوى بطبقة من الغاب (الحجَنة) وبالاسمنت (المونة) ،

— • —

وكانت على أنواع أهمها إثنان كان استعمالها شائعاً ويدخل في تركيبهما الصلصال مخلوطاً بالزفت الكثير الوجود على شواطئ الفرات

وعندما تعرّض ديودورس لوصف قصر سميراميس، قال :-

« قد كان مقوّى بحيطان بديعة مرتفعة مبنيّة من الآجر المحروق . وكان بداخل كل حائط حائط آخر من الآجر اللين (اللبن) عليه كثير من النقوش تمثل عدة أنواع من الحيوانات»

ووصف هيرودوتس كيفية بناء حيطان بابل ، فقال :

« كان الآجر يصنع من تراب الأرض التى يحفرون فيها خنادق الاساسات . ولما تكمل الكمية اللازمة كانوا يحرقونها فى أفران . وبدل المِلاط (المونَة) كانوا يستعملون القيْر (أو الزفت المعدني Bitumen) بعد تسييحه وبين كل ثلاثين عرقة (مدماك) من الآجر توجد طبقة من الحصير المصنوع من الغاب (الحجنَة) المشبَّع بالزفت . وعلى مسيرة ثمانية أيام من بابل توجد مدينة « إيس » (Is) على جدول بهذا الاسم يصب في الفرات ، ومع مياه هذا النهر تنصَبّ كمية كبيرة من هذا القير الذي صنعوا منه أسوار بابل »

وكان هذا الأجرّ ذا الوان مختلفة . فمنه الأصفر ، والبرتقالى ، والأحمر ، والأسمر ، والأزرق السنجابي . وهذا التنوُّع فى اللون سببه طبيعة الأرض وتأثير الطبخ . وعلى كل حال فقد كانت تلك وسيلة استخدمها المهندسون ليقلّدوا بها حيطان إكباتان .[1]

وهذا ما ذكره هيرودوتس عن هذه المدينة التى نسب تشييدها الى ديچوسيس (Déjoces) أو دياكو (Dayakkou) ملك الماديين وان كان ديودورس يقول أن سميراميس هي التى يرجع الفضل اليها فى اقامتها :

« وأسوار هذه المدينة مستديرة يجمعها مركز واحد . ولكل سور منها عند نهايته شُعَب بارزة على شكل الأسنان ، فكان كل سور يزيد ارتفاعاً على المجاور له بحيث تظهر شُعبه هو أيضاً ولا تزيد على سبع . وكانت شعبها تختلف بعضها عن بعض فى

(١) Ecbatane أو أحْمَتا الوارد ذكرها في التوراة في سفر عَزْرا في الاصحاح السادس والعدد الثاني ، كانت عاصمة بلاد مادي . أما الآن فان اسمها همدان في بلاد فارس .

اللون ، فترى شُعب السور الأول بيضاء ، والتي تليها سوداء ، فحمراء ، فزرقاء ، فبرتقالية ضاربة الى الحمرة . اما شُعَب السورين الباقيين فبعضها عليه طلاء من الفضة و بعضها من الذهب »

وهذه الطبقة الفضية أو الذهبية هي من الصفائح . وكان اللون الأبيض من الجير (الكلس) والأسود من الزفت ، أما الالوان الأخرى فربما كان سببها تنوع لون الآجر على ما سبق ذكره

وكثيراً ما كانت تُقام فى كلدة أبراج هَرميَّة ذات سبع طبقات مختلفة الألوان. وربما كان الدافع لهم الى توخّي هذا العدد وتلك الألوان تأثُّرهم بالكواكب السبعة وما نسبوه اليها من الألوان .

أما مآخذ الألوان فقد كانت معروفة فى ما بين النهرين . فالأحمر اكسيد النحاس ، والأصفر اكسيد الحديد ، والأبيض اكسيد الزنك ، والأزرق الكوبالت .

وبهذه الالوان كانوا يلونون عجينة الزجاج التى كانوا يطلون بها الفَخَّار ليكسب لون المينا أو « القيشانى »

ولم تكن صناعة الفخّار فى بابل أو أشور رائعة من الوجهة الفنية . ولكنها مع ذلك كانت تتناوَل أشياء كبيرة المساحة . واكبر ما وجد منه مطبوخاً اغطية توابيت (نواويس) الموتى وأغطيتها ، وهي من قطعة واحدة بطول الأنسان ، يُوضع الميت فيها مع بعض اشياء كانوا يدفنونها معه . وكانت هذه التوابيت احيانا مؤلفة من جزئين كبيرين كل منهما بشكل قدرْ تُوضَع اطراف الميت السفلي فى احداهما ، وباقي جسمه فى الأخرى ، ثم تتّصل أحداهما بالاخرى اتصالاً محكماً .

وكثير من هذه التوابيت وُجدت فى بابل التى كانت ، على ما يظهر ، الأرض المقدسة حيث يدفن الآشوريون موتاهم

أما الخشب والجلود فقد كان استعمالها ذائعاً في كثير من الصنائع ، ومنها صناعة السفن . لأن البابليين كانوا ملاَّحين فى الأنهر والبحار كما يدل عليه قول النبيّ اشعياء :-

« هذا ما يقوله الربّ فاديكم قُدّوس اسرائيل . لاجلكم ارسلتُ الاعداء الى بابل واسقطت كل عمُدها ، وهزمت الكلدانيين الذين وضعوا كل ثقتهم في سفنهم.»

ولا شك ان هذه السفن التى كانوا يأمنون اليها أمتن صناعةً وأشدُّ صلابةً من القوارب التى تجري فى الأنهر، وقد وصفها لنا هيرودوتس . وسنأتى الآن على هذا الوصف لِغرابتهِ، ولأنه ينطبق أيضاً على السفن التى تنحدر في ايامنا الى الدجلة والفرات . قال : -

« وسأحدثكم عن شيء آخر لا يقل إبداعًا عمَّا في هذه المدينة . فأن السفن التى تُستخدم للذهاب الى بابل مصنوعة من الجلد على شكل مُستدير . ومكان صُنْعها فى أرمينية ، في شمال آشور . ويستعان على ذلك بخشب الصفصاف لتشكيل هيكلها ثم يكسونه بعد ذلك بالجلد حتى يصبح كالدرع لا يميز بين مقدمه ومؤخره . ثم يملأون قاع هذه السفن بالحطب أو الغاب (البوص) .

وهذه السفن (أو بالحري الاطواف) التى كانوا ينقلون عليها مختلف السِّلع ، ولا سيما خمر (عرق) البلح ، كانت توضع في اتجاه تيار النهر وفي كلّ منها رجلان واقفان يمردها (يدفعها) كل منهما بمُرديّ (عصا طويلة تُدفع بها السفينه في الانهر واسمها المعروف في مِصرَ مِدْرى)

ومن تلك السفن ما هو صغير يحمل فوق شحنته حماراً واحداً ، ومنها ما هو كبير يحمل عدَّة حمير .

وكانوا متى بلغوا بابل وفرغوا من بيع ما معهم يبيعون هيكل المركب وما فيه من الحطب ، ثم يحمّلون جلده على الحمير ويسوقونهم امامهم حتى يعودون الى أرمنية . لأن سرعة جريان النهر لانحدار مائهِ تحول دون العودة فيه لمقاومة التيار ، ولذلك كانوا يصنعون سفنهم من الجلد لا من الخشب . وعند عودتهم الى أرمينيا كانوا يصنعون غيرها على الوجه الذى سبق »

ولعل أهمّ صناعات بابل التى لم يجارها فيها مُجار فى العهد القديم هي صناعة الأنسجة من الشفوف الخفيفة . الى الانسجة المزركشة ، الى السميكة الخيوط ، الى البسُط الفاخرة . فكان ما يصدر منها إلى البلدان البعيدة يباعُ بأغلى الأثمان .

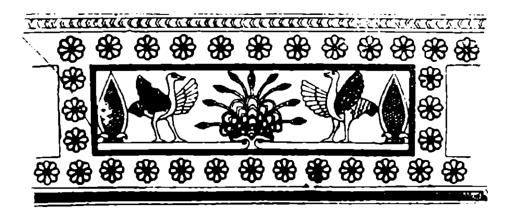
وقد ظلّت محافظة على هذا المقام الى ان قامت اليوم سجاجيد (طنافس) أزمير والعَجم مقام بسط بابل الشهيرة

وقد بزت بابل مناظرتها أشور سواء أكان من الوجهة الصناعية أو العلمية . واذا كان بريق الاسلحة في نينوى ممـا يبهر الابصار ويحيّر العقول ، فان ضَياء العلم وبهجة الرخاء كانا دِعامة مَجْد بابل التي روَّج صنَّاعها الماهرون ، وتجارها النَشَاطى مصنوعاتهم وبضائعهم فى انحاء العالم المعروف . فعادت عليها بالثروة الوافرة - قال هيرودوتس :-

« ومن الادلة على عظمة غِنى بابل : انهـا كانت تنفق على إطعام جيش الملك اربعة اشهر في السنة ، وفي الثمانية الاشهر الباقية تنفق عليه البلدان الاخرى .. فكأن ثروة بابل ثلث ثروة البلاد كلها » . وقد ذكر النبي ارميا ان الله سوف يرسل الى بابل ، اعظم مدُن العالم فى العمران ، جموعاً من الامم ليثْروا من بقاياها .

على ان اسم بابل لايزال الى اليوم مرادفاً لالفاظ الزينة، والانس، والسرور ، والشهوات . فلن توجد مدينة لها مثل هــذه الشهرة الرائعة الفتَّانة ، حتى صحَّ فيها ذلك الوصف الذي وصفها به النبي ارميا بقوله :-

« بابل كأس ذهب بيدِ الربّ ، تُسْكر كل الارض . من خمرها شربت جميع الشعوب » .



الباب الخامس

النظم السياسية والاجتماعية، والاخلاق والعادات

١ – النظم السياسية والاجتماعية



كانت الحياة السياسية والاجتماعية عند الآشوريين والبابليين متشابهة

نعم انه كان بينهما في أول الأمر اختلاف يتناول الاخلاق ، والنظم ،والمنشأ ، والطباع ، ولكن كل ذلك زال أخيراً فاندمجا اندماجاً تاماً . ورغم تغلُّب العنصُر السامي بما كان له من القوة ، فقد ظلَّ تأثير الذكاء الكلداني القديم سائداً من بعدهم فى أبنائهم وذراريهم .

وهكذا كانت مظاهر القوة منتشرة فى أشور . أما فى بابل فأن حضارتها حالت دون انهيارها ، حتى فى مدى القرون التي ظلت آشور متحكِّمة فيها .

على أن موقع كل منهما الجغرافي كان سبباً لتوجيه نشاط كل منهما الى وجهة خاصة مختلفة . فقد كان البابليون أعظم أمم عصرهم في الملاحة ، لان كلاًّ من دِجلة والفرات كان يصب في الخليج الفارسي ، فانفتح امامهم الطريق الى شواطىء البلاد البعيدة كالهند الغنيَّة بكنوزها ، والحبشة بذهبها وطيوبها وعطورها

أما الآشوريون فلم يعنوا بالملاحة نظراً لإقامتهم فى الجزء الأعلى من أرض الجزيرة .

على أن فتوحاتهم وانتصاراتهم مكّنتهم من القبض على زمام الملاحة فى صور

وبابل ، وبتسلطهم على سواحل كلدة وفينيقية أصبح البحر أيضاً خاضعاً لسلطانهم وكان بينهما اختلاف آخر ، نذكره قبل أن نخوض في النظم العديدة التى كانت عامة بينهما . وهذا التباين كان فى شكل الحكم عند كل منهما . ففى بابل كان أقرب الى رجال الدين منه الى غيرهم ، بخلاف نينوى التى كان صولجان الحكم فيها بيد الملك وحده .

وكانت حكومة اشور ملكية حربية وبقاؤها استدعى هذا النوع من الحكم ، لأنها كانت مملكة شاسعة الأطراف ، بعيدة الحدود ، مؤلفة من كثير من العناصر المختلفة ، فلم يمكن تماسكها الا اذا قبضت على أزمة الحكم فيها يد من حديد . ولم يكف ملك نينوى أن يكون قاسياً مستبداً ، بل كان عليه أيضاً أن يكون فاتحاً مغواراً ، لاينفك عن الغزو وشن الغارات . والبلاد التي تمكن من إخضاعها لصولجانه كبابل وأرمينيه وفينقية وفلسطين كانت بلاداً وثابة تأنف من ذل الخضوع لسواها ، فكان وقوفه عن هذه الحركة لحظة واحدة يفضي الى انسلاخ بعضها ، بل والى انتقاضها جميعاً فتصبح آشور من جراء ذلك أثراً بعد عين .

ويكفى أن تحرز هذه الأمم المغلوبة انتصاراً واحداً لتزحف على تلك المدينة الجبارة العاتية ، نينوى ، وتغادرها خرابٌ يبابٌ

لذلك كانت سلامة نينوى وحياتها في مواصلة تلك الغزوات التى لم تنقطع حتى آخر أيام حياتها . ولما سقطت لم تقم لها قائمة بعد سقوطها .

على أن الاسباب التى جعلتها مدى القرون الطويلة سيدة العالم ، هي ذات الأسباب التى قضت عليها بالدمار والفناء . ولذلك ترانا حين نقرأ وصف ديودورس لاستكانة ملوكها الى حياة الخمول والبطالة وانغماس « سارداناپال » في اللهو والدعارة ، لانظن الا اننا نطالع خرافة ، قال هو نفسه انه نقلها عن ستيزياس (Ctésias) . أما اليوم ففى متناول أيدينا من الشواهد ماهو أصح بما لا يقاس من رواية هذا المؤرخ الاغريقى ، لانها منقولة عن النقوش الاثرية التى تظهر لنا ملوك اشور الحربيين شجعاناً لا يتطرق

الى نفوسهم وهن أو ملل ، غلاظاً قساة القلوب لايهدأون عن الحروب الهائلة إلا إذا أرادوا أن يتسلّوا بصيد أضرى أسود الصحراء وجهاً لوجه .

واذا أمكننا أن نصدق ملق الملقّبين من جلسائهم ، حسبما يظهر من النقوش التى على آثارهم ، نرى ان ما يُذكر عن انصرافهم الى الغزوات والحروب المستمرة يجعل رواية ديودورس عن الملك سرداناپال في حكم الاستثناء ، هذا اذا سلّمنا بحقيقة وجوده . وقصة هذا الملك التي لم يؤيدها أي مصدر جدير بالثقة ، ذائعة مشهورة بحيث يكون من التقصير إغفالها ، ولذا فاننا نرويها هنا كما هي : -

« سرداناپال الملك الثلاثون من عهد « نينوس » وآخر ملوك الاشوريين بزّ من «سبقه من الملوك فى الدعارة والانغماس في الملذات. فلم يتورّع عن التجرّد من ثيابه امام « أعين شعبه ، بل كان يعيش عيشة النساء ، صارفاً وقته بين محظياته ، مرتدياً ملابس « النساء ، ملطخاً وجهه بالاصباغ الحمراء . وبدنه بالدهون والمساحيق كالتي كانت « خليلاته تستعملها . وكان في حركاته غنج وتكسّرودلال ، وفي صوته نبرات صوت « المرأة . وقد أطلق لنفسه عنان الشهوات الجنسيّة بلا خجل ولا استحياء ، وانغمس « في حمأة الفسق والفجور انغماساً شديداً ، حتى انه كتب بنفسه ما أوصى بأن يُنقَش « بعد موته على قبره بلغة غريبة ترجمها مؤخراً إغريقيّ وهذا نصها : -

« أيها المارُّ بقَبْري ، تذكَّر انك لست من الخالدين ، وافتح صدرك « للّهوِ والسرور لأن لا تمتُّع بعد الموت . فأنا الآن لست الاَّ تُراباً ، بعد ما « كنتُ ملكا عظيماً على نينوى العُظمى ، ولكنني قد هنأت بما أكلتهُ من طعام ، « وشربتُه من خمر ، واستمتعت به من ملذّات الحب والغرام ؛ ولم أفقد سوى سلطاني وكنوزي »

وليس في كل ماعثر عليه المنقّبون الى الآن من الكتابات في خرائب اشور ما يؤيّد هذه الوصيّة . لان الحجارة التى كانت تُقام لتخليد ذكر ما أحرزه الملوك من الانتصارات ، وما وُجد على جدران قصورهم من الكتابات كان يشيد بأعمالهم الحربية، ولا يذكر شيئاً عن لهوهم وملذّاتهم .

ويظهر ان الاشوريين كانوا أسبق من غيرهم في التحرُّز من ذكر النساء علانيةً ، كما نشاهد ذلك الى الآن في أغلب بلدان الشرق ، وهو عدم التحدُّث عن الزوجة الا تلميحاً، أو ذكر اسمها الحقيق . وسنرى ان البابليين كانوا على عكس هذا الرأي .

فالسيد الاشوري كان له من شوكته الحربية ، بل ومن قسوته وشدّة بأسه ما يحمل غيره على احترامه وطاعة أوامره .

ولقد قابلنا فيما سبق بين وحشية نينوى ومدنية بابل ، وتقدير أهلها للفنون الجميلة. ثم توجد مسئلة يجب ألاَّ يفوتنا ذكرها ، وهي ان ما من شعب أمعنَ مثّالوه وكتّابه في التغنّي بوصف أفظع المذابح والعذابات كالشعب الاشوري . فقد كانوا يرصدون على لوحات الآجرّ عدد الرؤوس المقطوعة أو الابدان المبتورة أطرافها ، أو صفوف الاسرى المربوطون ببعضهم بواسطة حلقات معدنية مثبّتة في شفاهم أو أنوفهم ، وهم وقوف في انتظار حكم الملك الواقف امامهم واضعاً قدمه على جبين أقرب أولئك التعساء اليه ، منهمكاً في ابتكار نوع جديد من العذاب يصبُّه عليه . أو يتناول قضيباً فيفقأ به عيني أسراه ، بينما نرى على مقربة منه صفًّا طويلا من خوازيق مثبَّتة في ابدان غيرهم من الاسرى ، وآخرين مطروحين على وجوههم مربوطة أرجلهم وأيديهم في أوتاد بينما يسلخ الجلاّد دون جلودهم وهم على قيد الحياة . ولقد اهتم مصوِّر هذه الفظائع الجهنميَّة بايضاح هذا النوع الاخير من التعذيب ، لان ذلك كان أحبّ من غيره لدى الاشوريين . فأظهر الجلاّد وهو يَشُقّ بحدّ سكينه بعض الخطوط قبل أن يباشر عملية السَّلْخ ، كأنه لا يريد أن يشوِّه الكتلة اللحميَّة التى ستبقى بعد نزع الجلد لتعليقها على اسوار القصر كتذكار نصر . وقد عثر المنقّبون على لوحة حجرية فيها رسم ناتئ يُمثِّل ملك ومَلكة ، ينعمان بتناول الطعام ، في ظِلّ عريش في بستان ، وخلفهما الخصيان يروّحون لهما بمراوح الريش الثمين ، وهما يتبادلان كؤوس المُدام ، ونظرات الغرام ، وأمامهما يتدلّى من أحد الاغصان الوارفة رأس ملك أسير جاحظ العينين ما زالت الدماء تقطر منه . . . . . .



وبعد أن ننتقل ، كما فعلنا في هذا الكتاب ، من أرض مصر الساحرة ، لنجوب هذا البلد الذي كان من أوائل البلدان التى صهرت الحديد والفولاذ ، وبفضل ماطرقه أهلها منهما سيوفاً باترة ، وآلات قاطعة ، تمكنت من الارتواء بدماء جيرانها الابرياء قروناً عديدة ، نشعر بالهلع والرعب والاشمئزاز من هؤلاء الاقوام الساميين ، أقوياء الابدان ، فطس الانوف . عند ذلك نتذكر البون الشاسع بين هذا وبين جمال ورقة ملامح الرؤوس الفرعونيّة التى لم تكن تقلّ حسناً عن رؤوس أجمل النساء وأجسامهن الرشيقة وقاماتهن النحيلة المياسة التى نرى رسومها على جدران السراديب والهياكل وهم منشغلون في عباداتهم الهادئة البريئة . وكذلك نذكر اشباح أولئك النسوة الجميلات التى تزيّن ظلام القبور في وادي النيل .

نعم ان مصر كانت تفيض باسمى مظاهر اللطف والبهجة منعكسة عن جمال نسائها ، اما فى ما بين النهرين فلا نرى شيئاً من ذلك ، لان الاشوريين قلّما اهتمّوا بتصوير المرأة . على ان ما تركه لنا مثّالو بابل من صورها لا ينمّ الا على دمامة وجهها ، وكذلك ثيابها الطويلة السميكة السمجة كانت تخفى تقاسيم جسدها .

كان ملك اشور يُعتبَر المصدر الذى ينبعث منه كل ما يختصّ بالمسائل الدينيّة او بالحياة الحربية او بالانظمة المدنيّة فى كل اشكالها وانواعها . فهو ظلّ الاله الاعظم « اشور » على الارض . يقوم بخدمة شعائره الدينية كحبر أحبار ، ويقود جيوشه ليخضع شعوب العالم لنير سلطانه .

وكان الاشوريون لا يميّزون بين الاههم وملكهم . فاحترامهم للملك كان اشبه بالعبادة . ولم يكن أحد من أفراد الشعب يجرؤ على توجيه الكلام اليه ، فلَمْ نرَ على الرسوم البارزة سوى الوزير الاكبر او رئيس الخصيان يتحدّث اليه .

أما فى بابل فقد كان الملك يخضع للكهنة المجوس أبناء قدماء الكلدانيين وحفظة كنوز العلوم التى انتقلت اليهم بالتوارث ، بنظام حكومة الخاصّة ، التى يقول عنها ديودورس انها لم تقبل بينهم غريباً عنهم . ولكن التوراة قد ذكرت ما ينفى ذلك ، وهو ان دانيال النبى كان من زمرتهم مع انه كان غريباً عنهم

وفى كتاب هذا النبى اليهودى وصف بليغ لسلطة اولئك الكهنة الذين كانت

أكبر مهام الأمور الدينية والمدنية تسند اليهم ، حتى أن الملك نفسه لم يعمل الا بأشارتهم حسبما كان يظهر من تفسيرهم الأحلام ، أو قراءتهم الغيب باستطلاع الكواكب .

على أن النعرة الحربية التي كانت من أبرز صفات أشور لم تلبث ان انتقلت أخيراً الى بابل ، حتى ان هذه المدينة المترفة ، المولعة بالعلم ، جارت فى أيام الامبراطورية الثانية عدوتها الشمالية فى قسوتها واطماعها ، وحملت أرميا النبي على ان يلقبها « بمطرقة العالم »

ولقد نمت وارتقت عندئذ بسرعة ، ولكنها لم تلبث أن سقطت على أثر ذلك الارتقاء والصعود بذات الاسباب التى رفعت نينوى وأسقطتها

وكان ولاة الممالك الشاسعة التى اسسها اشور بانيبال ونبوخذ نصّر ينزعون دائما الى الاستقلال والعصيان ، وكان نزوعهم هذا من أسباب الخطر الوجيهة على الملك ، ومن ثمّ اضطراره الى التسلّط المستمرّ عليهم بيدٍ من حديد .

ولقد روى لنا ديودورس شيئاً من هذا الأسلوب الأدارى الذى كان متبعاً فى هذا الحكم ، نذكره فى ما يلى ، لأننا لم نعثر على سواه :-

« كان الملك ، لاستتباب الأمن فى بلاده ، وأخضاع الشعوب لسلطانه ، يؤلف كل سنة جيوشاً يختار قوّادها من كل عاصمة من عواصمه ، تعسكر خارج كل مدينة . ثم يعين لكل اقليم حاكماً من المخلصين له . وهذه الجيوش تسرَّح كل سنة الى اوطانها ليقوم غيرها مقامها . وهكذا كانت الشعوب المختلفة مضطرة الى احترامه لأن الجيوش كانت تعسكر على مقربة منها مستعدة دائمًا لتأديبها

وكان هذا التجنيد السنوى المتجدد لا يسمح للقواد والجنود أن يتعارفوا لقصر المدة . فيأمن الملك كيدهم له وخروجهم عليه . ومن اولئك القوّاد تعين للبلاد ولاة يفصلون فى شؤونها المختلفة من دينية وادارية وقضائية وغير ذلك »

على أننا لا نعلم شيئًا عن نظام الجيوش الاشورية ، ولا نعلم إلا قليلاً عن خططهم الحربية ، ولكن النقوش توقفنا على شيء كثير من أسلحتهم وعَتادهم بحيث يمكننا أن نتصور علوّ كعبهم فيها بالنسبة لسواهم من معاصريهم

وكان سلاح دفاعهم يتناول الخوذة ، والدرع ، والترس ، والاحذية المتينة المرتفعة

اما سلاح هجومهم فكان القوس ، والسيف ، والرمح ، والمقلاع ، والمزراق ، والمَنْجَنيق ، والكَبْش ، وهذه كانت بالغة من الاتقان على قدر ما وصلت اليه يد الامكان فى ذلك الزمان .

وكانت الجنود تنقسم الى قسمين ، المشاة والفرسان ، علاوة على المركبات الحربية.
وكانت جيوشهم دائماً كثيرة جداً ، وهذه الكثرة فى العدد تعوِّض ما ينقصها من النظام . ويمكن أن تتصوَّر جيوش اشور و بابل بتلك الحُشود عديمة النظام التى كان الملك اكزركسيس يقذف بها الاغريق

ومهما اتَّسع مجال التصوُّر لا يمكننا أن نصدّق ديودورس فى وصفهِ لجيوش سميراميس الجرارة ، وعددها الهائل ، حين أرادت غزْو الهند : قال ، نقلاً عن ستيزياس : -

« كان جيشها يتألّف من ثلاثة ملايين من المشاة ، وخمسمائة الف فارس ، ومائة الف مركبة حربيَّة ، عدا مائة الف رجل ، كل منهم يركب جملاً ويحمل سيفاً لا يقل طوله عن اربعة اذرع . »

ولقد كان للآشوريين ، والبابليين على الخصوص ، مهارة فائقة فى فن الحِصار ، يستعينون عليه بالآلات حربية خاصَّة بذلك ، نراها منقوشة على آثارهم .

وكان مصدر عظمة هاتين الدولتين فى ارض الجزيرة قوة الجيوش ونشاط التجارة . واذا كانتا قد روَّعتا الشرق بمركبات الحرب والفرسان والجيوش الجرارة أجيالاً عديدة ، فأن حركة تجارتهما التى عَمَّته كانت سبباً من اسباب ثرائه وعظمته .

ولقد ذكرنا كيف كان منشأ هذه التجارة . وقلنا فى كلامنا على الموقع الجغرافى للامبراطورية « الكلدانية الأشورية » ان سببها ينحصر فى كلمة واحدة هى ، الطريق .

وفى الواقع ان أرض الجزيرة كانت وقتئذٍ اكبر طريق للعالم المعروف . طريق تتخلله محطّات ومستودعات ، وينتهى عند طرفيه الى رأسين من بنادر التجارة البحرية القديمة ، هما بابل وصور .

وكانت اسواق « صُوْر » بسبب مِلاحتها ، تجمع كل حاصلات البحر المتوسط من الاقمشة ، الى الانسجة المصرية المزركشة ، الى حديد قبرُس ، علاوة على الآنية النحاسية الجميلة ، والخيول ، والجوارى الأغريقية ، والفضة الأسبانيَّة وكان ملاحوها ينحدرون حتى جزر الكاسّيتيريد (Cassiterides) على مَقْربة من شواطىء بريطانيا العظمى لجلب القصدير .

وكانت صور مع ذلك تضم الى هـذه الواردات النفيسة ما تخرجه مَصانعها ، ومصانع جاراتها من التحف ،وما كانت تعرضه فى تلك الأسواق مما يخرج من حاصلاتها وحاصلاتهن الزراعية ، كالاقمشـة الارجوانيَّة ، وخشب الأرز اللبنانى ، وأصـواف دمشق الملوَّنة ، والحنطة ، والعطـور ، والعسـل ، والزيوت ، والراتينج الاسرائيـلى ، وخراف وكباش ومعَز قبائل العرب الرحَّل .

اما سُفن بابل فقـد كانت تقصد الخليج الفارسى او الاقيانوس الهـندى عند جزيرة أوفير الغربية لجلب اللؤلؤ، او تجلب الذهب والعاج وخشب الآبنوس من بلاد الحبشة ، والعُطور ، والشُّفوف ، والشيلان الثمينة ، والاحجار الكريمة من الهند .

وكانت هاتان المدينتان العظيمتان تتبادلان هـذه التُّحَف ، وتتجران بها مع القوافل التى كانت تزدحم بها طُرق بلاد ما بين النهرين . وهكذا كانت آسيا العُليا تغصّ بالمستودعات العديدة التى كان يقصدها طلاب الرفاهَة والتنعم ليأخذوا حاجاتهم منها تاركين بدلها اكداساً من الذهب .

على انه لم يكفِ بابل ونينوى ان تكونا مع صُوْر سماسرة تجارة العالم ، بل كانتا تخرجان من مصانعهما الطَّنافس النفيسة والمنسوجات المطرّزة ، وسروج الخيْل الفاخرة والأثاثات الثمينة . وقد سهَّل نهرا دجلة والفرات ، والقَنـوات المتفرعة منهما ، نقل البضائع على « السُّفن » التى تَمْخر هـذه المسالك المائية مخترقة سهول وحقول ارض الجزيرة ، كما نشاهد مثل ذلك فى هولاندا الآن . وربما كانت لفظة « اطواف أو عربات » اصلح من لفظة « سُفن » التى استعملناها لما كان يُصنع من المراكب فى بابل وآشور لتجرى فى مياه الانهر ، وظلّت زمناً طويلاً عبارة عن الواح خشبية مشدودة بعضها الى بعض بجلود منفوخة . ولـكن هذه المراكب تحوّلت فيما بعد الى

ما يُشبه سفُن الفينيقيين ، واستخدِمت لنقل المثقَّلات كالخيول والمركبات والاحجار الكبيرة ، كما ظهر لنا من الرسوم ، ومما ذكره ديودورس ، اذ قال : -

« إن سميراميس قد اقتطعت من جبال أرمينية قطعة من الحجر طولها مائة وثلاثون قدماً وسُمْكها خمس وعشرون ، جرّتها البغال والثيران على شاطىء الفرات. ثم شُحنَت على طوف كبير وانحدرت مع التيّار الى بابل ، وهنالك نصبتها فى أشهر مكان مطروق . وهذا الأثر الذى كان موضع اعجاب السياح ، والذى اطلق عليه بعضهم اسم « المسلة » نظراً لشكلهِ ، يُعَدّ من عجائب الدنيا السبع »

وذكر هذا المؤرخ قبيل ذلك انه كان على شواطىء النهرين مستودعات لما كان يرد من البضائع من مادى والبلدان المجاورة لها .

وقد وصف هيرودوتس ذلك الطريق الطويل الذي يصل العالم الغربي بالشرقي ، من شواطئ البحر الأبيض المتوسط الى الخليج الفارسي .

نعم انه كان لهذا الطريق مسالك كثيرة ، ولكن لا يزيد أهمها عن ثلاثة أو أربعة . وقد أشرنا سابقًا الى أحدها وهو المسلك الحربي بين مصر ونينوى ماراً بمجدّو وكاركيميش . والآن نذكر ما أشار اليه هيرودوتس واصِلاً بين ساردس وصوص ، لاننا لا نغالي اذا قلنا ان وادي الفرات ودجلة كان أكبر طرق العالم القديم ، وانه كان أول سبب من أسباب نشأة نينوى وبابل وحضارتهما ، قال :

« وعلى طول هذا الطريق مساكن ملكية (ستاذم stathmes) وفنادق عامرة جميلة . وهذا المسلك المأمون يخترق بلاداً آهلة بالسكان . وهكذا يبدأ السفر من ساردِيس من ولايات ليديا في فريجيا (Phrygie) حيث نرى نحو عشرين قصراً . ومتى برح المسافر فريجيا عرَّج على « هاليس » حيث يقف عند أبوابها التى لا يمكنه عبور النهر بسلام بدون المرور منها . على ان هنالك حِصْناً عظيماً قائماً لحراسة هذا الممرّ . وبعد ذلك يخترق كاپادوس الى حدود سيليسيا مسافة ثمانية وعشرين يوماً . ولكن المسافر مضطرّ عند هذه الحدود أن يجتاز مضيقين ،

وأن يمرّ من حصنين ، ثم يسير بعـد ذلك مسافة ثلاثة أيام في سيليسـيا (Cilicie) التي يفصلها عن أرمينية نهر الفرات ، فيعبره بالمراكب .

أما أرمينية فان فيها خمسة عشر فندقاً (Stathmes) عامرة بالجنود ، ويستغرق اجتيازها خمسة عشر يوماً . ويروي هذه البلاد أربعة أنهر تصلح للملاحة ، ولا بدّ من عبورها . وأول هذه الانهر دجلة ، وبهذا الاسم يُعرف ثانيهما وثالثهما وان كانا يختلفان عنه ولا يخرجان من البلد الذي يخرج منه ، لان احدهما يخرج من أرمينية والآخر ينبع من أرض المتّيانيين (Matianien) . أما النهر الرابع واسمه « جِنْـد » (Gynde) فقد قسمه سيروس (Cyrus) الى ثلثمائة وستون قناة . ومن أرمينية يدخل المتّيان (Matiane) ويقطعها في نحو أربعة أيام . ثم يجتاز المسافر بعد ذلك « سِيسي » (Cissie) في أحد عشر يوماً حتى يبلغ نهر شوازب (Choaspe) الذي تقوم على ضفته مدينة سوز (Suse) . فمن ساردس الى سوز يستغرق السّفر مائة وأحد عشر يوماً ، ويمرّ المسافر بمائة وأحد عشر فندقاً (خاناً) . »

واذا كان موقع بابل وأشـور الجغرافي قد ساعد على نجاح التجارة فيهما ، فان طبيعة أرضهما أجبرت سكانهما على توجيه العناية نحو الزراعة . وبما ان هـذه السهول الرمليـة لم يكن يرتجى منها خير إلا بمداومة الاهتمام بريّها على نظام واسع ، فقد كانت في وقت ما تخـترقها التُرَع والقنـوات من كل الجهات . وفي الجزء المنخفض من بلاد الجزيرة كانت القنوات في مسـتوى سطح الارض ، أما في اشور حيث كانت الانهر اكثر انخفاضاً من الاراضي فقد مسّت الحاجة الى استعمال وسائل متنوعة لرفع مياه الرّي .وكان المحراث البُدائي هو المستعمل في الفلاحة ، لان طبيعة الارض وقتئذ لم تكن تتطلّب ماهو أفضل منه .

أما محصولاتهما (أشور و بابل) فواحدة تقريباً ، أكثرها الحبوب كالحنطة والذرة والجاودار ، ولكن اشـور كانت تمتاز على بابل بجودة خمرها ، كما ان بابل كانت تمتاز بالبلح (التّمْر) ، وربما كان غرْس النخيل أهمّ أعمال أهل بابل . وقد روى هيرودوتس انهم كانوا يربطون شماريخ الفُحّال (الذكر) الى شماريخ الانثى ليتحققوا من التلقيح . أما النقوش التي وُجـدت في بابل وأشور فانها خالية من الاشارة الى الزراعة

والتجارة مع انهما كانا أعظم أشغال أهل البلاد . و يظهر ان الفنّ (الرسم والنقش) في هاتين العاصمتين الشامختين أهمل عامّة الشعب فلم يَهتمّ بالزرّاع والصنّاع والتجار وانصرف الى الاهتمام بتخليد ذكر الآلهة والملوك والمحاربين . ولكن الآثار الخطيّة التي وُجدت في مكتبة « أشور بانيپال » الخاصّة بالحقول والمزارع ، وعقود البيوع والرهون العقارية ، أيّدت رواية أولئك المؤرخين اليهود والاغريق الذين تغنّوا بمهارة سكان أرض الجزيرة (العراق القديم) في الشؤون الزراعيّة والمالية . ويجب ألاّ يغيب عن البال ان أغلبية سكان هذه البلاد كانت من العنصر الساميّ الذي اشتهر بدهائه وسعة حيلته ومن أمثلة ذلك قصّة يعقوب (صِفرة أولاد اسحق) الذي انتهز فرصة جوع أخيه البكر عيسو ، فاشترى منه بكوريّته بأكلة عدس [1] . فيالها من صفقة تجارية رابحة تُبرهن على ما لهؤلاء الناس من المهارة في انتزاع النُهز . نعم ان حُبّ الكسب والتجارة غريزيّ في نفوس الساميين مُنذ القِدم ، ولكنه حُبّ يقتضي الكثير من الحرص والصّبر والجَلد ومواصلة العمل . فالسامي إما أن يكون تاجراً أم مُرابياً . ولوحات الآجرّ التي وُجدت في قُويونجك (Koyoundjik) تؤيد ذلك . ويظهر منها ان سعر فائدة القروض كان باهظاً حتى بلغ ٢٥ ٪ . وكان توقيع الكثيرين من الشهود على العقود والحجج والالتزامات باختامهم أو بأظافرهم ، كما جرت به العادة عندهم ، يدل على ان ذلك كان يجرى علانية وبطريقة مألوفة . فمن ذلك مثلاً صورة العقد الآتي : -

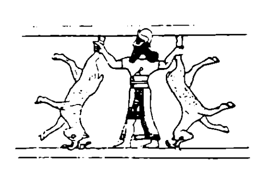
« عقد بيع منزل بأخشابه وأعمدته ومُهمّاته كائن في مدينة نينَوى . يحدُّه منزل « مانوكى آهى » ، ومنزل « أنكيا » ، وميدان الأسواق . وقد اشتراه المدعو « سيل عاشور » المصريّ الجنس من « أخصّورو » ومن المرأة « أمات سولا » « زوجة بعلها ، بمنجم فضّة في سارلادوري » الخ ، وقد وقّع على هذه الحجّة سبعة « من الشهود ، علاوة على تواقيع المشتري والبائعين . »

---

١ — راجع سِفْر تكوين الاصحاح الخامس والعشرين والاعداد ٢٨ الى ٣٢

ومن النُّظم السياسية والاجتماعية للشعوب الكلدوأشورية ، وغير ذلك من الأدلة التى لدينا ، نعلم أن سكان كلدة الأصليين قد اندمجوا وتلاشوا في الساميين . وهذا ما يحدث دائماً في مثل هذا الامتزاج بين الشعوب ، وهو أن نفوذ الجنس الأكثر ذكاء وثقافة يثبت رغم اندماجه في الأكثرية الهمجية ، ولذا نجد أن أشور قد احترمت مدنيَّة وعلوم قدماء الكلدانيين ، واستوعبت كل ما وسعها استيعابه منهما . ولكن طابع الساميين الخاص كان السائد في كل ما يتعلق بالشئون الاجتماعية والسياسية ، وهذا الطابع الخاص هو الغريزة والنعرة الدينية والحربيَّة ، وكذلك الخشونة والجفوة والشغف بالربح وبالتجارة ، مع التجرُّد من الذوق الفنّي .

٢ — الأخلاق والعادات



إن ما نعلمه عن حياة البابليين والآشوريين الخاصَّة أقل مما علمناه عن حياة المصريين ، لأن النقوش الملوَّنة على مصاطب الأخيرين ، ودهاليز مدافنهم ، لا مثيل لها عند الأولين

ثم أن المقابر الأسيوية لم تحتفظ بشيء من الأسرار العجيبة التي وجدناها في وادي النيل ، ولكنها مع ذلك هدتنا إلى شيء كثير .

ولقد وصفنا فيما مضى هذه الاوعية الفخَّارية الضخمة التى كانوا يستعملونها كتوابيت الموتى عند ضفاف الفرات . فهذه إما انها كانت أغطية تبلغ نحو سبع أقدام طولا وثلاث أقدام عرضاً وقدمين ارتفاعاً ، مغطاة أرضيتها بطبقة من الغاب يُسطحون عليها الموتى ، وإما انها كانت عبارة عن وعاء من قطعتين يضعون فيه الجثة بعد أن يثنون ساقيها عند الرُّكَب .

وهناك شِبْه أقبية خاصَّة بالأسر ، مبنيّة من الآجُرّ ، وقد وجد فى بعضها أحد عشر هيكلاً عظمياً

وهذه المقابر المختلفة وجدت دائمًا مطمورة في الأرض في رواب وتلال . وأرض كلدة غاصَّة بمثل هذه المرتفعات . حتى أنها لكثرتها تجعل الانسان يظن انها أرض مقدسة اتخذها الأشوريون لنومهم الأبديّ .

وقد وجدوا كل واحد من هذه الهياكل العظمية ممسكا بيده اليسرى وعاء من النحاس ، وبقربه اطباق من الآجر أو المعدن لا يزال فيها أثر الطعام ، كنوى البلح ، وشوك السمك ، وعظم الطيور ، لأن القدماء كانت معتقداتهم تدفعهم الى دفن هذه الأطعمة مع الموتى كزادٍ لسفر طويل نحو المجهول . وما عدا ذلك فقد سكتت عنه هذه القبور

على أن هذه النقوش التى اسهبت فى تفصيل ما يتعلق بالجيوش والحروب ووحشية التنكيل بالأسرى وما إلى ذلك لم تذكر لنا إلا شيئاً قليلاً عن تلك الحياة الاجتماعية

وبالرجوع الى النقوش البارزة أو الى روايات المؤرخين الأغريق نجد ما يروي غليلنا عن حياة أهل نينوى وبابل الخاصة .

ولكننا نقدر أن نستنتج من فخامة ملابسهم وعدّة خيولهم ودقة أسلحتهم ان كثيراً من الصنائع المختلفة كان زاهراً فى العاصمتين ، وأن وسائل الترف والزينة كانت منتشرة فيهما انتشاراً كبيراً .

وهاك وصف هيرودوتس لبعض ملابس البابليين : -

« كانوا قبل كل شيء يرتدون قمصاناً طويلة من الكتان تصل إلى أقدامهم وفوقها قمصان أخرى من الصوف ، وفوق ذلك عباءة من نسيج أبيض .

اما أحْذيتهم فقد كانت تقرب من أحذية سكان بيوتيا (Béotiens) . وكانوا لا يقصّون شُعورهم بل يتركونها مُسدَّلة ، ويضعون على رؤوسهم قلانسَ على شكل التيجان ، ويتدلَّكون بالطيوب .

ولكل منهم ختم ، وعصاً مصنوعة باليد ، فى رأسها شكل تُفَّاحَه أو ورْدَة أو زُنْبقة أو عُقاب ، أو أي صورة أخرى ، لأنه كان محظوراً عليهم حَمل عُصِيّ ليس لها زخرف رمزيّ »

وهذا الحظرْ الغريب المختص بحلية العُصِي لم تغب معرفة سببه عنا ، مع أن هيرودوتس لم يذكره ، وذلك لأنه كان موجهاً الى الأختام دون العصي ، إلا إذا كانت أيدي العُصِيّ صالحة لأن تقوم مقام الأختام عند اللزوم .

وقد رأينا كيف كان كل شخص يهتمّ لمثل هذه العلامات الشخصية التي كانت تقوم مقام التوقيع القانوني لبَصْم الآجرّ الطريّ ، حتى ان الاقدام على تقليدها كان بلا شك محرماً كما هو الحال عندنا بخصوص الاختام التجارية والعلامات الصناعيَّة المسجلة.

أما الثياب التي ذكرها المؤرخ الاغريقي فكانت ممَّا ترتديه الطبقة المتوسطة من الشعب ، لان ملابس الكهنة والملوك كانت أفخر وأثمن من تلك ، كما يظهر لنا من الرسوم التي وجدت على آثارهم . ففيها نرى ان ثياب الكهنة أو الملوك كانت أطوَل من ثياب افراد الشعب ، وكانت موشاة ومزركشة بالنقوش البديعة ، واطرافها محلاّة بالرِّساعات والهدَّاب . وهذا النوع الاخير من الزركش كان يُعتبَرَ في ما بين النهرين آخر أزياء الرشاقَة والاناقة ، وكانوا يحلّون به ملابس عُظَماء الدولة ، وعدَّة الخيل التي تَجرُّ مركبات الملك الحربيَّة .

وكانت طبقة العامَّة تسير حافية الاقدام ، عارية الرؤوس ، اكتفاء بشعورهم الكثَّة لوقاية هذه الرؤوس من تأثير حرارة الشمس . أمّا الكهنة وكبار رجال الدولة ، ولا سيّما رجال القصْر ، فكانوا يَعتَمرون بقلانس تختلف اشكالها باختلاف مراكزهم واعمالهم . أما الملوك فكانت تيجانهم تُشبه ما يلبسهُ الفُرس الآن (Tiara) . أمّا لبْس النِّعال فكان مقصوراً على الامراء والأثرياء ورجال الحرب . وهذه كانت على اشكال متنوِّعة ، منها الصَّنْدل أو الغِرْفَة ، والحذاء العالي الذي يصل الى مافوق الرُّكبَة .

ولقد كانت للاشوريين من جميع الطبقات أدقّ عناية بشعور رؤوسهم ولحاهم . فمن الملك الى البقَّار ، ومن الكاهن الى الفلاَّح ، تظهر رؤوسهم كأنها خارجة توًّا من دكَّان المُزيِّن ، ولم يكن يعوقهم عن الاهتمام بزينة شعورهم أي أمر مهما عظم شأنه . وكانوا أحياناً يربطون شعرهم الكثّ بشُرُط أو عَصائب زينيَّة ، أو يُمشّطونه ليرتد الى الخلْف وينزل على القفا في صفوف منتظمة من الخُصَل المجعَّدة . وكذلك كانت لحاهم طويلة مجعَّدة تجعيداً مُحكماً كأنه بمكواة شَعْر .

وكانت شعور ولحى الاشوريين والساميين تتشابه من حيث الكثافة والجعودة الطبيعية في الشعر المسترسِل .

أما المرأة في مابين النهرين فاننا لانعرف عنها في إبّان مجد بابل ونينوى الا النّزر اليسير، لاننا لم نجد في أي مكان وصفاً لجمالها وملابسها، وما كان عليه ذوقها، وكيف كانت تقضي وقتها . ولكن ذلك لا يمنعنا من الحكم بأنها كانت ، ككل بنات جنسها، كثيرة الاهتمام بكل مايزيد محاسنها، مستعينة بالاقمشة والحُليّ والعطور، وكل مايشفي غليل ولعها بالدلال والغنج . فالمرأة في نينوى القويّة، أو بابل الداعرة، لابدّ أنها لم تكن لتذعن لفتيات صهيون المتعجرفات اللواتي أتى ذكرهنّ في الاصحاح الثالث ، والعدد السادس عشر، من نبوّة أشعيا، حيث قال :

« وقال الربّ ، من أجل ان بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الاعناق
« وغامزات بعيونهنّ وخاطرات في مشيهنّ، ويخشخشن بأرجلهنّ ، يصلع السيّد
« هامة بنات صهيون، ويعرّي الربّ عورتهنّ، وينزع السيّد في ذلك اليوم زينة
« الخلاخيل والضفائر والاهلّة ، والحلق والاساور والبراقع، والعصائب والسلاسل
« والمناطق ، وحناجر الشمّامات والاحراز ، والخواتم، وخزائم الانف، والثياب
« المزخرفة، والعطف والاردية والاكياس . والمرائي والقمصان والعمائم والأزُر . »

على ان استعمال الحليّ والعطور لم يكن مقصوراً على النساء . فقد مرّ بنا ماذكره هيرودوتس، وهو ان أهل بابل جميعاً ، اناثاً وذكوراً، كانوا يتدلّكون بالطيوب، أما الاشوريون فقد رأينا من الرسوم المنقوشة انهم كانوا يتحلّون بالعقود والاساور والدمالج والاقراط ، فهم بلا شك قد أخذوا عن الساميين هذا الشغف بالتحلّي بهذه الحليّ الغالية .

وقد سبق لنا أن ذكرنا ان أهل نينوى كانوا أصلب عوداً وأكثر خشونة وجفوة من أهل بابل، حتى ان عظماءهم كانوا يزهدون في نعيم القصور فيهجرونها الى ساحات القتال، ومنها الى ميادين الصيد والقنص حيث ينازلون أشرس الحيوانات المفترسة وجهاً لوجه .

وربما كانوا يجرون على قاعدة وحدة الزواج . أما في بابل التي كانت، لانغماسها في الترف والملذات . أقلّ تعطّشاً الى الدماء وطموحاً الى المزيد من المجد، فخورة بتفوّقها العقليّ، شغوفة بكل ملاذّ النفس والجسد ، تطلب السؤدد عن طريق

هيبة العلم وسحر حياة الترف ، فإن تعدد الزوجات كان شائعاً خصوصاً لدى الملوك .

ولما وصف النبي دانيال وليمة بيلشاصّر[1] (ملك الكلدانيين) ذكر أكثر من مرة ان « الملك وعظماؤه وزوجاته وسراريه » حضرن تلك الوليمة . ومن ذلك نعلم انه كان للملك « زوجات وسراري » ، وان البابليين لم يكونوا يحجبون النساء . ثم ان المثالين والنحاتين البابليين كانوا أقل حذر من اخوانهم الاشوريين في الافصاح عما يمس المرأة ، على ان ما تركه لنا فنانوهم ، وان كان لا يكشف لنا شيئاً عن محاسن المرأة فذلك لأن مثاليهم كانت على مانظن تعوزهم المهارة الفنية ، أكثر مما كانت تنقصهم النماذج الجميلة .

على ان تعدد الزوجات عند ملوك بابل لم يمنعهم من اختيار واحدة منهن لتقدم لها فروض الاحترام والخضوع بصفتها «ملكة» ، حتى ان كرامتها كانت تحول دون اختلاطها بغيرها من الزوجات أو السراري . ويمكن الاستدلال على ذلك وغيره مما ذكره دانيال في وصف تلك الوليمة الداعرة التى كان النساء يكرعن فيها الخمر في أواني معبد اورشليم المقدسة ، على نغمات الموسيقى ، وصخب السكارى وصياح المهرجين الذي يصل الى اسماع «الملكة» . ثم يعقب ذلك صمت مزعج يشمل القصر وكل من فيه ، فتخرج الملكة من خدرها وهي ترتجف فزعاً وتنادي حاشيتها التى تخبرها ان رؤيا مفزعة قد ألقت الرعب في وسط الوليمة ، حتى ان بيلشاصّر نفسه بقي على كرسيه ممتقع اللون خائر القوى ، يكاد يغشى عليه من شدة الخوف . ويخيل اليها ان خطراً عظيماً يحدق بالملك ، فتتذكر إسم رجل ربما كان قادراً على دفع هذا الخطر ، فتدخل بيت الوليمة وتقول للملك : -[2]

« عش الى الابد . لا تفزعك افكارك ولا تتغير هيئتك . يوجد في مملكتك رجل فيه روح الآلهة القدوسين . . . . . والملك نبوخذ نصّر ابوك جعله كبير المجوس والسحرة والكلدانيين والمنجمين »

على اننا مدينون لهيرودوتس ببعض تفاصيل غريبة عن بعض عاداتهم المختصة

---

(١) دانيال الاصحاح الخامس من العدد الاول الى العدد الرابع

(٢) دانيال الاصحاح الخامس والعدد العاشر وما بعده

بالزواج ، والعهارة المقدَّسة . فهـذا الشكل من البغاء الذي كان شائعاً في كل انحاء الشرق ، ولا يزال باقياً في بعض جهاته ، هو آخر أثر من الاضطراب الفطري الذي فشا بين الجماعات المتمدِّنة . فهو من هـذه الوجهة ادعى الى الملاحظة ، لان بعض الشعوب اتخذ منـه سُلَّماً لاثبات الحقّ لـكل انسان في حيازة أيَّة إمرأة شاء ، وهو حَقّ توالت عليه القرون حتى انتهى بأن صار مقدَّساً محترماً . وفي هـذا الصدد يقول هيرودوتس : -

« وتلك كانت الشرائع المرعية عند البابليين ، وربما كان احكمها ، على ما أظن ،
« هو ما سأذكره ، وكان مألوفاً في جهات اخرى .

« كانت كل قرية تجمع فتياتها البالغات سنّ الحلم كل سنة في مكان مُعيَّن
« حيث يجتمع فيه حولهنَّ عدد كبير من الرجال الراغبين في الزواج . فيأتي « الدلاَّل »
« ويوقفهنَّ ، ثم ينادي لبيعهنَّ واحدة بعد الاخرى . مبتدئاً بأوفرهن جمالاً ، حتى اذا
« بلغ ثمنها القدْر المنتظر ، باعها . ثم عاد الى المناداة لبيع غيرها مُشترطاً على المشترين
« الزواج بهنَّ . وهكذا كان البالغون سن الرشد من أغنياء البابليين يتنافسون في
« شراء الاجمل من اولئك الفتيات .

« أمَّا الشبَّان من عامَّة الشعب ، فنظراً لفقرهم كانوا يقنعون بالزواج من قليلات
« الحظّ من الحُسْن ، لأن الدلاَّل كان عندما ينتهي من بيع الجميلات ، يبدأ بعرض
« الدميمات ، والمشوَّهات ، وذوات العاهات ، ومع كل منهنَّ قَدْر من المال يعوِّض
« ما ينقصها من جمال ، مشترطاً على من ترسو عليه الصفقة ان يتزوَّج بالفتاة زواجاً
« قانونياً ، ويستعين بما ستحمله اليه من مال على القيام بأود العائلة . وهكذا كان المال
« الذي يُدفَع ثمناً لوافرات الحظّ من الجمال ، ينفق في سبيل التعويض لقليـلات
« الحظ منه .

« ولم يكن للوالد الحق في اختيار الزوج لابنته . وكذلك كان على المشترى
« ان يقدِّم الضمان الكافي على إتمام عقد الزواج بمن يشتريها او يختارها .

« وفي حالة عدم الوفق بين الزوجين يفترقا على شرط ردّ المال (المهر اوالبائنة)
« ان امكن .

« وكان يُباح لرجال القرى او الضياع الاخرى ان يشتركوا في هــذه السوق « البشريّة .

« وهذه الشريعة التي سنّوها بكلّ حكمة لم يُكتب لها الدوام ، وذلك لانهم « فكروا في طريقة اخرى لاجتناب إساءة معاملة بناتهم ولمنع اخذهنّ الى غير بلادهن.

« فمن عهد سقوط بابل وإساءة اعداؤها الى ابنائها وضياع اموالهم ، قلّ من لم « يفرّط في عرض ابنته طلباً للمال عند الحاجة .

« وكانت للبابليين شريعة مخجلة تحتّم على كل امرأة بابليّة ان تذهب مرة في « حياتها الى معبد « ڤينوس » (الزهرة) وتقدم جسدها الى أجنبيّ . وكثيرات من « ذوات اليسار اللواتي يأنفن من الاختلاط بغيرهنّ ، كنّ يُحملن الى أمام المعبد « في مركبات مُقفلة ، وهناك يجلسنَ وخلفهن العدد الكبير من الخدَم الذين رافقوهن. « أما سواهنّ فكنّ يجلسنَ في الحظيرة المقدسة التابعة للمعبد ، وبعضهن يجئن ، « وغيرهن يذهبْنَ . وكنت ترى الرجال الاجانب يمشون في الحظيرة لكي يختاروا « من تروق في أعينهم منهنّ . ومتى جلست المرأة في هــذا المكان لا يجوز لها ان « تعود ما لم يلقِ اليها أجنبيّ نقــوداً في حجرها ، قائلاً لها « اني اوصي بكِ الالهة « ميليتا (Mylitta) وكان الاشوريون يطلقون هــذا الاسم على ڤينوس . ومهما يكن « المبلغ الذي يُلقى به اليهنّ قليلاً فليس لهن ان يرفضنه لانه يصبح مقدساً . ومتى أُلقي « الى امرأة منهن وجب عليها ان تتبع في الحال من القاهُ اليها . كما انه ليس للرجل « بعد ذلك أن يتحوّل عنها الى سواها .

« وبعد ان توفي المرأة نذرها للآلهة باختلاءها بأجنبي يُسمح لها بالعودة الى « مسكنها . وكانت الوافرات الحظ من الجمال اسعد حالاً من غيرهنّ ، لانهنّ لم « يكنّ في حاجة الى طول الانتظار ، نظراً لان الاقبال عليهن كان ميسوراً ، أما « القليلات الحظّ من الحُسْن فقد كُنّ مضطرّات الى الانتظار طويلاً حتى يوفين « نذورهنّ . وقد يطول مكثهنّ بالمعبد ثلاث او اربع سنوات . وهذه العادة كانت « مرعيّة في جزيرة قبرس ايضاً . »

ولما كانت الآثار لم تقدّم لنا شيئاً يصحّ الاعتماد عليه لمعرفة حياة سكّان ما بين

النهرين الخاصَّة ، فاننا لا نرى خيراً من ذكر ما رواه هيرودوتس عن مَرضاهم ، ودفن موتاهم ، والعائشون على اكل السمك منهم ، قال :

« ربما كان أفضل ما سَنّوه من الشرائع غير المختصّة بالزواج هي القوانين الخاصَّة
« بالمرضى . فقد كانوا ، نظراً لعدم وجود الاطباء ، ينقلون مرضاهم الى الميادين العامَّة ،
« وهناك يصف لهم من يراهم ما يحتمل ان يكون جرَّبه بنفسه او سمع عن فائدته من
« علاج او دواء لمثل داء المريض . وكذلك كان يتحتَّم على كلّ مَن مرَّ بمريض
« ان يسأله عما يشكو منه . أما الموتى فكانوا يحنّطونهم بالعسَل . وكانت شعائر الدفن
« لا تختلف كثيراً عندهم عمَّا كان متَّبعاً عند قدماء المصريين .

« وكلَّما ضاجع بابليٌّ إمرأته وجب عليه ان يحرق بخوراً ويجلس بقربه ،
« وكذلك تفعل المرأة . ثم يغتسلان عند بزوغ الفجر ، لانه لم يكن من الجائز لهما ان
« يمسَّا آنيةً ما لم يغتسلا ، والعرب أيضاً يراعون هذه العادة .

« تلك كانت الشرائع والعادات المرعيَّة عند البابليين .

« وكان ثلاث قبائل منهم لا تأكل إلا السمك . وكانوا بعد صيْده يجفّفونه في
« الشمس . ثم يسحنوه في المساحِن وينخلوه بالمناخِل ، ويصنعون منه فطائراً وخُبزاً . »

هذا كل ما امكننا ايراده استناداً على القليل الذي عثرنا عليه قديماً وحديثاً من آثار أشور وبابل ، ولذلك لم نتمكن من الافاضة في الكلام على هاتين المملكتين كما أفضنا في الكلام على حضارة قدماء المصريين . وعسى ان يكشف لنا المستقبل ما يساعدنا على زيادة الالمام بهذا التاريخ القديم .

ويحسن بناء قبل ان نغلق هذا الباب ان نذكر اننا لم نجد لسواد الشعب في آسيا حظا من الذكْر في التاريخ ، لان هَمَّ الكتّاب والفنّانين هناك كان منحصراً في الاشادة بذكر الاعمال المجيدة التي قام بها هؤلاء الذين حلَّت بهم لعنة أنبياء اليهود البليغة.



الباب السادس

المعتقدات الدينية



إن اكتشاف الخط المسماري (او الاسفيني) الذي مكّننا من قراءة النصوص البابلية والاشورية قد أحدث انقلاباً عظيماً في آرائنا الدينية ، لا يقلّ عن الانقلاب الذى طرأ على معلوماتنا التاريخيــة وغير التاريخية .

فقد كنّا الى أقرب عهد لهذا الاكتشاف العلمي العظيم نعدّ اليونان من حيث الوثنيّة ، واليهودية (...) من حيث المسيحية ، المهدان اللذان خرجت منهما أسدّ الآراء وأصوبها وأرهبها ، التي أشاعت في نفس الانسان أجمل المشاعر الدينية وفتحت أمامها ابواب السعادة والتقوى والسلوان

أما الآن فقد أصبح من المستحيل التمسّك بتلك النظريات العتيقة . فلا اليونان ولا اليهودية جاءت بجديد في عالم الاديان ، بل ان الذي فعله كلٌ منهما بدوره هو تهذيب ما آل اليه من السّلف ، تبعاً لسنّة التطوّر الابدية ، التي تنطبق على الآلهة والارباب ، إسوة بانطباقها على البشر وسائر الخلائق على حدّ سوى . نعم انهما ادخلتا الكثير من التحسين والتغيير والتزويق والتنميق ولكنهما لم يحيدا عن السُّبُل التي طرقها من سبقهما من الشعوب نحو « الابديّة » .

وحسبنا ان نلقي بنظرنا على اهرام مصر ، او نطالع أناشيد هوميرس الاغريقي لنحكم باستحالة قيام مثل تلك الاثار العجيبة عَفواً على أيدي أناس متوحشون ما زالو يعيشون على الفطرة لقرب عهدهم ببدء خلق الانسان . وكذلك عندما نشاهد عظمة « يَهْوَه » (الله عند العبرانيين) ، او جَمال الاولمپيا عند الاغريق ندرك ان فكرة الالوهيّة لم تنبثق طفرةً في قلب البشر .

على ان العلم الحديث الذي اعاننا على الارتداد في سُلَّم الكائنات بالحيوان اللبون الى الحيوان المتعدد الارجُل (كالحبَّار او فرْج البحر) ؛ وبالانسان المتمدِّن الى متوحِّش العصْر الحجري ، قد كشف لنا القناع الآن عن سِرّ تكوين المعبودات . فبِهِ عرفنا انهم وُلدوا على صورة مُبْهمَة عديمة الشَّكل ، مُفْزِعَة ، في مستنقعات كلدة السُّفلى ، ثم رأيناهم فيما بعد وقد أُلبِسوا حُلَّة من الحُسْن ، والصلاح ، وحُبّ الخير ، والقُدرة على جَلْب النفعْ ودفع الشرّ . فارتفعت نحوهم أذرع أجيال عديدة من البشر ، يَحْدوهم الايمان والثقة والاعجاب والحب .

فكل الاساطير المختصة بآلهة الاغريق ، وكذلك قصَّة الخليقة الواردة في سِفْر التكوين من توراة العبرانيين ، تجد مثلهما في معتقدات كلدة وأشور الدينية .

والاصل الاساطيري الذي وضعته عقول نوابغ هذا الشعب القديم ، الذكيّ ، السريع التصديق، كان وافراً وخصباً ومتنوعاً حتى وفى بكل الرغائب المختصة بالابديَّة وبما وراء الطبيعة ، التي سببت الويلات لبلاد الغرب لاكثر من ثلاثين قرناً . وها نحن نرى شعوبنا المتمدِّنة تعيش روحياً الآن على المعتقدات الكلدانيَّة والديانات التى انجبتها .

وقد ولع أهل القرون الوسطى بالشعْوذة والتنجيم والسحر وهذه كلها وُلدت وترعرعت من اقدم الأزمنة على ضفاف نهر الفرات . حتى اننا ما زلنا الى اليوم نستعمل بغير انتباه ، بعض التعابير والالفاظ التي كانت مألوفة الاستعمال لدى مجوس بابل ، كقولنا « سيِّىء الطالع » او « نجمهُ في صعود » او « في ساعة نحس » الخ .

وبتأملنا في شعائر الاغريق الدينية برموزها ، واستعاراتها ، وفنونها الممتزجة بحياة روما واثينا الوثنية ، نرى اننا نعيد الى الحياة في صورة « المشتري » (Jupiter) و « الزُهرة » (Venus) و « عطارد » (Mercure) و « الآه الحبّ » (Cupidon) ديانات آسيا القديمة مزخرفة بما أدخلته عليها عبقريّة الذوق الاغريقي .

وفي واقع الامر نجد ان الجنس الآريّ لم يخلق ديناً ، ولكنه لِماَ فُطِر عليه من دقَّة الشعور وسُموّ الخيال عرف كيف يزيِّن الآلهة بجمال عُلوي ، ولكنه لم يعرف كيف يفهمها . اما الجنس الذي انتزعها من احضان الطبيعة ، وفوضى العناصر ، وأعماق

السموات ، فانه الجنس الساميّ الذي تدين له الانسانية بكل رموزها الدينيَّة من أبسطها الى اعقدها واعمّها .

ثم ان اليهود الساميين هم الذين حللوا وحقّقوا أحلام وأوهام كلدة القديمة المشوّشة ، وخلقوا منها الارباب الذين سطع نورهم فيما بعد من فوق قمّة الاوليمپيا اليونانيَّة .

وكذلك اليهود الساميون هم أول من جهر باسم « يهوه » الرهيب من قمَّة طورسينا ، وهم الذين جعلوا فيما بعد شفق المسيحية يضيء العالم .

وكذلك العرب الساميون هم أوّل من علَّم بالتوحيد المُطلق ، فقهروا ممالك العالم باسم « الله » وفتحوها فتحاً روحيًّا استمرَّ في التوسُّع والانتشار بعد توقف الانتصارات الماديَّة التي لم يبقَ من نتائجها الا القليل .

والساميّون هم الذين أخضعوا أهل الغرب الى أوهامهم . ومن يَعلم مَدى تأثيرهم في الشرق ؟ فالهند مجاورة لما بين النهرين ؛ وبوذا (معبود الهنود) يُشبه كل الشبه يسوع المسيح (معبود النّصارى) . ثم ان شُهرة حكماء الكلدانيين التي اجتذبت الى بابل فلاسفة الاغريق الذين كانوا يعتزّون بمجدهم الادبي ، لم يصعب عليها أن تجتذب كذلك الحُجّاج المتعطشون الى معرفة الحق من ضفاف نهر (الجانج Gange) المقدّس (في الهند) .

وكذلك قد تمكننا الآن من سبْر غور لغة الكلدانيين وآدابهم ودينهم . وعلمنا عن يقين ان هذا الدين كان مصدر كل ديانات أهل آسيا القديمة ، من يهود ، وسوريين وفينيقيين وغيرهم ، حتى ميثُلوغيا (أساطير دينية) الاغريق ، كما أوضحنا منذ قليل .

ويمكننا أن نجزم الآن انه لم يكن لكلدة القديمة ، كما لكل الممالك البابلية والآشورية ، سوى دِيْن واحِد . لان عبادة « قوى الطبيعة » مضافاً اليها « تكريم الموتى » كان على شواطئ الخليج الفارسي وكل انحاء المعمورة ، أول عبادة جرى عليها الناس ، ثم حوّلها دهاء الساميين شيئاً فشيئاً الى آلهة روحانية بَدت لنا في آثارهم وكتاباتهم المسماريّة .

وهـذه الآلهة صارت فيما بعد آلهة الاغريق ، ولـكنها صُقلت فوق ذروة جبل الاولمب اليوناني ، وتألَّقت بعـد ان انفصلت عن العناصر التي نشأت منها ، الى ان تجلّت شـخصيـاتها واتَّضحَ حُسنها وإحسانها . ثم أخذت مجموعاتهم المألوفة تنتظم وتنسق ، وظهرت العلاقات التي تربطهم ببعضهم ، والدور الذي على كل منهم أن يمثله على هذه الارض .

ثم ان الـكُـتَّاب والشعراء والفنّانين قد أفاضوا في وصفهم والاعجاب بهذه العبقريَّة الاغريقيَّة البارعة التي نشرت في العالم معنى الالوهيَّة ، فأبْكَت الحوريَّات عند شواطئ الينابيع والبحيرات ، وأضحَكت الفوْن (الاه الحقول والرعاة) بين أشجار الغابات ، وأركبت أبولّو (الاه الشمس والموسيقى) على مركبة الغزالة . ولله درُّ الشاعر الفرنسي « ميسّيه (Musset) » اذ قال ما معناه : -

« أتأسف على زمن كانت السماء تخطر وتتنفَّس على الأرض بين أناس تعبد الله ، « وحيثما كانت « ڤينوس - عشتروت » ابنة اللجَّة المريرة ، تنكف مدامع أمها ، وكانت لا تزال عذراء ، فتخصِّب العالم وهي تجدل شعرها . »

ولـكن الزمن الذي يأسف عليه هـذا الشاعر كان عريقًا في القِدَم . لانه عندما بدت ڤينوس (الزُّهَرة) ، وكانت بَعْدُ عذراء ، فوق أمواج بحر « إيجه » (Egée) الزرقاء لم يكن ذلك أول ظهورها على الارض ، بل كان عودة الى الظهـور . فبكارتها الطاهرة كانت إدِّعاء ، وإسمها لم يكن جـديداً . فما كانتْ « أستَرته » (Astarté) أو عَشْتَرَوت سوى إيْستار (Istar) الكلدانية ، بهجة البَشَر والآلهة ، التي اسكرت آسيا منذ قرون خلَت بفجورها .

وكذلك إبنها كيوپيد (Cupidon) الصغير ، الذي انصرف الى اللعب واللهو بقلوب الناس ، وعيناه معصوبتان . ولـكن صورته على الاواني الاغريقية القديمة تريناً إيّاه مراهقًا على صدر هذه الالاهة نشوان بسكرة الفسْق بالمحارم . فهذا إبنها كان يغمرها قبلاً ، تحت سماء اشور ، بحُبِّ الابن وعشق الزوج الولهان . وكان اسمُه وقتئذٍ « تمُّوز » ، وكانت أُمُّه « إستَار » تذوب فيه وَجْداً حتى هانَ عليهـا أن تفتح أبواب الجحيم لتنقذه من عـذاب النار والموت ، مُزدريَةً بغضب أختها « اللاتِ » (Allat) ؛ وهي

بروسربين Proserpine الاسيويَّة ، ملكة المناطق السفلى ، في غزوة شهيرة ذكرنا أسطورتها فيما سبق .

ثم ان چوپيتَر ، إلاه الصواعق ، والرب الرهيب ، الذي كان تقطيب حاجبيه يُزلزل الاولمپ (Olympe) ساد سلطانه قبلاً باسم « أشور » (Assur) أو باسم « بل » (Bel) وكان أيضاً ممسكاً بزمام الصواعق في تلك الأزمان ، وكان شعارهُ النسر (Aigle) ولم يخفَ ذلك على الاغريق . فقد وصف هيرودوتس هيكل هذا الالاه كما رآه في بابل،وقد سمَّاه تارة «چوپتَر» وتارة «چوپتربيلوس»(Jupiter-Bélus)

وهذه المشابهات كثيرة جداً حتى انه لا يمكن الا ذكر أهمها في هذه العُجالة .

لان « أوانس » (Oannès) الالاه السمكيّ الذي انبثق من أمواج الخليج الفارسي ، كما اعتقد الكلدانيون ، لكي يحمل اليهم أول عناصر الحضارة ، يُطابق « نپتون » . و « أنا » (Ana) زوج « اللاتِ » (Allat) وملك الجحيم هو « پلوتون » (Pluton) و « ڤول » (Vul) إلاه الجوّ ، هو جَدّ « ساتورن » (Saturne) . و« هيا» (Hea) أو« سَلْمان » (Salman) المخلِّص ، هو المثال الذي احتذاه الاغريق لهِرْقلهم الجبَّار .

والمِثْلوغيا (الاساطير) الاشورية كاليونانيَّة تقول بوجود اثنى عشر الاهًا عظيماً ، وهذه المجموعة الالاهيَّة تنقسم الى مجموعات ثلاثيَّة ، احدها ينطبق تمام الانطباق على « الثالوث الاخوي » المكوَّن من چوپتَر – ربّ الارباب ، ونپتون – ربُّ البحر ، و پلاطون رب الجحيم أبناء سَتُرْن ، Saturn الاه الزراعة)

وهكذا يكون الأسلوب الذي جرى عليه الأغريق ، وتبعناهم فيه في تسمية الكواكب السيارة ، والنجوم ، و بروج السماء وصورتها ، بأسماء الآلهة وانصاف الآلهة ، وكائنات خرافيَّة ، موروثاً عن الكلدانيين . وقد رأينا أن التنجيم كان عِلماً له شأنه على ضفاف الفرات حتى اختلط بالدين .

فأسماء الكواكب والسيَّارات اورانوس ، وزُحَل ، والمشْتَري والزُّهَرة ، والمِرّيخ ، وعُطارِد ، وهرقل (الجاثي) ، والثريَّا ، وغيرها التي نراها الآن في سماء غَرْبنا المسيحيّ ، قد تردَّد ذكرها في أفواه الكلدانيين كما هي تماماً ، أو مع اختلاف في اللفظ لا يكاد يُذكر ، من خمسين أو ستين قرناً ، ولكنهم كانوا يرمزون بها الى

معبودات حقيقية ، لأن عبادة الكواكب كانت أول ما خطر ببال البشر تحت سماء كلدة الصافية .

هذا من حيث نصيب الأغريق من ديانات ما بين النهرين القديمة ، ذكرناه بايجاز على قدر الامكان . والآن نتكلم عمّا اقتبسته عنهم اليهوديّة ثم المسيحية

ان كل ما جاء في التوراة عن فوضى عناصر الكون الاولى ، « وان الأرض كانت خربةً وخاليةً ، وعلى وجه الغمر ظلمةٌ ، وروح الله يرفُّ على وجه المياه ، « وعن الفصل بين المياه التي تحت الجلَد والمياه التي فوق الجلَد » الى آخر ما ورد في الاصحاح الأول من سِفْر التكوين وما بعده ، عن خلق الكون ، والتسليم بوجود الحيوانات قبل الانسان ، وقصَّة الطوفان وفُلك نوح ، وبُرج بابل ، [1] وبلبلة الألسن ، كل هذا نجد ما يشبهه تمام الشبه في أقدم النصوص المسمارية . وكذلك الاسم « الوهيم » (Elohim) الذي أطلقه اليهود على معبودهم ، واسم « الله » الذي يستعمله المسلمون كلاهما « بابليان » بالمقطع الأول الذي يبدآن به وهو « إلْ » او « ألْ » ومعناه بالكلدانية « الكائن الأسمى » .

ويمكننا القول على وجه التعميم أن دياناتنا الغربيّة الكبرى أُشتقَّت من الديانات الفلكية والطبيعية التي كانت شائعة في الشرق القديم بعد أن قرَّبها الدهاء السامي الى الافهام وصيرَّها عمليَّة ، ثم زخرفها الخيال الآري وجعلها روحيَّة .

والآن اذا رجعنا الى أصل عبادات الأشوريين والبابليين فهل نجد لها هذا الأساس الذي تقوم عليه كل الديانات الطبيعية ، كالذي رأيناه في مصر ؛ وهو عبادة الشمس ، وعبادة الأموات ؟

فمن المسلَّم به أن « كوكب النهار » كان من أعظم معبودات كلدة ، وكانت له هياكل في كل مكان ، حتى أنهم كرَّسوا له مدينة بأسرها هي « سِپَّارا » (Sippara) ، حيث كانوا يشعلون في معابدها ناراً لا تنطفىء تكريمًا للشَّمْسِ .

أما الاموات ، وإن لم يكن لهم في ما بين النهرين الشأن العظيم الذي كان

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الحادي عشر

لأموات وادى النيل ، فانه كان لهم ذات النفوذ في سلوك الاحياء . لأن الكلدانيين والاشوريين كانوا يؤمنون بخلود الروح ، وإن كانت آراؤهم من جهة هذا الخلود غير واضحة ومُحكَمَة كما كانت في مِصر . فالروح فى إعتقادهم كانت تظل بعد دفن الجسد حائمة هائمة على وجه غامض ، واذا أخـذنا بوصف نزول « إستار » (Istar) الى الجحيم ، رأيناها حزينة .

كانت الارواح تعيش فى ظلام الابديَّة وغذاؤها التراب وهي تبكي على اختفاء نور النهار ، أمامصير الصالحين والطالحين فكان مشوّشاً ، لان فكرة الثواب والعقاب لم تتدخل مع فكرة الدفن . فما كان اشدّ الآلام التى تصيب ارواح الاموات ، من البقاء بلا دفن ، هائمة كالظل الحائر المضطرب بين السماء والارض . ولـكن انتقامهم كان يلحق ذوي قرباهم الذين نسوهم . وهكذا كانت تستحيل الروح الغاضبة الى شيطان مؤذٍ يُمطر المصائب على رؤوس المقَصِّرين . أمّا الميت الذي يُعتَنَى بتحنيطه ودفنه ، وتزويده بما كان يحبُّه فى حياته ، وبالاطعمة التى تلزمه فى حياة الظلام التي قُدِّرت له ، فان روحه لا تعـود الى الارض إلا لتُحسن الى الذين حقَّقوا لها الراحة الابدية .

والمقابر التى اكتُشفت فى كلدة السُّفلي كثيرة العـدد ، بينما نجـد ان المنقبين لم يعثروا على قبر واحد فى كل أشور ، على رغم المكافأة العظيمة التى وعد بها « لايار » لمن يعثر على واحد منها .

وربما كان سبب ذلك ان كلدة كانت في نظرهم أرضاً مقدَّسة يُدفن فيها كل أموات مابين النهرين ، بما فيهم أموات الشمال . وكانت الأسرة التى تمكّنها ظروفها المـالية من بناء مقبرة لأمواتها ، تفضـل أن تبنيها على ضفاف نهر الفرات الادنى حتى يسهل نقل الموتى اليها بطريق النهر . أما الفقراء ، والصُّنَّاع والعمال ، فانهم كانوا يرقدون رقدتهم الاخيرة تحت طبقة رقيقة من التراب ، على مقربة من بلدتهم التى ولدوا وعاشوا فيها ، ويعمل الزمن عمـله بأجسادهم ، فيحوّلها الى تراب يختلط برمال الصـحراء ، فلا يبقى لهم أي أثر

وهذه الطريقة التى اتُّبعت حينئذ في نقل الأموات لدفنهم في الأرض المهيئة لهم

لا تزال متبعة الى الآن ، في هذا الجزء من أسيا . فالشيعة من الفرس يكابدون عناء كثيراً في نقل رفات موتاهم من مدينة كربلا لدفنها قريباً من قبر عليّ (عليه السلام) وكذلك كثر « المقاولون » لهذا النقل وقد احتكروه احتكارًا .

ولكن الآشوريين والبابليين لم يتقنوا التحنيط كما أتقنه المصريون ، ومع ذلك فقد كانوا يعلقون أهمية كبرى على حفظ أجسادهم ،فيغطونها بأشرطةمدهونة بالقطران ثم يقيمون على سفوح التلال التى تخفي القبور نظاماً بديعاً يحول دون تسرّب الرطوبة في داخلها .

وهذه الأحتياطات كلها لم تحل دون الانحلال وان افادت فى حفظ العظام التى وُجد منها شيء كثير في مدافن واركا (Warka) . وهذه البقايا البشرية الثاوية فى الظلام من شتى القرون كانت اذا لَمستها يد تتفتت و تصبح تراباً .

ولم تكن أرواح الموتى فى بابل ونينوى هي التي تقوم وحدها مقام ملائكة الرحمة والعذاب ، بل الجوّ نفسه كان فى اعتقادهم مأهولاً بمخلوقات خفيّة كثيرة التأثير فى نفوس الأحياء فتنشر بينها السعود أو النحوس على قدر ما تستحقه .

وربما كان من الصعب ان نصف أو أن نُعدّد كل اولئك الشياطين الذين ملأوا فراغ الجاهلية الأولى وتغلغلوا فى تصوراتها فكانوا سبباً مستمراً لحيرة أهلها وهلعهم . فقد كانوا يصورونهم صوراً مختلفة بشعة . واسطوانات الأختام والخواتم ، والواح الآجر ، كلها لا تخلو من هذه الصور الغريبة البشعة المزعجة

وواحد من هذه الشياطين ، وهو شيطان ريح الجنوب الغربي او ريح « الخمسين » المحرق او « السَموم » في ما بين النهرين له تمثاله فى متحف « اللوفر » . وهو قائم على رجليه المنتهيتين بمثل أظافر النسر ، اما جسمه النحيل القويّ فجسم حيوان ، وعلى كتفيه جناحان كبيران ، ووجهه بارز العظام دميم المنظر تعلوه جبهة فيها قرنان ، ولا يفترفه عن اصدار زئير مرعب .

نعم ان البابليين افرغوا كل ما يمكن تخيّله من الوحشية فى مثل هذه التماثيل ،

بحيث تجمع في اجسامها القويّة السمجة البشعة ما لا مزيد عليه من قُبح في الحيوان والانسان .

ويظهر ان هذه التماثيل كانت كلها ترمز الى الشرّ ، حتى تدفع الناس الى اللجوء المستمر الى التعاويذ والرقى والسحر لاجتذاب رضاها او لاجتناب سخطها . وقد تفرّدت كلدة في مسائل التمائم والاحجبة والتعاويذ والطلاسم والعِرافة فكانت موطن السحر . وكان لكهنتها القدَح المعلّى في الاشتغال بأمور السيميا (الكيميا الخرافية) والتنجيم والسحر الذي كان رائجًا حتى فى القرون الوسطى .

ولم يكن الحسد بالعين ، والقَدر ، والاحاطة [1] وغير ذلك من امور التدجيل إلا من مخلّفات هذه الشعوب التى كانت تعيش على جانبي نهر الفرات

ويكفي ان نقرأ تلك العبارات الجنونيّة الشاذة التي كان المجوس يتلونها لطرد الارواح الشريرة ، او نتأمل مليًا تلك الوجوه او الاشكال التي أفرغها حذّاق فنّانيهم في أبْشَع الصور التى تقشعرّ لها الابدان او تقف من هولها الشعور ، حتى ندرك ما كانت عليه عقول اهل تلك القرون المظلمة او ما كان يجول فيها من تيّارات الهَوس الديني .

وتلقاء مثل هذه المظاهر المتباينة لا نقدر أن ندرك كيف ان كلدة ، وهي مصدر كل هذه الترّهات ، يمكن أن تكون في ذات الوقت مَهْدًا للعلم والنور ، مالم يكن غرض كهنتها من تمكين هذه الخزعبلات من عقول عامّة الشعب إمّا تأييد سلطتهم والمحافظة على هيبتهم ، أو للتوسُّل بها ، أو التستُّر وراءها ، الى تحقيق أغراض سامية .

وفي الواقع نجد ان كهنة بابل قد اكتسبوا في الحكمة والعلم شهرة ذاعت فى كل أنحاء العالم القديم ، حتى ان أشور التي قهرتها بقوّة النار والحديد ظلت خاضعة لها أدبيًا . وكذلك كان « اشور بانيپال » المعتز بفتوحاته يُرسل رعاياه الى دور العلم الشهيرة في « أوْر » (Ur) و « سِپّارا » (Sippara) و بابل .

---

(١) Envoûtement وهو انهم كانوا يصنعون تمثالاً بسيطاً يمثلون به من يقصدون ايذاءه ثم يوقّعون على التمثال ما يشتهون وقوعه على عدوّهم من الاذى ، اعتقاداً منهم ان ذلك يصل الى جسم ذلك العدوّ . وهذا النوع من السحر ما زال معروفاً في بلاد الشرق وفي بعض جهات اخري من العالم .

ومع ان ديانتا المملكتين امتزجتا حتى صارتا ديانة واحدة في القرون المتأخرة ، فقد بقي رغم هذه الوحدة فرق طفيف تميز به عبادة نينوى من عبادة بابل . فعبادة نينوى كانت أخشَن وأقسى من عبادة بابل التي كانت تمتاز بنعومتها وفجورها . ففي أشور كانوا يريقون الدماء على المذابح ، ويقدمون الذبائح التي تتناول الضحايا البشرية بطريقة بربرية ، أما في بابل فقد كانوا يحاولون كشف القناع عن أسرار الطبيعة والآلهة ، ويستسلمون الى نظريات جريئة ، والتضحية الوحيدة التي كانوا يرجون انها تُرضي الآلهة هي تضحية العفّة

وفي الفصل المتعلّق بالاخلاق والعادات ، أشرنا الى الصفحة التي وصف فيها هيرودوتس الاساليب الشهوانية التي كانت تُمارس في معبد الالاهة « ميليتا » (Mylitta) . فكل امرأة كان يجب عليها ، على الاقلّ مرة في حياتها ، ان تضحّي بجمالها تضحية تامّة إكراماً للالاهة ميليتاً . وفي ماعدا هذا الاكرام العام ، فإن كل هيكل كانت له بغاياه المقدّسة المختصّات بالمعبود وحده ، أو بالحريّ كما يجب أن يُفهم ، للكهنة بصفتهم نُوّاب عنه . . . نعم انه كان يوجد آلهة بابليّة مثل « كرِشْنا » (Krishna) الهندي الذي كان باختياره يتنازل عن هذا الحق . وفي وصف ذلك يقول هيرودوتس : —

« ان في آخر بُرج من النُصب الأثرى المكرس « لجوپيتر بيلُص »
« (Jupiter Bélus) يُوجَد معبد كبير فيه سرير عليه غطاء جميل ، وبقربه مائدة من
« الذهب . وليس هناك أي تمثال . وما كان لأحد أن يقضي الليل فيه الا اذا كان إمرأة
« من نساء البلاد ، وقع عليها اختيار الالـه : على مايقوله الكهنة الكلدانيون . ويضيفون
« الى ذلك ان الالاه يهبط بنفسه ليرتاح على هذا السرير . ولكن يظهر لي ان ذلك بعيد
« عن التصديق . ومثل هذا كان يحصل في طيبة (Thèbes) مصر أيضاً ، على رواية
« المصريين ، حيث كانت تنام امرأة كل ليلة في معبد « جوپتر الطيبيّ » ، ولكنهم
« يؤكدون ان لا هذه ولا تلك كانت تُضاجع أحداً . وكذلك كان الحال في « پاتار »
« (Patare في ليسيا Lycie) لما كان الالاه يشرّف البلدة بحضوره ، فانهم كانوا
« يحجزون « الكاهنة العظمى » في المعبد طول الليل للقيام بما يلزمه من الخدمات ... »

وفي الديانة الكلدانية الأشورية كان للعنصر النسْويّ القدح المعلّى . حتى اننا لا نجد في سواها من الديانات ما كان لها من المعبودات وما كان لمعبوداتها من القوّة . ولم يكن الالاه لينفرد بنفسه ، بل كان لكل منهم زوجة تُعتبَر « نصفهُ » تاماً بأوسع معاني الكلمة ، تقاسمه مكانته ، وصفاته ، وهياكله ، ومذابحه ، ومجده ، وسلطانه .

وكان الامتزاج على أتمّه في اتحادهما بدرجة تحمل على الظن انه لم يكن زواجاً بالمعنى المألوف لنا من هذه اللفظة ، بل كان اتحاداً تامّاً في شخص واحد كاتحاد الخناثى [1] . ويظهر انه عند الدعاء اليهما لم يُعتبَر ان لكل منهما شخصية مستقلّة ، بل كانت صفة الالوهيّة المجردة من الانوثة أو الذكورة هي التي تتمثّل للعابدين كما يتضح من ترجمة الترنيمة التالية : -

« ان انثى النجوم « الزُهرة » (Venus) ، تكون « نجمة المساء » عند غروب « الشمس ، والزُهرة الذكر تكون « كوكب الصبّاح » عند شروق الشمس . ونجمة « الزهرة عند شروق الشمس يُسمى حائزها (زوجها) « ساماس » ، وكذلك يسمى « فرعهما (ابنهما) . ونجمة الزهرة عند شروق الشمس يكون اسمها « الالاهة أجادى » « وعند غروب الشمس « الالاه اوروك »

« وكوكب الزهرة عند شروق الشمس يكون اسمه بين النجوم « إستار » ، وعند « الغروب يكون اسمه بين الآلهة بيليت (Belit) »

وعلى ذكر الخلط بين الجنسين يجب ان نذكر ايضاً الخلط بين الابن والزوج ، كما يتضح من السطر الثالث من الترنيمة السابقة . وهذا الخلط في الانساب والاسماء والصفات قد زاد في غموض الديانة الاشورية غموضاً وإبهاماً وتعقيداً . فهذه الديانة الاساطيرية (مثلوغيا) ، التى هذّبتها العقلية الاغريقية المنطقية لمّا اقتبستها لنفسها ، ظلت دائمًا غامضة على ضفاف نهر الفرات ونهر دجلة ، واقل وضوحاً من الديانة المصرية القديمة التى تشابهها من بعض الوجوه ، والتى لم تكن بلا شك الا فرع من أرومتها ، استقلّ بنفسه من قديم الازمنة وترعرع منعزلاً عن أصله .

---

(١) جمْع كلة خنثى بمعنى من له عضو الرجال والنساء وصفاتهما معاً .

وهناك نقطة أخيرة يجب ان نقف عندها لانها كثيرة الشبه بأساس العقائد المصرية القديمة ، ألا وهي الثَّنَوِيَّة [١] الطبيعية ، والصراع الازَلىّ القائم بين الخير والشرّ ، وبين النور والظلام ، التى تسود في المعتقَدات الكلدانية الاشورية . وهكذا نرى ان تلك الارواح التى تعمِّر الجوّ كانت فى حرب مستمر مع بعضها البعض . ولذلك كانت أفضل الطرق عندهم لايقاع الأذى بالاعداء هى ان يحالف الانسان شيطانًا اقوى من شيطان عدوِّه ليقهره ويضْطرّه الى الهرب . وكثيراً ما نرى صورة ذلك منقوشة على آثارهم .

وهذا الاعتقاد الاساسي هو الذي سادَ وترعرع في أحضان الديانات التى أحيَت في ذات البلاد معتقدات كلدة القديمة فى صُوَر مختلفة .

فالفُرس بعقيدتهم « الاثنينيَّة » في عبادتهم الشَّمس والنار ، يظهرون أنهم ورثة هـذه العقيدة العتيقة التي عرفوا كيف يغذّونها على مدى القرون الطويلة والاجيال العديدة المتعطشة الى ادراك الحقيقة الازلية

فعبادة النـار التى كانت تختلط بعبادة الشمس كان لها فى الواقع اعظم شأن واحترام على شواطىء دجلة والفرات ، كما يُستَفاد من هذا النشيد : -

« أيُّها اللهب [٢] ، السيد السامى ، المرتفع فى سماء البلدان

« يا « هيروس (Hèros) ، يا بْن الاوقيانوس .

« أيها اللهب ، بشُعْلتك الزاهية خلقت النور فى مثوى الظلام .

« وقسمتَ حظوظ كل مَن تَسَمَّى باسم

« أنتَ الذي تمزج النُّحاس بالقصدير .

« أنتَ الذى تـمْـحص الذهب والفضـّة .

« أنت الذى في ظلام الليل تُلقي الرُّعب فى قلب الشرير .

---

(١) ترجمة Dualisme de la nature

(٢) استعملنا لفظة « اللهب » بدلا من « النار » المقابلة للاصل الافرنسي لان النار بهذه اللغة مذكّرة وبالعربية مؤنثة فاستحسنّا استعمال « اللهب » لتذكيره . ومعنى اللهب في اللغة « لسان النار » . (الناشر)

« ان الانسان ، ابن الهه ، تُشرق أعماله بالطهارة
« ويلمع كالسماء
« ويكون نقيًا طاهراً كالارض
« ويتألق فى كبد السماء . »

ولم تكن « النار » وحدها هي معبودة اهل ما بين النهرين ، بل انهم كانوا يعبدون كل قوى الطبيعة، فالاوقيانوس ، والريح ، والأنهر ، وعلى الاخص الكواكب، كانت كلها مأهوله بمعبودات الكلدانيين . وهناك قبل ان ترفرف الحضارة على اليونان القديمة « كانت السماء تمشي وتتنفس على الارض بين جمهور من الآلهة . »

وكان سكان ما بين النهرين اكثر الناس تعلقاً بالدين . ولم يكن شعورهم هذا صادراً عن إيمان أعمى ، بل كان شعوراً عميقاً يدفع اليه التأثر بالبؤس والشقاء والخضوع لفكرة الواجبات التى يُحتّمها تقديس الآلهة . ويمكن ادراك هذا الشعور من الترنيمة التالية التى تضارع اجمل مَزامير (داود) اليهود : -

« اللهمّ سَكّن غضَب قلبك الثائر ،
« وليَسعني حلم الربّ الذى أجهله
« يا مَرزُبان [1] الغضب ، اني أرتوى بمياه الاحزان
« وأتغذّى بعصيان ربّي دون ان أدري
« وأسير مخالفاً إلاهيّ دون أن أعلم .
« اللّهمّ ان ذنوبي عظيمة ، وخطاياي عديدة وجسيمة
« أيّتها المعبودة التى تعلم الغيب . ما أكثر خطاياى وآثامي
« اني أرتكب الاثم ولست أدري
« واصْنَعُ الشرّ ولا أعلم
« لقد حمي غيظ الله مني ، واستشاط قلبه غضباً عليّ
« إن الله فى سورة غضبه أرهقني
« والالاهة فى حنقها عليّ سقتني كأس المُر

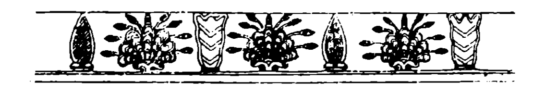
---

(١) ترجمة Mage وهو الرئيس عند الفُرس ، ببعض تصرف ، لان المقابل الحقيقي هي لفظة « مجوسيّ »

« وهكذا أخرّ ساجداً وما من أحد يمدّ يده نحوي
« وأجهر بالدعاء ولا من يسمع
« وقد أنهكني الشقاء وليس من يخلّصني
« وهكذا أقترب من ربي الرحيم وأبث له شكواي .
« لقد ارتكبت ذنوبا ، فلتهبّ عليها الريح لتمسحها .
« تجاديفي[1] على الدين كثيرة العدد ، فمزّقها كما يُمزّق الستر
« يا إلهي خطاياي لا تُحصى (سبعة في سبعة) [2] ، فاغفرها لي
« اغفر آثامي ، وسدّد خطوات من يتقدم اليك خاشعاً
« فلْيرض عليّ قلبك ، الذي كقلب الام الرؤوم . »

وهكذا فاض هـذا التدين الكلداني العميق من خلال العصور كالنهر العظيم فأروى ظمأ قلوب الملايين من بني البشر ، وظلّ ينبوعاً لأسمى المعتقدات وأحسنها ، ولتعزيتهم وتشجيعهم على التقدم نحو الهدف الاسمى بلا مَلَل .

نعم ان ما تطمح اليه نفوسنا الآن ، وما عرض لها من المطالب الجديدة ، يجعلها في حاجة الى غذاء جديد اقوى من هذا القديم تتوفّر فيه العناصر الضرورية للحياة الجديدة . ولكننا يجب ان لا ننسى فضل اولئك المجوس القدماء ، الذين ظلّوا يسألون سماءهم الصافية حتى استنزلوا منها الى أرضنا تلك التخيُّلات السامية التى سحرت قلوبنا ، وان كانت لم تتمكن بعد من خَلْب عقولنا .



---

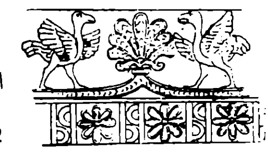
(١) جمع كلمة « تجديف » .

(٢) وهذا يذكرنا بما يسمّونه عند بعض المسيحيين (Les Sept Péchés Capitaux) السبع خطايا الكبرى أو الرئيسية

الباب السابع

فن الانشاء والعمارة

١ — المميزات العامة لفن الإنشاء والعمارة في عهد الكلدانيين والآشوريين



إن البابليين والآشوريين كانوا من أعظم المشيدين . فأن جمال مدنهم وفخامة أبنيتهم اشتهرت بين شعوب العهد القديم ، حتى ان الاغريق ، وهم الخبيرون فى معرض هذا الفن كانوا يذكرون بالاعجاب ما لهم من الآثار ، ويقولون أن حدائقهم المعلقة ، وأسوار بابل هى من بين عجائب الدنيا السبع .

ومرجع الفضل الى ستيزياس ، وهيرودوتس ، وديودورس ، وسترابون فى بقاء شهرة ارض الجزيرة ، من حيث العمارة والانشاء ، حية مدى كل هذه السنين بناء على ما رووه عنها .

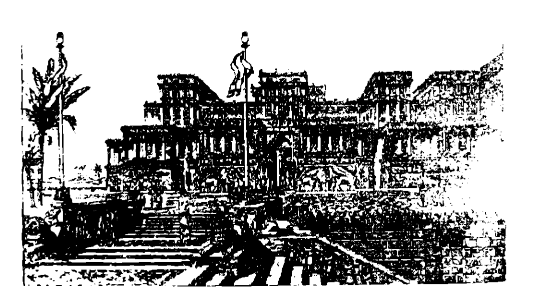
وما كان احد فى اوروبا من خمسين سنة يصدق انه سيأتى يوم تؤيد فيه عيوننا ، بطريق المشاهدة ، تلك الروايات التى كنا نقرأها ولا نصدقها ، أو أن مدن الشرق القديم هذه ستنفض عن عظمتها ومجدها رمال الصحراء التى ظلت مدفونة فيها اكثر من ألفي سنة

فقد جاء اليوم الذى نشر فيه بوتا (Botta) ولايار (Layard) وغيرهما مدينة نينوى التى لم يهتد الى موقعها كزينوفون (Xénophon) قبل المسيح بنحو ار بعماية سنة. فكشف لنا الباحثون عن قصور سرجون وسنحاريب واشور بانيبال . واخترقوا قاعاتها ، ومن أوضاعها أماطوا اللثام عن حياة ملوك آشور الخاصة ،وعثروا على أخاديد المركبات عند أبواب المدينة ، وعلى حلقات الحديد التى كانوا يربطون فيها خيولهم فى

الاسطبلات ، وعلي خُدور الحريم التى كانت تُنصب فيه مضاجعهن . وأمكنهم ان يرسموا تخطيط الغرف والمخادع والايوانات والافنية ، ويحدّدوا مساحاتها ومسطحاتها . ثم بعد ان استعانوا بما عثروا عليه من الصُوَر البارزة ، سهل عليهم ان يستعيدوا في أذهانهم أشكال الواجهات المتهدمة والأروِقَة المُنهارة .



(صورة واجهة قصر سرجون ، في دورزاباد كما نتخيله)



(واجهة قصر سنحاريب في نينوي كما نتصوّره)

ومع ان ما اكتشفوه قد ألقى نوراً أضاء تاريخ المدنيات البشَريَّة ، ولكن لايصح ان نقدّر خرائب نينوى وبابل كتمثيلاتها في طِيْبَة او تَدْمُر (Palmyra) . ومع ذلك نرى ان السائح يقف امام تلك الاطلال ذاهلاً مشدهاً لِما يُشاهده فيها من دلائل العظمة وآيات الفنّ ، فيذكُر إسميّ « نينوس » (Ninus) و « سميراميس » (Semiramis) وما كان لهما من المجد والعظمة على ضفاف نَهْرَيّ دجلة او الفرات ، ولكنه مع كل ذلك لا يشاهِد في ما بين النهرين ما يشاهده فى وادى النيل من الاعمدة الشامخة والتماثيل التى لا تزال رغم تشويهها تلقى في النفس روعة ومهابة . وكذلك

الابراج ذات القواعد الوطيدة ، وتماثيل ابى الهول التى لم تستطع القرون ان تعبث بوجوهها الحجرية ، وكل هذه تذكّر الانسان بضؤولته وسرعة زواله

وليست هناك إلا طريقة واحدة لاكتشاف تلك المدائن التى كانت فيما مضي سيدة مدن آسيا ، ألا وهي التنقيب فى الارض . لانك لا تجد من آثار بابل وآشور شيئاً قائماً على سطحها ، بل ترى تِلالاً هى عبارة عن رُكام من الآجرّ أسفَت الرياح عليها رمال الصحراء فاصبحت بمرور الزمن كالتلال الطبيعيّة ، وشيّد الفلاّح العربيّ قريته فوق مرتفعاتها لتحميه من وخامَة أبخرة المستنقعات التى تكثر في منخفضات السهول ، والبعوض الفتّاك الذى يتولّد فى هذه المستنقعات .

والآن لا نرى من كل كلدة التى كانت تتيه دلالاً بفخامة قصورها وهيبة معابدها ومناعة أسوارها وحصونها الا ركاماً من أنقاض تراكمت عليها الرمال والاتربة

ولكن معاول بوتّا (Botta) ولايار (Layard) أمكنها ان تنبش من تلك التلال ما كان مدفوناً في جوفها من الكنوز . الا ان ما تمّ في نينوى ، لم يكن قد بُدىء بمثله فى بابل ، لانهم قدّروا انه يلزم لهذا الكشف ما لا يقلّ عن عشرين الف عامل ، يشتغلون باستمرار نحو عشر سنوات ليرفعوا ملايين الامتار المكعبة من الرمال عن اطلال « بِير نمرود » (Birs-Nimroud) فقط .

واين المال في بلادنا الغربيّة الآن للانفاق منه على هذا العمل العظيم بينما ترهقها الضرائب الفادحة لاضطرارها الى البذْل فى سبيل ما يسمّونه « السلام المسلّح » ؟

وهكذا نظن ان بابل ستبقى دائماً أبداً ركاماً كما تنبأ لها أشعيا النبيّ بقوله : —

« وتصير بابل كسدوم وعمورة ، لا تعمر الى الأبد »

ومن السهل ان ندرك سرّ انهيار أبنيةِ الاشوريين والبابليين الكلّي ، وذلك يرجع الى طبيعة الموادّ التى استُعملت في تَشييدها . فلم يكن الحجَر داخلاً في هذه الموادّ لانهم اقتصروا على الآجُرّ (القرميد) واللِبْن (الطوب المجفّف بالهواء واشعة الشمس) .

ولكن اذا كان الكلدانيون قد اضطُرّوا الى اتباع هذه الطريقة لانه لم يكن لديهم فى سهولهم الواسعة سوى الطين ، فلماذا اتّبَع الاشوريون نفس الطريقة ومقالع

الجرانيت والجصّ كانت وافرة في الجبال التى تكتنف من الشمال حوضيّ الدجلة والفرات ؟ والجواب على ذلك هو ان التقليد يُحتمل ان يكون الدافع لهم على اقتفاء اثر أساتذتهم في فن العمارة كما فى غيرها، او اتباع النَّسق الذى كان شائعاً في كل البلاد

وقد كانت بابل دائماً النموذج الذى تحتذي مثاله نينوى . ولم يجرؤ الاشوريون ان يحيدوا عن قواعد الفَنّ التى رُوعيت في تشييد مبانٍ عظيمة مثل معبد بعل (Bel) والحدائق المعلَّقة .

وكان لاستعمال الطُّوب دون غيره سبب آخر ، على ما نظن ، هو توخّي السُّرعة فى التَّشييد ، لان كل ملك كان يهتمّ ان يكون له قصر خاص أجمل وأحسن من قصور الذين سبقوه. حتى ان القائمين باعمال التنقيب كانوا يجدون تحت كل تَلّ في أشور رفعوا عنه الرمال قَصْر ملك جديد. فوجدوا قصر سرجون في خورزاباد (Khorsabad) وقصر أشور بانيبال في نينوى .

و بينما كان فراعنة مصر يشرعون في بناء مقابرهم حين يرتقون العرشَ، ثم يأخذون فى تكبيرها وتقويتها سنة بعد سنة لجعلها لائقة بثوامم الابديّ ، كان ملوك الاشوريين يشيدون على وجه السرعة قصورهم لتكون شاهدة على ما كانوا ينعمون به من المجد فى حياتهم القصيرة على الارض . لذلك لم يكن لديهم متَّسعاً من الوقت لكي يَهتمّوا بحفر المغاور فى بطون الجبال ، او جَلْب الاحجار الضخمة بعد قطعها ونحتها فى أقاصى البلاد كما كان يفعل المصريون ، بل كانوا يملأون السهول بآلاف العبيد وأسرى الحرب يسخّرونهم فى ضرب الطوب الذى كانوا يصنعونه على عجَلٍ من معجون الرمل والطين ليشيِّدوا به أبنيتهم الفخمة المنظر ، دون ان يحسبوا حساباً لخلودها . ولولا ان هذه الأبنية قد طمرتها رمال الصحراء فحفظتها من الدُّثور ، لكانت أصبحت أثراً بعد عين منذ أقدم الازمان . ولكن هذا هو مصيرها العاجل الآن بعد ان رُفع عنها دِثارها وتعرّضت لتقلبات الطبيعة .

أما لوحات الرسوم البارزة التى نقلناها الى متاحفنا فانها محفوظة على قدر الامكان فى المخابىء هناك ؛ والرسوم قد انقذها رسّامونا من الزوال ، وَوَصْف ما شاهده رُوّادنا مضافاً الى ما دوّنه مؤرخو الاغريق سيخلِّد الكثير من تاريخ هذه البلاد . ولكن

مدُن ما بين النهرين لا يمكن ان تظهر من تحت التراب الا لتعود اليه ترابًا . فالهواء الجوّي بجفافه ورطوبته ، والرياح والامطار ، والشمس وحرارتها ، كل هذه العوامل ستعمل عملها الطبيعي في هـذه الجدران المشيدة من الطين والصلصال التي حالما ترى النور ستعود الى عَتَمة القبور ، لتَستبدل حُلوكة العدَم بظلمة النسيان .

أمَّا بقايا هـذه المدن التي اصبحت اكواماً وتلالاً ، فقد أخذ الاهالي الحاليُّون يستعينون بها على بناء مساكنهم وهم لا يخشون نفادها ، حتى ان فلاَّحي الحِلَّة (Hillah) او بير نمرود (Birs-Nimroud) اخذوا يبنون أكواخهم الحقيرة من طوب والواح صلصالية عليها ختم الملك نبوخذ نصَّر . وهكذا نرى ان الابنية القـديمة القليلة الاهمية قد عفَت آثارها بطبيعة الحال بانهيار مدُن آسيا ، ولولا ما أنطقناه مِمّا انقذناه من الرسوم البارزة والنقوش والـكتابات التي حافظنا عليها لما كان في وسعنا ان نصل الى ما وصلنا اليه من المعلومات ، التي لم تزل ناقصة ، عن حياة اهالي اشور وبابل العادية.

ويظهر ان مساكنهم كانت كثيرة الشبه بالمساكن التي نراها الآن في كل أنحاء الشرق ؛ ظاهرها في غاية البساطة ، نوافذها قليلة وصغيرة كيْ تحفظ ، على قدر الامكان ، برودة جوّ المنزل الداخلي من التأثُّر بالحرارة الخارجيَّة المحرقة ، واسطحتها [١] كانت منبسطة ، وبعضها مقَبَّـبة على شكل نصف كرة أو شبه بيضيةً .

وقد أكَّـد هيرودوتس ان منازل خاصَّـة الشـعب كانت تؤلَّف من ثلاث أو أربع طبقات . ولا يسـعنا الا تصديقه في هذا القول ارتـكانًا على ثقتنا بقوَّة ملاحظته لكل ماوقعت عليه عيناه؛ لان تعدد طبقات المساكن لم يقم على صحته أي دليل باق في أطلال الصروح الهامَّة سوى في طَلَل الصَرْح المُسَمَّى « زجورات » (Zigurat) الذي سنصفه فيما بعد ، والذي يمكن أن يكون الوحيد في أطلال بابل .

أما الذي امكن استعادته الى المخيلة ، من آثار اشور وكلدة بأدقّ مافيه من التفاصـيل ، فهو المعابد والقصور والاسوار ، وقد يوجد غيرها كالحدائق المعلَّقة [٢] ،

---

(١) استعملنا هذه الصيغة لجمع سَطْح البيت بدلا من لفظة «سُطوح» الواردة في المعاجم ، لان هذه اللفظة (سطوح) تستعمل الآن في مصر للمفرد

(٢) بناها الملك بختنصَّر لمشوقته ، وكانت حيطانها بسُمك سبعة امتار من الطوب الاخضر ، ثم اثني عشر متراً من الطين حشواً . وكُسيَت بالآجرّ بسمك ٧٫٨٠ متراً . وكانت القمَّة على ارتفاع ١١١٫٣٦ متراً ، وقد خطّ في وسطها طريق بعرض ٢٥ متراً لمرور المشاة الركبان والمركبات.

وكالقنطرة التى أقامتها سميراميس فوق نهر الفرات. وكل هـذه لم تترك أثراً حقيقياً بين ماتمَّ اكتشافه حتى الآن . ولا يبعـد انها كانت موجودة ارتـكاناً على ما ذكره كتَّاب الاغريق ، وما ورد في بعض المخطوطات التى أيدتها الاكتشافات الحـديثة ولو على وجه التقريب .

نعم ان بعض ما ذكروه يدعو الى التريُّث ، ولـكن الذي لايمكن أن يسـلم به بعض العلماء هو تعدُّد طبقات المساكن ، على ماروا؟ هيرودوتس وأشرنا اليه قبـل الآن . وكذلك النَّفَق الذي روى ديودورس الصَّقلي ان الملكة سميراميس حفرته تحت مجرى نهر الفرات بين قصريها على ضفَّتيه .

وهاك ما قاله هذا المؤرخ عن الحدائق المعلَّقة التى سبق ذِكْرها مراراً : -

« وكان يوجد فى الحصْن حديقة معلَّقة ، ليست من صنع سميراميس بل من صنع « ملك قبلها ، أقامها ليَسرَّ بها حظيَّته ، أو بالأحرى ليعوِّض عليها ما تركته فى « وطنها الأصلي « فارس » ، وندمت على تركه من الحدائق الغنَّاء ، والمروج الخضراء. « وهذه الحديقة مربَّعة الشكل ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها أربعة « بلثْرات « (plèthres) أي نحو ١٢٠ متراً . وكانوا يصلون اليها بدرجات . وكانت عبارة عن « مسطَّحات تـدرَّج فى الارتفـاع حتى يتكوَّن من مجموعها ما يُشبـه المدرَّج « (amphithéatre) . أما هذه السطوح ، أو بالأحرى المصاطب ، فكانت مرفوعة على « أعمدة فى صفوف مُتباعدة ، تتدرَّج فى الارتفـاع وتحمل ثِقْل ما عليهـا من « المزروعات . وكان أطول هذه العمُد ، ويبلغ ارتفـاعه خمسين ذراع ، أي نحو « خمسة وعشرون متراً ، يحمـل أعلى جزء من الحديقـة الذى كان فى مستوى أعمدة « الحصْن . وكانت الجدران ، المبنية أمْتَن بناء ، يبلغ سمكهـا اثنين وعشرين قدماً ، « والمصاطب كانت مبنيَّـة من كُتَـل حجريَّـة طول كل منهـا ستّ عشرة قدم « وعرضها أربع أقدام . وهذه الكُتَـل كانت مغطاة بطبقة من الغاب (او القصَـب « المعروف في مصر بالحَجَنَـة) المشبَّع بمقدار كبير من الزِّفْت . وعلى هـذه « الطبقة مـدماكان من الآجرّ المحروق مثبَّتان بملاط (جصّ) . وفوق ذلك غطاء « من صفـائح الرصاص وطـين الابليز لمنع رشح وتسرُّب المياه الى الاساسات . « وعلى هذا الغطاء طبقة سميكة من الطين تكفي لكي يُغرس فيها اكبر الأشجار .

« وهذه الحديقة الاصطناعيَّة كانت ملأى بالأشجار والمغروسات من كل نوع يُبهر
« الأنظار ويبهج القلوب . وترتفع الأعمدة تدريجاً ، ومن خلالها كان يدخل النور ،
« وكذلك يمرّون منها الى المقاصير الملوكيَّة الكثيرة العدد والبديعة الزخارف .

« وكان واحد من تلك العَمَد مجوّفاً من القاعدة الى القِمَّة لرفع المياه من
« النهر بآلات خاصَّة (هيدروليكيَّة) بغير أن يراها أو يشعر بها أحد . »

وقد أفضْنا في ذكر كلام ديودورس لأننا ، بالرغم عمَّا ظهر من الاكتشافات الحديثة التي عثر عليها المنقّبون في أرض الجزيرة ، مازلنا نرى أنفسنا مضطرون الى الاعتماد على أقوال هذا المؤرخ العظيم في ما يختص بأفخم أثر بابلي يتردد ذكره في أرض الجزيرة . وما زال أهالي تلك البلاد يبحثون عن أنقاضه في تلٍّ معروف باسم « القصْر » حيث يجدون طوبهُ المبصوم بخاتم الملك نبوخذ نصَّر . وعلى ذروة هذا التَّل تنمو شجيرة عَبَل (tamaris) صغيرة في التُّراب الذي في أحد الشقوق هناك يُريها الأدلاَّء للسائحين ، بكل خُشوع واحترام باعتبار انها آخر نَبْتَة من نباتات تلك الحدائق المعلَّقة التى تغنَّى بوصفها ديودورس .

وهنا يحسن بنا أن نُنَبِّه الى الفائدة من ذكر أمثال هذه الاساطير التى تسلك كل سبيل يقف أمامه العِلْمُ صامتاً ، وذلك لِمَا لها من الاهمية فى تاريخ العقل البشري .

غير انه توجد مسألة فى حاجة الى النظر ، تختص بكلمة « عَمُود » التى وردت مراراً فى شرح ذلك المؤرخ الاغريقي . فرغماً عن كلام ديودورس الذي يحملنا على الاعتقاد بأن الاشوريين توصَّلوا الى استخدام « الاعمدة » لحَمْل ما يُوضَع فوقها ، فاننا الآن نشُك فى هذا الامر ، ولا يمكننا أن نؤكد انهم ، كانوا يجهلون فائدة الاعمدة بسبب ظهورها فى كثير من نقوشهم البارزة ، ولكننا نرجّح انهم كانوا يستعملونها للزينة ، لا لحمل السُّقوف والسقائف ، لانها كانت مُدْمَجَة فى الحيطان لاتحمل سَقفًا ولا ثِقلاً .

والذي يمكننا أن نؤكده هو انهم كانوا أول من بنى العقُود . وكانت لهم أساليب شتى فى إقامتها بحيث تكون شديدة التماسُك والصلابة .

و يغلب على الظن ان تلك الحدائق المعلقة كانت ترتكز على قاعدتين أو ثلاث قواعد من هذه العقود . وكانت الجدران التي تفصل بينها تشغل الفراغ الذي بين اكتاف العقود فتَلُوح للناظر كأنها أعمدة . ولعل ديودورس انخدع بما شاهده ، أو سمعه ، ولم يتحققه ، لان تلك الحدائق المعلقة الواهية البناء ، التي دعت الى إنشائها أهواء إمرأة فاجرة لم تكن قائمة عندما زار هذا المؤرخ مدينة بابل .

أما ما رواه عن قنطرة الفرات ، فانه بلا شك أقرب الى الحقيقة مما أطنب في روايته عن تلك الحدائق المعلقة . وهاك مارواه عن القنطرة : -

« ترتكز هذه القنطرة على أعمدة (بِغال) غائصة الى عمْق بعيد ، ويبعد بعضها « عن بعض نحو اثني عشرة قدماً . وكانت حجارتها مرتبطة بعضها بالبعض بوساطة « كلاليب (كانات) غنفارية من الحديد وموثّقة بالرصاص المسيّح المصبوب بينها . « وناحية الأعمدة (البغال) المعرّضة لتلقّى صَدْم تيّار الماء كانت مبنيّة على « شكل زاوية معكوسة لكي تقاوم التيّار وتكسره ،فيمتنع الخطر عن بناء القنطرة . « وكانت القنطرة مكسوّة بألواح من خشب الأرْز والسَّرْو ، مثبّتة على « كُتل غليظة من جزوع النَّخْل .

« وكان عرضها ثلاثون قدماً ، ولم تكن أقل من غيرها من مُنْشئات سميراميس « حُسناً وجمالاً .

« وعلى جانبيّ النهر أنشأت أرصفة فسيحة فَخْمة ، لا تقلّ عرضاً عن السُّور، « ويبلغ طولها (امتدادها) نحو ماية وستين ستاداً (ثلاثون كيلو متراً) »

ومع ان اسم « سميراميس » لم يُعثر عليه في اي مكان ، حتى ولا في بابل او نينوى ، رغم ما كشفته لنا قوالب الطوب من اسماء اقدم الملوك هناك ، فان ما ذُكر في السطور السابقة يمكن الجزم باعتباره قريباً من الحقيقة .

وقد كان نهر الفرات مَشْغلَة ملوك بابل الدائمة . لان فيَضانه المتكرر كان يدعو الى التنظيم والعناية المستمرة ، كما هو الحال بالنسبة لنهر النيل . فانه كان يجرف في

فيضانه كميات من الرمل تسد مجراه فتحول مسيله في بعض الاحيان . لذلك كان في حاجة دائمة الى التطهير (١) و إقامة الجسور على ضفافه ، وتحويل مياهه عند ارتفاع الفيضانات ، بواسطة قنوات الى حيضان واسعة حتى لا يهدد المدينة بخطر الغرق .

وكل هذه الاعمال العظيمة كان يقوم بها قدماء اهل بابل . ولا تزال على الضفة اليسرى آثار هذه الجسور العظيمة التي ذكرها ديودورس . وهنا نعيد ما سبق لنا ذكره وهو ان فنّ العمارة الكلدانية الاشورية ظهر في أبهى وأروع اشكاله في نوعين من الابنية الأثرية هما المعابد والقصور التي كانت زينة بابل . فالابنية الدينية كانت اكثر فخامة وروعة في بابل مما كانت في نينوى التي كانت تعنى عناية خاصة بقصور الملوك ، تليها عناية ثانوية ببيوت العبادة ، كأن الالاه غير المنظور ترك هناك الفخفخة والزهو للاله المنظور الذى هو الملك ممثّله على الارض .

وربما كان ذلك هو الفرق الوحيد بين كلدة وأشور من حيث فنّ هندسة المباني . أمّا شكل الابنية والموادّ المستعملة فواحد في كليهما ، كذلك الالهام الروحي والتقاليد فانهما متشابهان عند كليهما . ولذا فاننا سنتكلّم عليهما (المعابد والقصور) من حيث غايتهما الدينية والمدنيّة ، لا من حيث الاقليم الذى شيدت فيه .

والآن ، وقد رفع منقّبو علماء العاديّات في بحر الاربعين سنة الاخيرة الأتربة عن الكثير من الابنية الاثرية في أرض الجزيرة ، فلسنا في حاجة الى الرجوع الى كلام الاقدمين ، بل سيكون كلامنا مبنيًّا على رؤية العين ، لا على سماع الاذن أو الظن أو الحدس والتخمين .

٢ — الهياكل

روعي في هياكل الكلدانيين والاشوريين تصميم (رسم) واحد ، بناءً على فكرة ثابتة لم تتغير . وقد رأينا مثل هذه الوحدة التامّة في هياكل قدماء المصريين ، حتى انه كان يسهل علينا أن نستعيد بناء المثال النظري منها . ولكن هذه الوحدة التي لم يصعب تحقيقها في أرض مصر حيث تيسّر اقامة البوّابات (البوائك) المتعاقبة ،

(١) استعملنا هذه الكلمة المألوفة في مصر بدلاً من « كَرْي او نكش » المعجميتين

والغرف المرفوعة على الاعمدة ، والمسلات المنصوبة امام الابواب ، ووضع العدد العظيم من تماثيل أبي الهول على جوانب الطرق المؤدية الى الهياكل ، وكذلك تغطية جدران الهياكل بأفخم مشاهد الحياة ، لم نعثر على ما يضاهيها فى مابين النهرين . لان نموذج المعابد هناك لا يتجاوز مايسمّونه « زجورات » [1] (Zigurat) وهو مايُشبه على وجه التقريب الاهرام المصرية المدرجَّة التى كانت مخصَّصة لدفن الفراعنة.

وأبنية كهذه الجبال الاصطناعية ، فى سهول بابل المنبسطة ، يكون لها فى النفس أثر رهيب، خصوصاً لانهم أسرفوا فى تزيينها بمختلف الالوان عند تجصيصها (تبييضها) ونقشها ، و بالتماثيل الضخمة التى نصبوها عليها ، ومع ذلك نجد ان مخيلتنا لا تتأثر امامها كما تتأثر عندما نُشاهد الرَّدْهة ذات السقف المرفوع على أضخم العمُد فى الكرنك [2] .

«فالزجورات » لم يكن فى الحقيقة سوى هرم ذي طبقات ، اعتادوا أن يجعلوا عددها سبْع ، ترتفع غالباً الى علوّ شاهق .

وقد غالى مؤرخو الاغريق وشطُّوا كثيراً فى وصف تلك الزجورات ، لان المكتشفات الحديثة دلتنا على ان بعضها لم يتجاوز ثلاث أو أربع طبقات ، ومنها قصر « خورسباد » الذي أطلقوا عليه اسم « المرصد » نظراً للغرض العلمي الملازم للغرض الديني الذي أنشأوه من أجله .

و بما ان ارتفاع أعلى الادوار لا يزيد على عشرة أمتار ، فلو فرضنا ان كل « زجورات » يتألف من سبعة أدوار ، مضافاً اليها سُمْك الاساسات والقاعدة الارضيَّة مع ارتفاع المعبد العلوي ، نجد ان ارتفاعه الكلّي لايمكن أن يكون اكثر من تسعين أو مابة متر.

والزجورات ، كبقيَّة آثار مابين النهرين وقصورها ، ترتكز على قاعدة متسعة من الآجرّ بحيث تقع فى وسطها ، ولكن أحياناً تكون منحرفة نحو جهة من جهات

(١) وربما كانوا يقيمون على قنه عرش آلهة القمر . ويوجد في العراق بلدة أثرية اسمها شيرقاط تقع بين الموصل وبغداد . انظر الصورة صفحة ١٧ (٢) بجوار مدينة الاقصر في صعيد مصر .

هذه القاعدة . ويصل الصاعد الى القمّة بواسطة مَرْقى حلزوني له إفريز مسَنَّن جميل يعطي رونقاً لبساطة البناء .

وكذلك توجد أيضاً بعض زجورات (اهرامات مدرّجة) لها سُلَّم مزدوج . ولكن هذا الطراز مع انه اكثر زخرفاً وجمالاً فهو استثنائي نادر .

وكانت كل طبقة من طبقات الزجورات السبع تُدهن بلون خاصّ يختلف عن غيره ويرمز الى احدى الكواكب السيّارة السبعة ، كأن الغرض من السبعة الالوان والسَّبع طبقات هو تذكير الرائي بالسبعة الكواكب السيّارة (المتحيّرة) .

فالدور الاوّل كان أبيضَ مدهوناً بالكلس (الجير) . والثاني أسْود بالقِير (زفت معدني) ، أما الثالث والرابع والخامس فانهم كانوا يشيدونهم بطوب مختلف الالوان أو متحجّر بالحَرْق حيث يكون له اللون الاحمر والازرق والبرتقالي ؛ أما الدور السادس فكان فِضّيا والسابع ذهبياً . وكذلك المُصَلّي الذي في القِمّة فانه مَكْسُوّ بصفائح الذهب ، والقبّة التي تعلوه كانت تتألّق من بعيد فيخيل للناظر اليها انها كوكب دُرّي ساحر . وأحياناً تُطلى التماثيل الضخمة المقامة على طرف آخر قاعدة بدهان ذهبيّ على مثال المعبَد .

وطبيعي ان كل من يرى مثل هذا الأثَر الفخْم بألوانه الزاهية الخلاّبة ، وآلهته المتلألئة عند قِمّته ، وزخارفه المنسجمة ، لابُدّ وانه كان يؤخذ بهذا المنظر ؛ ولذا نرى عُذْراً لمؤرخي الاغريق على تحمُّسهم وشططهم عند وصفهم له .

ولكن هذه الكُتَل الضخمة خَلَت من دقة الهندسة الداخلية التى نراها في الاهرام المصريّة التى تشبهها من الخارج ، حتى ان المنقبين الاثريّين لم يستطيعوا أن يعثروا على غرفة واحدة في جوف خرائبها التى وجدوها عبارة عن اكوام من التراب والطوب .

وعلى طول طريق المرْقى الحلزوني ، وعلى مسافات قصيرة ، كان يُوجَد إمّا مُصَلّى أو محراب (استراحة) لاجل راحة المتعبّدين في صُعودهم الشاقّ الى القمّة .

وفي واقع الامر نجد ان الغرض الحقيقي من تشييد هذه الاطواد السامقة لم يكن لاجل إقامة الشعائر الدينية أو لتقديم فروض العبادة للآلهة ، بل كانت عبارة عن

مراصد فلكيّة مريحة للقساوسة العلماء فيها يقيمون لدرس السموات ورصْد الافلاك ، لان عِلم النجوم [1] كان مرتبطاً بالدين في كلدة .

ولما انتقلت عبادة البابليين الى الاشوريين ، وكانوا حربيين اكثر مما كانوا عُلماء ، تضاءل حجم الزجورات لعدم اهتمامهم بها ، فلم يعُد يُرى في نينوى معبد غير مرتبط بقَصْر . فالبُرج ذو الطبقات الذي قلّ ارتفاعه وانحطّ رونقه عمّا كان عليه في كلدة أصبح من ملحقات مساكن الملوك .

أمّا الفلكيّون فانهم هاجروا باستمرار الى كلدة السُّفلى وقصَدوا دور العلم هناك للدرس والتحصيل والرصْد في مدينة بابل القديمة ، أُم العِلم .

وهكذا لم يبقَ من أثر لافخم وأعلى هذه الزجورات ، ألا وهو معبد بيلوس [2] (Bélus) الشهير ، سوى أطلال معروفة الآن باسم بير نمرود ، لا تزال عليها مَسْحَة من الجمال والروعة والجلال .

وهذا البِناء الاثري لا يزال يُرى في السهل المنبسط على يمين نهر الفرات ، وهو من بعيد عبارة عن تلّ تعلوه رُكام بناء متهدّم . وكأنه في مجموعه يتسلّط على هذا السُّهيل الفسيح من ارتفاع لا يقلّ عن واحد وسبعين متراً ، ليذكّر من يراه بمصير كل كائن على وجه البسيطة .

ومتى غادر المرء قريَة الحِلّة ، الصغيرة الآن لقِلّة سكّانها ومساكنها ، وتركها جالسة فوق هامَة مدينة بابل العظيمة التى طأطأت لها رأس أعظم ممالك العالم في إبّان عظمتها وسُؤددها ، ثم اتجه بنظره الى خرائب بير نمرود الكئيبة ، ازداد تأثُّراً كلما اقترب منها ، خصوصاً عندما يصلها ويجول بين روابي خرائبها ، ويرى ذئاباً هزيلة تنهض مذعورة وتختفي هرباً من صوت وَقْع اقدام الانسان ، فيذكر ، وهو يطأ بقدميه ترابها الصامت ، ما كان لهذه المدينة ، التى كانت ملكة آسيا ، من العظمة والسؤدَد والهيبة والمجد ؛ ثم يذكر كلام النبي اشعيا في الاصحاح الثالث عشر ، من العدد الرابع عشر : —

---

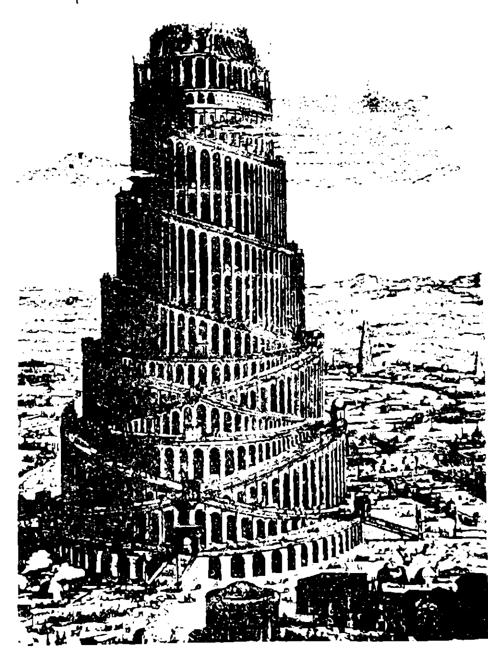
(١) لعله يقصد علم الفَلك (أو الهيئة) ، لا عِلم التنجيم

(٢) أبو نينوس (Ninus) الاشوري الذي أسّس مدينة نينوى قبل ميلاد المسيح بألفيّ سنة كما ورد في الاساطير .

« ويكونون كظَبي طريد وكغنم بلا مَن يجمعها . . . وتصير بابل ، بهاء الممالك
« وزينة فخر الكلدانيين ، كتقليب الله سدوم وعمورة . . . لا تُعمَر إلى الأبد ،
« ولا تُسكن إلى دَوْر فدور . بل تربض هناك وحوش القَفْر ، ويملأ البوم
« بيوتهم . وتسكن هناك بنات النعام ، وترقص هناك معْز الوحوش . وتصيح بنات
« آوى فى قصورهم والذئاب في هياكل التنعُّم . . . . »

٣ — القصور والحصُون

كان تشييد القصور وتحصين المدُن من أعظم أعمال هندسة المَباني الكلدانية الاشورية ، حتى ان أسوار بابل كانت تعدّ احدى عجائب الدُّنيا السبْع .



(صورة تخيّلية لبُرج بابل)

ولقد رآها هيرودوتس ووصفها وصفاً شاملاً ، فذكر ماكان لها من الاتساع والارتفاع والسُّمْك ، والخندق المحيط بها ، والابراج الضخمة التى كانت تعلوها على مسافات متقاربة ، وأبوابها النّحاسيَّة التى بلغ عددها مِئَة .

وهنا لسنا نرى سبيلاً الى اتّهام المؤرخ الاغريقي بالمغالاة والشَّطط فى الوصف ، فان ما عثر عليه المنقّبون الاثريون بعد رفع الاتربة عن هذه الاسوار كشف لنا عما هو فوق وصفه بمراحل .

حتى ان هيرودوتس وديودورس حين ذكرا الاسوار التى كانت تسير عليها عِدة مركبات بعضها الى جانب بعض لم يذكرا الحقيقة بأكملها ، كأنما كانا يخشيان أن يتّهما بالغلوّ .

ولا أدلّ على ذلك من نفس أسوار خورزاباد التى امكن قياسها . فان سُمْكها كان لا يقل عن أربعة وعشرين متراً . وكانت الابنية عند الابواب تمتد الى مسافة لا تقلّ عن سبعة وستين متراً نحو الداخل . فالارتفاع لابُدّ وأنه كان يتناسب معذلك . وقد قدّره ديودورس ، مستعيناً بتقدير ستيزياس (Stésias) لاسوار بابل ، بتسعين متر . وهذا التقدير لايدهشنا مطلقاً ، لان قياس الارتفاع من قاع الخندق الى أعلى شَرَفَة السور ، لا يمكن أن يكون أقل من ذلك . وقد وجدنا ، حتى فى أبنية القصور الداخلية ، جُدراناً يبلغ سُمكها ثمانية أمتار .

وهذه الاحجام الضخمة ، التى ألقت في روع سُيَّاح الاغريق ان العمارة الاشورية كانت فَنًّا راقيًا ان دلَّت على شيء من الوجهة المعمارية ، فانها لاتدل إلاّ على ان فنّ إنشاء المبانى كان عند الاشوريين في بَدأته وعلى الفطرة . لأن التمادي في سُمْك وارتفاع الجُدْران هما من الوسائل الساذجة البُدائية التى يُلْجأ اليها لحماية مكانما ، لانها لاتحتاج الى مهارة هندسية أو عبقرية علمية، بل كل ما يلزمها هو الكثرة في عدد الايدي العاملة ، واليَسْرة في تدبير مواد البناء وأهمها الطوب الذي يخبرنا هيرودوتس انهم كانوا يجبلون طينه من تراب الخنادق التى كانوا يحفرونها حول المدن .

ولا شك انه كان يسهُل على بابل أو نينوى احتمال الحِصار الطويل وهي محميَّة بمثل هذه الاسوار والخنادق كما رواه المؤرخون . فقد كانت آلات الهدْم بأنواعها المعروفة وقتئذٍ كالمَنْجَنيق والدبَّابة والمِنْسَف وغيرها لا تؤثر في مثل هذه الاسوار الضخمة .

وكذلك إتساع قِمَّة الأسوار ، وكثرة عدد الابراج كان يُسهل حشد جيش عظيم لردّ حملات الهاجمين من السهل .

أما المجاعة التي كان يمكن أن تتسبَّب عن طول زمن الحصار ، فهذه قد عرفوا

كيف يمكن تفاديها ، وذلك بالتوسّع في مساحات الأراضي التى كانوا يخططون عليها مدنهم لكي يتمكنوا من ترك (١) الكثير من الأراضي خالية من الأبنية بين المساكن ، حتى اذا اضطرتهم الحاجة الى طعام زرعوها واستعانوا بما تنتجه لهم على دفع غائلتها خصوصاً في أوقات الحصار .

واذا أخذنا بصحة هذه الفكرة ، وصدقنا أقوال قدماء المؤرخين ، كان مسطح أرض بابل يجب أن يكون معادلاً لسبعة أمثال مساحة مدينة باريس ، أو مايقرب من مساحة كل إقليم السين (La Seine) في فرنسا تقريباً

وهكذا كان الخطر الوحيد الذي يتهدد هذه العواصم الفسيحة في زمن الحصار ماثلاً في النهر الذي كان يخترقها ، وكانت تتوقف على مياهه حياة سُكانها ، وذلك لأن الفتحات التى كان النهر يجتاز تلك الأسوار من خلالها كانت من أكبر أسباب الضعف والخطر على هذه المدن ، لأن مياه الفيضانات كانت تنخر الطوب الضخم المبنيَّة به هذه الأسوار وتعرِّضها للتفكك والبَلاء

وقد جاء في وحي على نينوى (في التوراة) بينما كانت تعاني أحَد حصَاراتها ،(٢) ان « هذه المدينة لا يمكن أن تؤخذ بهجوم أعدائها ، ما لم يُجاهر النهر نَفسُه بعدائِهِ لها » .

وهكذا تحققت هذه النبوءة بنهاية هذا الحصار الذي تمكنت من مقاومته بلا عناء بدفاع استمرَّ أكثر من سنتين كان الحظُّ حليفها فيهما . ولكن حدث فى السنة الثالثة للحصار ان هطلت أمطار غزيرة ، ففاض نهر الدِجلة ، وغمرت مياه فيضانه قسماً من المدينة، فانهارَ جزء من سورها كان اتساعه كافياً لتدفُّق جيوش العدوّ المحاصر اليها .

وحدث كذلك بينما كان الملك بلشاصَّر مُنْغمساً في فُجُوره وفجوره ، مُطمئناً الى مناعة أسواره ، ان عدوّه كورش (Cyrus) تمكَّن من تحويل جانباً من مجرى

---

(١) نحو تسعة أعشار مساحة ارض المدينة كانت تُترك المتنزّهات والحدائق ، والحقول .

(٢) راجع صفحة ٣٧ والسطر الخامس من هذا الكتاب في الكلام عن الملك ساردناپال الاساطيري . وقد ذكر الاسم « ساروناپال » بالواو بدل الدال خطأً

نهر الفرات [1] ودخل مدينة بابل بجيوشه الجرارة من الفتحة التى كانت المياه تمرّ منها ، سائراً في عقيق النهر الذي كان قد جفّ ، وهكذا قضى على مُلك الكلدانيين .

والى الآن لم نتكلم إلا عن ضخامة الأبنية الأشوريّة ، ولذلك بقى علينا أن نذكر ما نعلمه عن محاسنها الخاصّة

ولكننا لن نجد في فنّ العمارة الأشورية ما يقتضيه سموّ الفنّ من التنويع والتغيير في الأشكال الذي يستمدّه هذا الفن من موارده الخاصّة . لأن العمود المنعزل ، وكذلك تآلف واندماج الخطوط المستقيمة والخطوط المنحنيّة ، وخفّة البناء في مواضع إزاء ضخامته في مواضع أخرى ، كل ذلك كان مجهولاً أو مهملاً في أشور . فكل أبنيتهم أو أجزاء منها كانت عبارة عن متوازيات الاضلاع المتقابلة ، وخطوطها واقفة جاسئة ، وزواياها قائمة .

ولأجل زخرفة مُنْشآتهم كانوا يستعينون بفنون غير فن العمارة ، كفَنِّ النَّحْت ، أو بالتحلية بالطوب أو البلاط الملبَّس بالميناء (ولعلَّه يقصد القيشاني أو ما يشبهه) وهكذا كانوا يلجأون الى التماثيل الضخمة ، والنقوش البارزة ، أو الزخارف المتعددة الألوان لتغطية الحيطان ، وغير ذلك مما جعل للابنية الأشورية رونقاً فخماً بهر عيون الأغريق الذين رأوها في إبَّان مجدها ، وأدهش عقول المنقبين العصريين عند ما رأوا خرائب قصورها ومعابدها في أطلال نينوي وخور زاباد .

أما أبواب المدن فأنها تُعد بحقّ من أبدع الآثار التى تركها الأشوريون ، وذلك لما كانوا يبذلونه من العناية والمهارة فى صنعها وزخرفتها . وقد كانت على شكلين ولغرضين . فمنها ما كان معدًّا لمرور المشاة ، ومنها ما كان لدخول الركبان والفرسان ، أو لأجل مرور مركبات الحرب ، أو عربات الفلاّحين . وهذه الأخيرة كانت في غاية البساطة لأنها كانت معرَّضة أكثر من غيرها للصدمات ، على عكس أبواب المشاة

---

(١) هو أطول واكبر وأهمّ نهر في آسيا الغربيّة ، وله منبعان فى جبال أرمينية . احدهما الجنوبي واسمه مُرادشاي يسير مستقلا نحو ٢٧٠ ميلاً حتى يلتقي بنهر « فرات » (Frat) عند بلدة كِيبّان مادن فيتكوَّن من مجموعهما نهر الفرات (Euphrate) الذي يسير جنوباً حتى يتلاقى ونهر دجلة (Tigris) قبلما يصلا الى الخليج الفارسي بنحو ستين ميلاً ، ويُسمى الجزء الاخير المؤلف من مجموعهما « شطّ العرب » .

التى كانت آية في الزينة والجمال . وكانت الأبراج ذات الشرفات المسننة تحميها من كل جانب ، وعند مداخلها ترى تماثيل ثيران فخمة يبلغ ارتفاعها من خمسة الى ستة أمتار ، وهي من تحف فنّ النحت الأشوري . أما الجزء الأعلى من الباب فكان على شكل عَقْد له « شَمْبَران » من القيشاني ، أو الطوب الملوَّن بألوان زاهية ورسوم فاتنة

وعلى طول الممرّ الداخلي العريض صفَّين من التماثيل التى تشبه تلك التى في متحف اللوفر (بفرنسا) ، وهى تصور جباراً يخنق أسداً تحت ساعده (١) الايسر ، وهي واقفة كأنها من حراس مدخل المدينة أو رمز عظمتها .

وعلى جانبي الممرّ شيدت أبنيَة تحوي غُرفاً لاقامة الحرَّاس أو لتكون كمأوى يلجأ اليه عابر السبيل للتخلص من حرارة الجوّ خلف جدرانه السميكة الضخمة .

وكانت بَوَّابات المدن والمبانى العظيمة بمثابة « الساحات العمومية » عند اليونان (Agora) أو الرومان (Forum) حيث كان يجتمع الناس ليتباحثوا فى الشؤون العامة أو لتبادُل الآراء والفوائد العلميَّة ، أو لسماع الاخبار ، أو للتجارة ، أو مكاناً للتقاضي .

وقد رأينا فى التوراة ان القضاة قديماً كانوا يجلسون للحكم عند أبواب المُدن ، وكان مردخاي (Mardochée) دائماً يجلس عند باب القصر ، وبوعَز (Booz) يجمع أقاربه عند باب المدينة . ومن هذا الاستعمال جاء اسم الباب العالي (Sublime Porte) الذي استعمل أولاً لمدخل السَّراي القديمة فى الاستانة (القسطنطينية) ، ثم أطلق فيما بعد على المجلس الذي كان ينعقد فيها ، ثم أخيراً على الحكومة التركيَّة نفسها .

ويجب أن نتذكر هذه العادات لنلمّ بما كانت عليه أهميَّة تلك البوّابات الاثريَّة التى نجد بقاياها عند مداخل مُدن اشور .

وقد كانت قصور مابين النهرين عبارة عن مُدن محصَّنة قائمة بذاتها فى احضان

---

(١) انظر الصورة صفحة ١٣

المدينة الشعبيّة .وكانت جدران هذه القصور وأبوابها مبنية على طراز، وسمك، ومستوى ما يماثلها من المدينة الاصلية .

وكان ظهر القصر الملكي يستند دائماً الى ناحية من سور المدينة، وله منفذ سرّي الى ما وراء السور من الحقول أو الخلاء، بحيث يمكن للملك وأعوانه ان يهربوا منه، أو يستعملونه لجلب المؤن أو المعونة من الخارج، كلما حدثت ثورة في الداخل . وهكذا كان طغاة ملوك الشرق الاقدمين يستعملون ضدّ رعاياهم ذات أساليب الدفاع التي كانوا يستعملونها ضد عدوّهم الخارجي . . . . وكانت المسالك السريّة، وسمك الجدران، والثكنات، متشابهة ولكنها مستقلة بعضها عن بعض .

واعتاد ملوك آسيا أن يعيشوا في خفاء تامّ، حتى ان نسائهم ما كانت دائماً تعرف وجوههم، وكانت كل امرأة من نساء الملك لاتختلط بغيرها من نسائه؛ لانهنّ كنّ يعشنَ في جهات منفصلة من بيت الحريم الذي كان عادةً عبارة عن بناء منفصل عن القصر

ولو رجعنا الى النسق الذي كان مرعياً في هندسة قصور الملوك في آشور لتحققنا ان سرجون وسنحاريب وأشور بانيبال كانوا يتبعون تلك الانظمة والعادات، وكذلك غيرهم من عُتاة آسيا الموسوسون، على ماوراه هيرودوتس في قصّة سمرديس [1] المجوسي:

ذلك ان سيّداً فارسياً اسمهُ أوتان، كانت له ابنة اسمها فيديم، زوجة السيِّد سمرديس المجوسي . سألها والدها مرة عمّا اذا كانت حياتها رغدة وهنيئة مع زوجها « ابن كورش » فأجابته فيديم « انها لم ترَ قط وجه هذا الرجل الذي قبلها في عداد نسائه » . فقال لها والدها اوتان « اذا كنتِ لا تعرفين سمرديس (زوجك) فسلي عنه رفيقتك الاميرة أتوسّا » ، فأجابته قائلةً، « ليس في استطاعتي أن أحادث أتوسّا، ولا أن أرى أيّ امرأة من النساء الأُخريات » .

ولمّا أرادت مرّة أن تتحقق ممّا اذا كان زوجها أصلَم الأذنين، اضطرت الى المجازفة بحياتها إذ اجترأت وأمرّت يدها على رأسه بينما كان راقداً الى جانبها في ظلام الليل مستغرقاً في نومه .

---

(١) ويُدعى أيضاً برديّه (Bardiya) ثاني اولاد كورش الذي ذبحه أخوه قمبيز .

وبما أن قصور الأشوريين لم تكن تُبنى الا من طابق واحد ، فكانت بطبيعة الحال تشغل مساحة واسعة جداً . فأطلال قصر سرجون في خورزاباد تدل على أن عدد الغرف كان أكثر من مايتين ، عَدا العدد الوافر من الافنية والقاعات والرِّداه (جمع رَدْهة) الفسيحة . وأنا لا أعرف مبنى أثري في كل العالم يشغل مساحة من الأرض تعادل مساحة هذا القصر سوى هيكل أمون (Ammon) في طيبة (المصرية)، ومعبد سريرنجام (Pagode de Sriringam) في جنوب الهند .

وكانت القصور (الملكية طبعاً) ، يتألف كل منها من ثلاثة مَجاميع من الابنية . أولها « السَّراي » وهي عبارة عن غُرَف (جناح) الملك الخاصَّة وقاعات الاستقبال والتشريفات ، وثانيهما « الحريم » حيث توجد مخادع زوجات ونساء الملك ، وثالثها «الخان » وفيه حُجَر ضبَّاط القصر ، ومرافق القصر ، كالمخازن والمطابخ والاسطبلات (مرابط الخيل)

وهذه الابنية المختلفة كانت مؤلّفة من غُرف مستطيلة تحيط بافنية لها ذات الشكل . وكانت قاعاتها الكبيرة جداً ، تلوح لطولها كأنها ضيّقة كالدهاليز . وربما كان السبب في ذلك ان الاشوريين لم يستعملوا فى أبنيتهم غير الخشب والآجرّ ، ولأنهم كانوا يجهلون كيفية الانتفاع بالعمُد لرفع السقوف .

وفعلاً لم يعثر المنقّبون في كل ما كشفوا عنه من الأرض المفروشة بالطوب في هذه الخرائب على أثر يدل على مكان كان يقف فيه عمود واحد ، وكل ما وجدوه فيها كلها هو بَدَن عَمود . غير أننا نعلم أن من جملة الأشكال التي كانوا يستعملونها لزخرفة قصورهم هي أشكال أعمدة بتيجانها وقواعدها مرتكزة أحياناً على تماثيل أسُودٍ ، ولكن هذه الأعمدة كانت دائماً مستندة الى الجدران ولم يكن لها أيَّة فائدة عمليَّة سوى الزينة . نعم ان بعض الرسوم البارزة تحملنا على الاعتقاد بأن هذه العمُد كانت أحياناً تحمل سقوفاً أو حدائق ، ولكن الذى يبدو لنا هو أن النقَّاشين الاشوريين الذين صوَّروا هذه الرسوم كانوا قد توسعوا بخيالهم حتى سبقوا مهندسيهم المعماريين الذين لم يكونوا قد توصلوا بعد الى صُنع الأصل

وقد وجدوا فى داخل اسوار كل القصور الملكيَّة الاشورية بَقايا هَرَم اشوري

مدرَّج (un zigurat) . وهذا يؤيِّد ما سبق ذكره وهو أن المعبـد الكلداني آلَ الأمر به في ما بين النهرين العليا الى ان صار أحد مرافق المسكن الملكي .

ثم انه يندر وجود مثيل للزخارف التي كانت تزيِّن تلك القصور . وسنفيض في وصفها عند الكلام على فن النحت والزخرفة ، وما كان يكسو الحيطان من الرسـوم الناتئة وأفاريزها المصنوعة من الخزف أو القيشـاني بألوانه الزاهية التى تبهر الأنظار ، والمناظر الكاملة المصورة عليه أو على الطوب الخزفي ، وكذلك فن توفيق (توليف) الألوان وانسجامها الذي كان فيه سرّ جَمال هذه الحليات المعمارية . وقد عثروا بين هذه الزخارف على صوَر أشخاص ملوَّنة مما يعزز رواية ديودورس الآتية : -

« وكانوا يصوّرون على الأبراج والأسوار كل أجناس الحيوانات ، ناتئة وملوّنة ، « بغاية الاتقان . فمن هـذه الرسوم صورة صيْد وقنص تشمل أجناساً عديدة من « حيوانات برّيّـة لايقل ارتفاعها عن أربعة أذرع . وكانت سميراميس ممثلة في هذا « الصيد ممتطيَّـة فرسها وهي تطعن بُـرمحها نمِراً أرقَـطا (عُـسْـبُر) ، وبالقُـرب « منها زوجها نينوس يصرع أسداً بضربهِ بالحربة » .

* * *

ولـكي نلمّ بجملة ما كانت عليه قصور الأشوريين يجب أن نرجع الى الوصف الذي أورده عنها « المسيو بلاس » القنصل الفرنسي الذي عقبَ « بوتا » فى رفع الأتربة عن قصر سرجون العظيم في خورساباد : حيث قال : -

« إذا نظرنا إلى النقوش والرسوم البارزة في قصرٍ نينوي من حيث مجموعها « لاحَـتْ لنا كأنها قصيدة من الشعر الحماسي تشيد بمجد منشـئه . فهو البطل الأوحد « الذي تدور حول شخصه كل فصول الرواية ووقائعها . وأسوة بالقصائد المكتوبة « ترى هذه الرسوم تبدأ بالصلاة والسلام ، ثم بالتوسل إلى الأرواح العلويّـة الممثَّلة « في صور مقدسة على الاعتاب . وبعـد الفراغ من التغزّل بابطال اشور وحماتها « وتمجيدهم ، تدخل في صُـلْـب القصَّـة ، التي يستغرق سردها رسوماً كثيرة . وهذه « القصص طليّـة تُـثير العواطف . وكان أهالي نينوى يُـسرّون ويتلذّذون بهـذه « الذكريات التي كانت توافق كرامة الأمراء وروح الشعب الحربية .

« وكانت أطول واجهات القصر ، وكذلك الأفنية والدهاليز ، وهي أول ما تقع

« عليه عين السائح ، فياضة بذكر الابهة الملكية . وكانت احتفالاتهم تبلغ منتهى
« العظمة . فترى فيها مواكب الأسرى الذميين ، الذين يدفعون الجزية ، يمرون أمام
« الملك وهو جالس بين عظمائه وحاشيته تلوح عليه سيما الكبرياء والصلف والازدراء ،
« والشعب يمر أمامه ، بلا تزاحم أو تدافع بالمناكب ، وعلى وجوههم جميعاً
« أمارات الاعتزاز بالنفس والكرامة اللائقة بالتشريفات الملكية .

« أما في الغرف الأصغر حجماً ، والأبعد للداخل ، وعلى مقياس أصغر للرسم ،
« فقد كان الفنانون أكثر حرية في التفنن بتصوير أساليب السير ، والمواقع
« الحربية ، وتسلق الجبال ، وإقامة الجسور ، وعبور الأنهر بكيفية واضحة . فهنا
« ترى رسوم الملاحم ، واختلاط الجنود المتحاربة جسماً لجسم ، وهناك ترى الجنود
« المدرعة تتراشق بالقوس والسهم ، وتتلقى السهام والنبال ، التي تملأ الفضاء ،
« بالتروس أو الدرق ، وهنالك ترى الجرحى وجثث القتلى تغطي الأرض بكثرتها ،
« أو ملقاة في مياه النهر ، أو منبطحة تحت دواليب المركبات ، أو مبقورة البطون
« والنسور تنهش أحشاءها . . . . .

« وكان الملك يشترك بنفسه فى المعارك تارة ، راجلاً (على رجليه) وطوراً
« فارساً (على ظهر فرس) ، وأحياناً على مركبته الحربية تجرها الجياد المطهمة .
« وأحياناً ترى صورة معبود فى قرص مجنح ، أو عقاباً محلقاً فوق رأس الملك
« كأنه يناصر الآشوريين .

« ثم يبدأ الهجوم فترى آلات الحرب تضرب الاسوار ، وواضعي الألغام
« يثقبون الجدران ، والمحاصرين يدافعون بقذف الحجارة أو السوائل المحرقة ، أو
« المشاعل الملتهبة وغيرها ، وأخيراً عندما تنفد وسائلهم وتضيق بهم وجوه الحيلة يرفعون
« أذرعتهم نحو السماء كأنهم يلتمسون الرأفة من المنتصرين غلاظ القلوب . ثم ترى
« المحاصرين محملين بالأسلاب والغنائم ، يسوقون أمامهم جماعات الأسرى التعساء وقد
« اختلط الرجال بالنساء اللواتي يقدن أطفالهن أو يحملنهم على أكتافهن ، اختلاط
« الحابل بالنابل ، ووراءهم مواشيهم وهم سائرون إلى منفاهم حيثما ينتظرهم العمل المرهق
« فى تشييد بناء تذكاري لتخليد ذكر هذا النصر المبين .

« ثم نرى الملك بنفسه يسيطر على بناء القصر . فنراه يأمر ، وجنوده بعصيهم
« المرفوعة تنفذ الأوامر وتراقب جماهير العبيد (الأسرى) وهم يعجنون الطين ،

« ويضربون منه الطوب، ويحملونه على أكتافهم . ثم يقيمون من التراب سطحاً مائلاً
« يدحرجون عليه كُتَل الأحجار الضخمة بكل عناء ومشقَّة بواسطة صفوف من
« العمال طويلة جداً . ثم تلي هذه الرسوم رسوم حروب أخرى وانتصارات جديدة ،
« وكأن المصوِّر لا يَسأم ولا يَملّ تكرير هـذه الرسوم وأمامه فى كل مرة مادَّة
« جديدة يستنبط منها لفنّـهِ ما يحلو لهُ من الحقائق المدهشة .

« ثم يعقب ذلك منظر يمثّل انتقام لا يعرف الرحمة ، وفيه ترى أنهم كانوا يعمدون
« إلى سَلْخ الأسرى وهم أحياء ، أو شطْر أجسادهم بالمِنشار ، أو خَوْزقَتهم
« بالخازوق ليموتوا عليـه ، أو أنهم كانوا يصلبونهم ، أو يحزّون رؤوسهم فى حضرة
« الملك ، بينما يقف كاتب لا يَظهَر عليـه أدنى تأثُّر بهذه المناظر المرعبة ، لـكي
« يدوِّن على ورق البردي حساب الرؤوس التى تُقطع . وأخيراً نرى صورة الفصل
« الأخير من هذه المأساة التى تقشعرّ من فظاعتها الابدان، إذ نرى فيها الملك وهو يفقأ
« بأصابع يديه عينيّ أسير يقودونه اليه بحبْلٍ مربوط فى خِزامة (حَلْقَة يُشَد
« فيها الزمام) مخزومة فى شفتيه . وقد كان هؤلاء الرواة المصورين أُمناء جداً فى نقل
« ما يصوّرونه من وصف تلك الفظائع البربرية ، فلم يحاولوا أن يلطّفوا شيئاً من
« شدّة وقعها فى النفس ، وذلك لـكي يقدمّوا للمُطّلِع صورة صحيحة من المشاهد
« الوحشيَّـة التى كان لايستهجنها الأشوريون ، والتى جاء وصفها فى مواضع كثيرة
« من التوراة شاهـداً على صحتها .

« ويجيء في المرتبة الأولى ، بعـد صُوَر البطولة الشنيعة التي رأيناها تَوّاً
« صور الصيْد والقنَص ، لأن الملوك الاشوريين ، الجديرون بأن يُعدّوا بحقّ أبناء
« نمرود ، كان لهم وَلَع شديد بهذه الرياضة العنيفة، التي هي عبارة عن حرب حقيقية
« مصغّـرة . فترى في أطلال قُويَنْدجيك (Koyoundjik) صورة الملك وهو يطارد
« الوعْل والغزال ، وخاصةً الأسـد الذي تدلّ كثرة رسوم صيده أنه كان
« الطريدة المفضّـلة .

« وكان الملك يطارد هذه الحيوانات وهو في مركبة أو على صهوة جواد أو على
« قدميه ، وسلاحه الحربة أو النبْـلة أو القوس والنشّاب التي كان يجيد استعمالها ،
« وأحياناً نراه والخنجر في يده يتلهّى بطعن أعداءه البشعين لـكي يقهرهم .

« وأخيراً ، وبعد أن يكون قد ملَّ التقتيل والتعذيب ، يأخذ في التقرُّب الى الله
« بتقديم باكورة صيده . ثم نراه في أقاصي بيت الحريم مضطجعاً على فراش وثير
« وأمامه مائدة مثقلة بأطايب المأكولات ، وتجاهه نرى الملكة تشاركه في مسرات
« الوليمة . وبين أيديهم القِيان [١] يساوِقْن [٢] غناءهنَّ بأنغام القيثارة ، وهي آلة
« الطرب المفضَّلة عند شعراء التوراة .

« وهذا المشهد المأخوذ عن أطلال « قويوندچيك » لم يُرَ مثله في « خورزاباد »
« حيث كان الملك سرجون الرهيب لا يَبْدو الا في بَهاء عظمته الملوكيَّة .

« على أن هناك رسوماً بارزة أخرى تطلعنا على تفاصيل حياة عامَّة الشعب
« الخاصَّة . فمنها ما يُرينا الاشوريون مشغولون في مهامّ منازلهم اليوميَّة مثل تنظيم
« الفراش ، وشَيّ اللحوم ، وحَسّ [٣] الخيل وتضميد جراحها ، وما إلى ذلك من
« الأعمال المشابهة . أو نرى صوراً لأناس سائرين بجانب مركبات محمَّلة إمّا بعائلات،
« أو بغلال أو بأشياء متنوّعة ، تجرّها أبقار مسنَّمة يظهر أنها من أبْقار الهنْد .

« وبعض الصور تمثّل لنا مشهد وقوف تلك المركبات للاستراحة وقد رُفعت
« عن رقاب الابقار الأنيار [٤] لتأكل ، بينما الرجال يتناولون الطعام من صِحاف
« أو يشربون من القِرَب .

« وفوق هذا الشريط من الرسوم البارزة التي وصفناها للقارىء ،على قدر الامكان،
« نجد شريطاً زخرفيًّا من طراز أشوري محْض ، وهو عبارة عن صفَّين من الآجر
« الخزفي ، أرضيَّته زرقاء وعليها زخارف ملوّنة مُقْتبَسة من الحياة النباتية
« والحيوانية . »

ونحن حين نطالع هذا الوصف الدقيق الذي لم يتعدّ فيه النقَّاش دائرة الحقيقة ، على ما نظن ، نرى هـذه النقوش العجيبة في نضارتها كأنما انتهى المصوِّر من رسمها بالامس فقط .

---

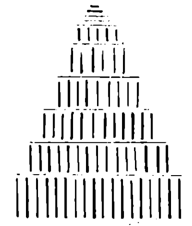
(١) جمع كلمة قَيْنة وهي الامة أو المغنّية .
(٢) المساوقة أو المسايرة في الموسيقى هي متابعة الغناء بالآلات .
(٣) حسَّ الدابّة أي نفض عنها التراب بالمحسَّة .
(٤) أو النيران جمع كلمة نِيْر ، وهو الخشبة المعترضة في عُنـق الثورين بأداتها .

على ان مؤرخي الاغريق الذين رأوا هذه النقوش المدهشة لم يتمادوا في الوصف بهذا التدقيق البديع .

ان الفضل في بَعْث ذلك الماضى السحيق من قبره يعود الى قدرة العلم الحديث الآن على إنطاق رمال ما بين النهرين الخرساء ، كما سبَق وقطع صَمْت ابو الهول المصرى قبل ذلك بزمن يسير . فمنـذ اقلّ من قَرْن بدأت تعود الى مسرح التاريخ شعوب كان لها أعظم شأن فى تـكوين الحضارات القديمة قبل ان يُسدل عليها ستار الظلام والنسيان .

فنحن الذين كنا نمقتهم لِما كانوا عليـه من خشونة وقسوة ، وننظر الى مآثرهم كأنها من نسج الخيال ، نرى انفسنا الآن مضطرون الى إحناء رؤوسنا تقديراً لما تركوه لنا من الاعمال الباهرة . فقـد كانوا أساتذة أساتذتنا ، وذلك لأنهم هم الذين علموا قدماء اليونانيين ، ولانهم ساهموا بنصيب وافر فى وضع اساس بنـاء الحضارة العظيم . وهذه الامبراطوريات القـديمة تمثل الحد الفاصل بين إنسان الزمن البُدائى المتوحّش وانسان الزمن الحالى المثقّف .

ونرجو انا باخراج الشعوب التى بادت ودرجت فى اكفانها الترابية منذ أقدم الازمان من ظلام قبورها الى نور المدنيّة الحديثـة نتمكن من فهم كيفية تـكوين هَيئاتنا الاجتماعية الحاليـة . وربما توصلنا الى كشف القنـاع السحري عن مستقبل المدنية الغامض .



الباب الثامن

النحت، والتصوير الملوّن، والفنون الصناعية

١ – النحت

لم يكُن في كل بلاد ما بين النهرين (على ما ظهر لنا الى الآن)، سِوى فَنّ واحد. فلم يكن هناك فنّ كلداني وآخر أشوري.

وكما حدث فى مصر، وفى كل الامم، قد بدأ هذا الفن، كغيره من الفنون، جَنيناً فِطرياً، ثم اخذ ينمو ويدرُج، متسكماً فى الظلام، يتلمَّس طريقهُ بتقليد الطبيعة ومحاكاتها بأسلوب أخرق ساذج، ولكنه امين على قدر الامكان. ثم رأيناه يبلغ أوج مجده وبهائه. ويعقب ذلك طور الركود بالركون الى النقل وتقليد النماذج الشهيرة بلا تجديد او إلهام، حتى ادركه دور الانحطاط فالموت.

وهذا التاريخ، الذى ينطبق على كل المذاهب الفنيَّه، يمكننا تطبيقه على كثير من أمم العهد الغابر او الحاضر. ولكن الباحثون لم يتمكنوا الى الآن من العثور على كل صُوَر التطوُّر الفنّي فى ما بين النهرين، لان كثير من الفجوات فى تسلسلها يضطرهم الى الحدَس والتخمين، ويمنعهم من تحديد الطريق التي سلكها الفنّ تحديداً واضحاً. وعسى ان تهدينا اعمال الحفر والتنقيب فى مستقبل الايام السبيل الى مَلء هذه الفجوات باكتشاف آثار جديدة توقفنا على إحكام الارتباط والتدرُّج بين المجموعات التى وصلت الى ايدينا.

أما ما عثرنا عليه الى الآن من اعمال النحت فينحصر فى بعض نماذج من عهدين مختلفين، احدهما العهد البُدائى اى عهد نُشوء هذا الفنّ، والآخر عهد بلوغهِ أوج عظمته، وعندما أخذ يتحوَّل من أن يكون فنّاً الى عمَل نَمطيّ (مطَّرِد النسق) او عُرْفيّ.

فمن التماثيل التى نبشها المسيو دى سارزاك فى « تل لوح » (Tel-Loh) فى بابل ، ونقلت الى متحف اللوفر بفـرنسا ، لم نهتدِ الا الى طور قديم جـداً من اطوار فنّ النّحت في ما بين النهرين .

وما عثر عليه المنقبون في نمرود وفي خورساباد وفي كويوندجيك يدل على العهد الذي فيه ترعرع هذا الفنّ وسما . على انه انقطع وقتئذٍ عن الأخذ عن الطبيعة ، وأخذ يسير طبقاً للقواعد والتقليد (العُرف) ، وكان كلما طال عليه العهد ، اتّسم بطابع المحافظة على الشكل المألوف أو الأصول المرعيَّة . وبَعد عن حرارة الحماس الفنّي .

ولكي نحكم على ما بلغه فَنّ النحت بعد ذلك ، يجب أن نجد في تلال بابل من الاعمال الفنيَّة الكثيرة التي تمَّت ، على ما نعلم ، في عهد الملك نبوخذ نصَّر، والتى لا بدّ وأن يكون باقٍ منها ولو بعض أنقاض تحت الرمال .

أما من حيث فخامة فنّ النحت فانه فاق في عهد الامبراطورية الكلدانية الثانية ما كان عليـه في عهد ملوك نينوى . بقي علينا أن نعرف ما إذا كانت براعة الفن أم نفاسة المادة التى صِيغت منها الرسوم الناتئة أو التماثيل الذهبية الفخمة هى التى اجرت قلم هيرودوتس وديودورس بالإشادة بذكر ما رأياه . وهل كانت توجد عندئذ نهضة فنية حقيقيَّة ؟ هذا ما يصعب تصديقه ، لأننا نرجح ان ملوك بابل المتعجرفون دفعهم الحسد الى طمس مجد اسلافهم النينويين ، فأكثروا من كميَّة ماصنعوه من المنتجات الفنيَّة ،وصرفوا النظر عن جودة النوع والقيمة الفنيَّة، وعمدوا الى تقليد النماذج الشهيرة التي كانت تزدان بها (نينوى)عاصمة الشمال بدلاً من التريُّث وانتظار إلهام فني مُبتكَر .

ثم ان هناك نقطة جديرة بالالتفات والاهتمام لأنها تدل على شيء من الاختلاف بين صناعة نحت التماثيل في بابل وفي آشور . فالمنقبون لم يعثروا على تماثيل منعزلة بعيدة عن الجدران وظهورها منقوشة بكل عناية واتقان إسوة بوجوهها إلا في أطلال تل لوح البابلية . وهذه التماثيل تُعدّ نماذج من فنّ النحت الساذج ولـكنها في ذات الوقت تدل على حيويَّة فنّ نحت التماثيل وأمانة المثَّالين .

أمَّا فى أشور فقد كان جُلّ اهتمام فَن النحت منحصر في الرسوم والنقوش البارزة .

أما التماثيل المنعزلة النادرة ، كتمثال الالاه نيبو (Nébo) وتمثال الملك اشور ناز ير پال (Assur-nazir-pal) فانها أُعِدّت لكي تستند الى جدار ، لأن الذين نحتوها لم يحصروا اهتمامهم إلا في الجهة الامامية فقط وتركوا الجوانب والظهور بلا تسوية أو نقش .

ويظهر ان التماثيل المنفصلة عادت الى الظهور في بابل في عهد الامبراطورية الأخيرة الزاهر . وقد روى هيرودوتس وديودورس انهما رأيا منها في معبد بَعل تماثيلاً هائلة الحجم من الذهب .

ولكن تماثيل تل لوح التي اكتشفتها بعثة المسيو دي سارزيك ، واهدتها الى متحف اللوفر (الفرنسي) ، ويُظن أنها أقدم تماثيل أرض ما بين النهرين ، ليست أقدم من تمثال «الكاتب» (Scribe accroupi) أو تمثال «شيخ البلَد» (Sheikh-el-balad) المصريين . ويمكن بوجه التقريب تحديد تاريخ صنعها بثمانية عشر قرن قبل التاريخ الميلادي ، وقد وُجد عليها اسم جودِيَه (Goudéah) الذي يُحتمل أن يكون اسماً لملك بابليّ . ولكن ليس هذا الاسم المجهول الى الآن هو الذى يحملنا على تقدير تاريخ نحت هذه التماثيل ، بل ان نسَق الحروف التى تتكوّن منها الكتابة المحفورة عليها هو الذى يحملنا على هذا التقدير التقريبي .

كذلك لا يمكن أن تكون هذه التماثيل من آثار الفنّ البابلي العتيق ، لأن الذهب الذى غَشاها أجيالاً عديدة كان أجْدر بإثارة شهوة ونهم الفاتحين الذين تعاقبوا على هذه البلاد اجيالاً عَديدة ، سواء أكانوا عيلاميين (èlamite) أو نَيْنويين .

إذَن لا بدّ أن تكون بابل قد احتفظت ببعض التقاليد التى لم تكن مرعيّة فى شقيقتها نَينوى .

على ان هذه التماثيل ، وان كان عددها محدوداً ، أم كانت واقفة أو جالسة ، او ناقصة الرؤوس ، لها أهميتها العظمى من حيث تاريخ الفنّ ، لأن عليها طابع السماجة والسذاجة . وإسْوَةً بأقدم ما عُثر عليه من التماثيل المصرية (في وادي النيل) يظهر عليها مقدار المجهود الذي كان يُبذل في سبيل إتقانها والوصول بها إلى أقرب

ما يمكن من حدود الطبيعة . حتى ان الانسان ليُعجب بنوع أخصّ من أوضاع أطراف الجسم والدقّة المتناهية في اظهار نتوءات العضلات للتعبير عن الحركة .

وقد عثروا على رأسيّ تمثالين يظهر أنهما من صُنْع ذلك العهد ولكنهما قليلا الاهميَّة لأنهما مهشَّمان تَهشيماً مشوِّها . فاذا كان فنّ النحت البابلي قد استمر سائراً في هذا الطريق دون توقُّف ، فانه لا بُدّ وأن يكون قد توصَّل إلى إنجاز أعمال من بدائع الفنّ في غاية الأهمية سيكتشفها المنقبون يوماً ما .

ولسوء الحظ ان المنقبين عندما يعودون الى تتبُّع آثار الفن من جديد ، سيكون ذلك في نمرود ، بأشور ، حيث كان عمل الفنانين الرسمي مقصوراً على تمجيد الملوك ، ولكنهم سيجدون أن هذه الآثار وان كانت تفوق آثار مَثّالي سيرتلاً (Sirtella) (وهو الاسم القديم لتلّ لوح) الساذجة ، لكنها قد فقدت إلى الأبد الاهتمام بالأوضاع الحقيقية وبجمال الجسم البشري الحقيقي .

أما الفترة القصيرة التي اهتدينا في أثنائها إلى الالمام بالفَنّ الأشوري فأنها تبدأ من حُكم الملك أشورنازيربال (Assur-nazir-pal) إلى نهاية مُلك أشور بانيبال (Assur-bani-pal) بما في ذلك كل عهد الدولة السرجونيَّة المجيد . وهكذا تكون مدَّة هذه الفترة لا تتجاوز قرنين ونصف قرن ، أي من سنة ٨٨٢ الى سنة ٦٢٥ قبل الميلاد .

ومع أنها كانت فترة قصيرة إلاأنها تركت لنا كمية عظيمة من الآثار التي سلمت من عبث المنقبين . وهذه التركة الأثرية يصحّ تقسيمها إلى ثلاثة مجاميع بمقتضى ثلاثة أدوار معيَّنة هي بمثابة أجزاء الأطوار الكبرى في التاريخ العام لهذا الفنّ .

وكل دَوْر من هذه الأدوار الثلاثة ينطبق من جهة الفنّ على كيفية عمارة قصر ملكي . فعندنا أولاً قصر أشورنازربال في أطلال نمرود ، التي كانت تُسمى كَلَح (Kalah) . ثم ثانياً قصر الملك سرجون في اطلال خورساباد التى كان اسمها دور سركين (Dur-Sarkin) ، وثالثاً قصر الملك أشور بانيبال في خرائب قويوندجيك (نَينوى القديمة) .

وهناك قصران ملكيان آخران ، أحدهما كان للملك سنحاريب [١] في نينوي ، والآخر لأسارحدون [٢] في كلح ، وفي كليهما من الآثار ما يجب أن يعتبر بين الدورين الأخيرين المذكورين في الفقرة السابقة ، وذلك مما على هذه الآثار من التواريخ ومن النقوش والكتابات .

وفي متحف اللوفر عدد وافر من لوحات النقوش والرسوم البارزة التي وجدت في كلح وفي خورزاباد ، ولكنها كآثار أشورية قديمة ليست بنفاسة العاديات المصرية التي لا ينافس فرنسا فيها سوى متحف (بولاق) [٣] مصر ، بينما نجد أن المتحف البريطاني في لندن يحتفظ بأعظم العاديات التي جلبت اليه من بلاد ما بين النهرين .

ويمكن اعتبار آثار قصور نمرود وخورزاباد وقويوندجيك كأساسات لثلاثة مذاهب فنية ، بينها وبين بعضها الفروق الآتية :-

فالمذهب الأول يمتاز بالفخامة والمهابة المقرونة بالخشونة والبساطة ، ولا ترى في رسومه البارزة سوى أشخاص قليلة العدد ، هائلة الحجم . وأرضية الصورة مجردة من أي نقش ؛ وصور المناظر ، حتى اذا كانت تمثل موقعة حربية أو حادثة صيد ، فأنها تكون عليها دائماً مسحة الهدوء



والسلام والنبالة . وتوجد منها نماذج في المتحف البريطاني .

وهذه الصورة التي يبلغ طولها متران وواحد وثلاثين سنتيمتراً تمثل أسورنازيربال يقدم قربان خمر (سكيبة) للآلهة .

وكذلك الواح المرمر فان لها نفس الارتفاع ، لان الغرض منها هو تغطية

---

(١) Sennacherib ابن سرجون ملك اشور ، وقد ارتقى عرش الملك في سنة ٧٠٥ وقتل في سنة ٦٨١ قبل الميلاد بيد ولديه (راجع سفر ملوك الثاني الاصحاح ١٩ والعدد ٣٧، ونبوة أشعيا اصحاح ٣٧ وعدد ٣٨ . (٢) Assar-Haddon من سنة ٦٩٠ الى ٦٦٧ قبل الميلاد .
(٣) المتحف المصري الآن في شارع ماريت باشا

المساحات ذاتها التي بين « التجليد » الاسود اللون والتغشية التي من الخزف المطليّ بالميناء (القيشاني) الذي ينتهي الى محاذاة السقف . ولكن في خورزاباد ، وخاصّة في قويوندجيك ، نجد أن اللوحات مقسمة الى عدّة سجلاّت ، والاشكال (الصُوَر) يصغر حجمها شيئاً فشيئاً ، وأرضيتها مثقّلة بالرسوم البعيدة عن أصول الفن ، مع محاولة سمجة نحو رسم « المنظور » ، فيرى الناظر خلف صورة الاشخاص اسوار المدن ، واشجار الغابات ، والنهر بسُفنه وسَمَكه يشق طريقه بين الجموع .

وكلما اقتربنا من الزمن الذي نعيش فيه الآن كلما تزاحمت الرسوم وفقدت ما كانت عليه من التناسق والاتقان ، وان كان بعضها لا يزال حافظاً لرونقه .

على ان بعض المميزات الخاصّة تكفي حتى لنظر قليل الخبرة والرسوخ في الفنّ ان يتعرّف على الرسوم (البارزة) الاقدَم من الرسوم الأجدّ . فالرسوم القديمة تمتاز بكثرة الكتابات أو النقوش التي تتوسط « موضوع الصورة » حتى انها أحياناً تحجب جانباً من أشخاصها ، أما الرسوم الأجدّ فاننا لا نجد هذه الكتابات أو النقوش ، أو على الاقل لا نجدها الا في « حقل أو أرضية الصورة »

على ان الحفّارين الاشوريين لانهماكهم في تصغير الصور واهتمامهم في الافاضة بالتفاصيل قد اكتسبت أيديهم مَهارة غريبة . فنجد ان أوراق الشجر التي في نقوشهم محفورة بدقة متناهية تمكن الناظر اليها من معرفة نوع النبات الذي أخذت صورتها عنه . وهكذا يمكن بكل سهولة تمييز ورق النخيل من ورق اشجار التين أو ورق كرم العنب والعناقيد ، حتى المحاليق فانها تظهر واضحة أتمّ وضوح . وهذه الدقة المتناهية تراها في صُوَر عُدّة الخيل وتجفافيفها ، كما تراها في الثياب وغضونها واهدابها ووشيها وتطريزها الذي كان من أحَب الاشياء لدى أهالي نَيْنَوى المترفين .

نعم ان الفنّ كان ، لسبب ما ، غارقاً في لجّة هذه التفاصيل الفنيّة ، ولكن في قويوندچيك ابتعد عن السذاجة الاخّاذة التي نراها في تماثيل تلّ لوح ، أو البساطة النبيلة التي تمتاز بها

النقوش البارزة الكبيرة الحجم في نمرود ، حتى أصبح فنّ النحت عبارة عن « صناعة » لا همّ لاربابها إلا تكرار تقليد ذات النماذج القديمة تكراراً سخيفاً على الدوام ، غير حافلة بإظهار معالم وجوه الاشخاص عند رسمهم . فكانوا يستعملون النموذج الواحد ، الذي امامهم منذ زمن بعيد ، فى تصوير الملوك إسوة بتصوير العبيد ، بلا تمييز على الاطلاق ، أو تصوير الجنود وقوّاد الجيوش على حدّ سوى . وكذلك كانوا يكررون النموذج بعينه لصنع الآلاف من النُسخ من الواحَ النِّهاء (المَرمر) الرخو ، دون اجتهاد أو جهد أو عناء فى سبيل التحسين أو الابتكار .

حتى فى الصُوَر المنحوتة التى تُمثّل مجاميع أشخاص ، فان أمرها انتهى كذلك الى الجمود وعدم التنويع أو التغيير . فترى ، مثلاً فى كل الرسوم التى تمثل ملوك ذلك العهد ، ذات الملك جالساً على ذات المركبة بذات الوضْع ، ونفس سَحْنة الاعداء الجاثون عند قدمي أحدهم ، هي نفس السَّحنَة التى نجدها فى صورة ملك آخر . وكذلك صوَر الصيْد ، وصور تعذيب الاسرى والتنكيل بهم ، وصور الاعداء بعد قهرهم وهم يسيرون متحاملون على أنفسهم فى صفوف طويلة تحت عُصي حرّاسهم ، فانها كلها مُتشابهة كانها منسوخة عن أصل واحد مُصْطَلَح على استعماله لكل الملوك .

فعندما يفرغ المعلّم من رسم هذه المناظر الرخاميَّة المثبتة فى الجدران ، يعكف جيش الصنَّاع على ملء هذه الاشكال المرموز بها الى الملوك والافراد بالمشاهد التى تخلّد لعامَّة الشعب ، فى ردهات القصور الفسيحة ، تفاصيل ذكرى الانتصارات المجيدة ؛ لتبث فيه روح الزهو الوطني والنعرة القومية ، بينما تُتعِب فى ذات الوقت عيون الاجانب المتفرجين .

فمن أعظم عيوب فنّ النحت عند الاشوريين اطّراد النَّسَق المملّ . لأن ذات الموضوع ، والالهام ، والخواطر المألوفة هي التى أجْرت إزميل النحَّات فى الحجر الصلْد ليمثّل الملك المنتصر وهو يسحق اعداءه فى الحرب ، و يُردي الاسود فى مطاردات الصيد ، ولا يتسلّى أو يَهنأ له بال الا اذا رأى الاسرى تسلخ جلودهم وهم على قيد الحياة ، أو يعانون آلام القتل على أعمدة الخوازيق ، أو أن يتلهّى بتَفْقِئة عيون أعدائه بأصابعه . . . .

ثم ان الحفّار الذي ينصرف الى دراسة هذه النماذج وأمثالها على حيطان القصور ، ثم يمارس صنعها مرّات عديدة ، ويرى انه مقضيّ عليه ان لا يُنتج غير هذا مدى كل حياته ، ينتهي به الامر الى السآمة المحزنة التي تتسرَّب من شخصه إلى إنتاجه الفنّي ، ثم تجتاح شعور الناظر الى هذا الانتاج فيتحول الى اشمئزاز بعد الوقوف وقتاً قصيراً امام هذا الجُثام (الكابوس) الذي يرى فيه كل مظاهر الوحشيَّة التي تلازم الانتصارات الحربية .

وهذا التهتُّك الدموي الذي ظلت نينوى تتردَّى في حمأته زُهاء مايتي سنة نرى رسومه محفورة على الجدران بكل أمانة واخلاص للفنّ الذي كان معروفاً في ذلك العهد ، حتي ان المتأمل في هذه الآثار يرى في نفور العضلات وبروز المفاصل واتساع الخياشيم الدالّ على القسوة ، وتركيز نظرات العيون الواسعة الدال على الشراسة ، مايُشعره بأن سيطرة الخواطر المزعجة التي لازمت هذا الشعب ، هى التى أوحت اليه بأول تخيلات هذا الفن .

فلست تجد في فنِّهم طابع الرشاقة أو الحُسْن ، أو التهكُّم والسخريَة ، حتى ولا الضحك أو الابتسام . بل ترى في سحنة الاشخاص صورة من وجه حيوان مفترس لا يُحرِّك شفتيه إلا لكي يزمجر أو يلتهم فريسة . وملامح الوجه وعضلاته لا تنبسط لحظة بل تظلّ دائمة التقلّص والتوتُّر تحت البشَرة كأنها مشدودة بقلوس[1] فولاذيَّة .

ثم ان الفنّ النّينوي لم يهتمّ بأن يرى في جسد الانسان إلا اداة أو آلة من آلات الحرب كالمنجنيق (catapult) أو الكبْش (bélier) مثلاً ، التى قُدِّر عليها ألاّ تعرف التناسق أو الليونة والرشاقة إلا في التقتيل والتعذيب . أي ان الجسم الآدميّ الذي خُلقَ على أجمل صورة وأحسن مثال ، ممّا حدا بالمصريين أن يتفننوا في تصويره عارياً مجرَّداً من الكساء لكي تملّى عيونهم بمحاسن تقاسيمه وانسجام أعضائه ؛ هذا الجسم الانساني الذي ألَّهَهُ قُدماء اليونان لحسْنِهِ وجماله ، لم يجرأ الفنّ النينوي على إظهاره عارياً . ولعلّ سبب ذلك هو ان الرأي الشرقي العتيق ، كالحديث ، يرى في الجسَد البشَريّ العاري عاراً يجب ستره . وقد قال هيرودوتس : -

---

(١) جمع كلة قَلْس وهو الحبل الضخم .

« إن الليديين[1] كغيرهم من الشعوب المتبربرة . . . يعدّون التجرّد من الثياب ، « سواء أكان للرجال أم النساء ، عاراً فاضحاً »

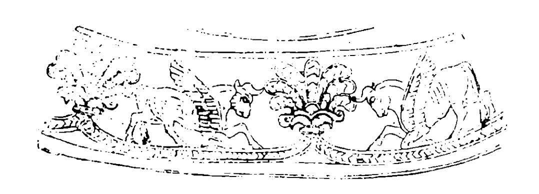
ولم يقتصر البابليون والاشوريون على عدم الظهور امام الناس عراة ، بل كانوا يرتدون أثواباً طويلة سميكة ، وأردية طويلة تصل الى كعوب أقدامهم ، وشيلاناً يلتحفون بها فتخفي قاماتهم ، وقلانس تغطي رؤوسهم وتخفي تحتها جباههم . وكانوا يقلدون الساميين فى اطلاق لحاهم وعوارضهم لتخفي شفاههم وخدودهم الى الانوف فلا يظهر لها أو لأفواههم أي أثر ، حتي ان شعور رؤوسهم الجعداء كانت تغطّي أقفيتهم . فكيف كان يتسنى لفناني مابين النهرين أن يعرفوا ويصوّروا مثل هذه الاجسام البشرية التى فاض شعاع جمالها تحت إزميل فيدياس (Phidias) وبراكسيتيل (Praxitèle) المثّالين الاغريقيين حتى أبلغوها مرتبة الآلهة ؛ والتى بلغ من أمرها فى وادي النيل ان أضافوا الى محاسنها حُسناً ورشاقة وسحراً

أما المرأة فلم يخطر للأشوريين أن يظهروها فى رسومهم كاسيةً أوعارية . وما وُجد منها ، وهو فى حُكم النادر ، قد كان دميم الصورة ، أشوه الخِلقة ، مما يبعث على الاعتقاد ان المثّال الذي صنعها لم تكن له أيّة خبرة فى صُنع الرسوم أوالتماثيل النسائية . ثم ان بعض التماثيل الصغيرة لألاهة الشهوة إستار (Istar) ، التي لقّبوها « بمتعة الرجال والأرباب » ، ڤينوس الشرق ، لم تُعرف عند العثور عليها إلا لأنها عارية . ولكن يا لسماجة ذوق الصانع الذي صنع هذه الدُّمى ! وما أوسع الفَرْق بين قَسَمات جسمها الثقيل البشع وجسم الملكة المصرية البديعة التكوين « طايا » (Taïa) .

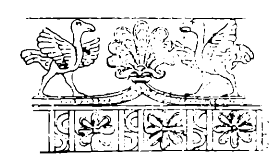
وهكذا يكون النقد الذي يمكن توجيهه الى فنّ النحت الاشوري فى محلّه ، ولكن يجب أن يُوجّه الى أخلاق وصفات الجنس الأشوري ، قبلما يوجّه الى ناحية الفنّ نفسه . ففي كل مرة يتيسّر للفن أن يفلت من تلك القيود الأخلاقية التى كانت مضروبة عليه ، تمكّن من صنع تحف فنّية فى غاية الروعة والجمال . وهذا يسهل ادراكه عندما نتأمّل تماثيل الحيوانات التى صنعها المثّالون الاشوريون فنجد انها أجمل بما لا يُقاس مما صُنع من نوعها فى أي مكان .

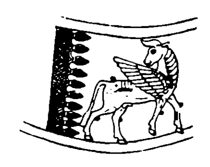
---

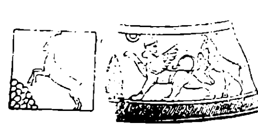
(١) ليديا مملكة قديمة في آسيا الصغرى ، تقع بين بحر ايجه وبلاد فريجيا القديمة وبلاد ميزيا ، كانت عاصمتها سارديس المذكورة في سفر الرؤيا من الانجيل .

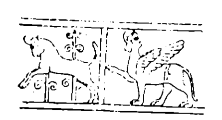


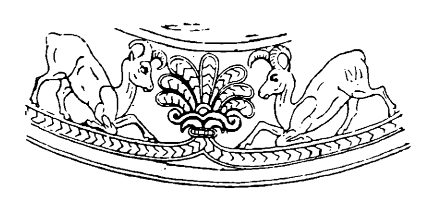














حقيقة أن قدماء المصريين كان لهم ولع خاصّ بتصوير الحيوانات ، وكانت لهم في ذلك شهرة طائرة ، ولكنهم كانوا يكتفون بتصوير خيالها (صورة الخيال الاسود للشيء) مع تنويع كثير في أوضاعها . على أنهم لم يعرفوا كيف يتقنوا رسم الخيول ، لأنهم لم يعرفوها إلا في العهد الأخير الذي وقف عنده الفنّ عن النمو والتقدُّم مكتفياً بالنقل عن النماذج القديمة (الكلاسيكيّة) .

وبعكس ذلك كانت الحال في ما بين النهرين ، فان رسوم الحيوانات هناك ، سواء أكانت بارزة أو مقبّبة ، فانها لاتقانها البديع تكاد تكون ناطقة . بينما نرى كل الصور البشريّة متشابهة تمام المشابهة كأنها مصبوبة في قالب واحد ، لا فرق فيها بين إنسان وإنسان . حتى ان الصورة المعزوّة الى الملك أشوربانيبال نجدها تنطبق تمام الانطباق على صورة الجالس إلى جانبه ماسكاً زمام خَيل المركَبة فاعتبرناه سائق مركبته ؛ في حين ان صورة كل جواد من جياد المركبة تختلف كل الاختلاف بعضها عن بعض .

ولم يكن عند المثالين الاشوريين أسدان متماثلان في زئيرهما ، ولا كلبان يطاردان طريدتهما أو يهاجمانها على وتيرة واحدة ، ولا حيوانان جريحان يحتضران وهما في وَضع متماثل، كما في تمثال « اللَبْوَة الجريحة » الشهير ، الموجود في المتحف البريطاني، ويعدّ من أفضَل تُحفِ فنّ نحت التماثيل في كل العصور . ففي هذا التمثال النادر ترى كيف ان لَبْوَة بديعة التكوين ، وقد نَشِب سَهْم الصيَّاد في سلسلة ظهرها الفقرية ، أخذت من « حلاوة الروح » تتحامل على نفسها لتَجُرَّ نصفها الخلفي الذى شُلّ ، فاغِرةً فمها تزعق متأوّهة من شِدة الألم ، فتشعر وأنت تتأمّل فيها كأن زئيرها يرن في أذنيك . وفي تمثال آخر ترى أسداً آلمه سهم ناشب في جسده فانقضَّ على احدى عجال (دواليب) المركبة التي انطلقَ منها السهم ينهشها تشفّياً من غيظه . وفي تمثال ثالث ترى أسداً إنزَّ السهمُ في كتفه فأخذ يدور بحركة جنونيّة ملؤها الغيظ والعجز .

ويستطيع الكاتب أن يملأ مجلداً ضخماً بالكلام على كلاب الصيد البديعة ، أو الثيران والأبقار والغزلان، والحيوانات الغريبة كالإبل الهجان ، والافيال، والقرود، والنّعام التي خَلَّد صورها إزميل المثّال الاشوريّ بكل دِقّة واتقان .

وهذا الازميل قد ترك لنا أيضاً صوراً للخيول في غاية الجمال ؛ ولكن أحسنها وأبدعها صورة ما كان منها طليقاً في حركاته ، كما لو كانت تستقي من النهر أو كانت تستريح في المراعي أو آبدةً في الاحراش والمروج ؛ بخلاف ما اذا كانت مشدودة بعُدّتها الفاخرة الى مركبات الحرب . ففي هذه الحالة الأخيرة نرى ان العُرف قد تَدخّل بين الازميل والفنّ ، فأصاب صُوَر الخيل ما أصاب صور البشر قبلها من التزام نَموذج مُطرَّد النسق .

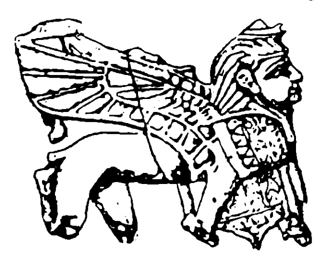
وهكذا نجد ان الفنّان الاشوري عندما سمحَت له الفُرصة بالفوز بصورة حيّة ، كما فازَ بصُوَر الحيوانات الطليقة أو الآبدة في البريّة ، أو بالحري عندما كان يجد نفسه غيرَ محصورٍ في دائرة حدود موضوع ضيق ، أو غيرَ مقيَّد بقيود التقاليد المرعيَّة الملازمة لهذا الموضوع ، أو بعيداً عن أجسادٍ محتجبة بما يثقُل عليها من أكوام الثياب ، فانه تمكن من أن يُتحفنا بما يُضارع أفخم وأجمل ما انتجه فنّ النحت عند كل شعوب العالم .

وسنحاول فيما يلي أن نبيّن كيف ان فنّ النحت في ما بين النهرين قد أنجب فَنيَّ الاغريق وروما . فتمثال « مينرڤا » صُنْع فيدياس [1] (Minerve de Phidias) اوتمثال «ڤينوس» [2] ميلو [2] (Venus de Milo) ، وتمثال «جوپيتَر [3] الاولمپي» [3] (Jupiter d'Olympie) ، وتمثال «أبولّو [4] البلڤديري» [4] (Apollon du Belvédère) ما هم في الواقع إلا الأولاد الشرعيين لتلك التماثيل السمجة التي وجدت في « تَلّ لوح » مركّزة على قواعدها بلا ذوق . وسوف نوضح بيان هذه البنوّة بالتفصيل في موضعه .

---

(١) الاهة الحكمة والفنون عند الاغريق — وفيدياس اسم مثّال اغريقي من سنة ٥٠٠ الى ٤٣١ ق . م (٢) ربّة العشق والجمال عند الاغريق — وميلو اسم جزيرة في بحر ايجه حيث وُجد تمثال ڤينوس في سنة ١٨٢٠ (٣) إلاه الآلهة عند الاغريق والرومان ، والاولمپ اسم جبل مقدس عندهم ، وهذا التمثال كان يُعَدّ من عجائب الدنيا السبع . (٤) إلاه الجمال والرجولة والموسيقى — وبلڤدير اسم متحف كان في الڤاتيكان بروما . وهذا التمثال يُعَدّ أفخم تماثيل روما .

وحسبنا الآن أن نكتفي بما ذكرناه للدلالة على ان الفن الاشوري لم تنقصه الكفاءة بل كانت تعوزه الفرصة للنهوض والسير فى طريق الكمال .



ولو نظرنا إلى هذا الفن كما هو ، بعين الاخلاص ،وجردناه من كل ما اكتنفه من عراقيل التقاليد الرسمية المرعيّة ، لوجدنا انه كان فناً واقعياً (Realiste) ، بعيداً عن وحي الخيال . نعم ان الاشوريين كانوا يصورون فى بعض الاحيان معبوداتهم فى أشكال خياليّة نصفها بشري والنصف الآخر حيواني ، كما فعل المصريون ،ومع ان ذلك كان عَرَضاً ، ولكنهم كانوا فيه من المجيدين . والى هذه الطبقة من فنّانيهم يُنسب فَضْل صُنْع الثيران ذوو الرؤوس الآدميّة ، وكذلك « كروبيم »[1] الاسرائيليين الذي ذاع اتخاذها كنماذج فنيّة فى كل أنحاء آسيا القديمة خصوصاً فى بلاد الفُرس

وهذه الهُول[2] المهيبة ،التي يبرز مقدمها من الجدران كأنه خارج منها ، نرى مؤخرها يتضاءل و يتفرطح حتى يستوى وجدران البناء ؛ هذه الهَوْل كانت تستعمل لزينة مداخل القصور بينما كانوا يعتقدون أنها لحراستها

ثم ان صُنْع هذه التماثيل بأجسام عظيمة القوّة ، واجنحة منبسطة ، وسيقان رشيقة كأنها تتحرك متقدمة الى الامام ، ورؤوس شامخة جليلة ، ووجوه عليها سِيمْة البشاشة والطلاقة والرزانة ، هو ما جَعَلَ للفنّ الاشوري المادّى العنيف شيئاً من الخياليّة .

وهذه التماثيل الضخمة التي تُلقى المهابة والوقار فى روع الناظر اليها ، فانها ، وان كانت تماثل تماثيل أبي الهول المصرية الرابضة عند ضفاف النيل شكلا ، الا أنها لا تحاكي سكونها الساحر .

فالثيران الاشورية تخطو الى الامام كأنها قادمة لتدفع كل من يجترىء على ان

---

(١) المفرد كروب ، وقد ورد ذكره في التوراة في جملة مواضع ، منها في سفر التكوين الاصحاح ٣ وعدد ٢٤ ، وسفر الخروج ٢٥ - ١٨ ، وفي حزقيال ١ : من عدد ١٨ « وعمل فيه كروبيم ونخيل . نخلة بين كروب وكروب ، واكل كروب وجهان ، وفي عدد ١٩ « فوجه الانسان نحو نخلة من هنا ووجه الشبل نحو نخلة من هنالك » الخ (٢) جمع هَولة ، وهي الشيء الكريه المنظر يُفزّع به الانسان

يتهدد مسكن الملك ؛ بينما نرى تماثيل ابي الهول وكأنها لا تفكر في الملوك ولا في الناس ، بل ترنو الى الصحراء ورمالها كأنها تسبح في خيال حلم لذيذ .

ويمكن معارضة (مقارنة) الفن الاشوري بالفن المصري في اشكال الحيوانات، وكذلك في الاصنام الضخمة الهائلة الحجم ، أما فيما عدا ذلك من حيث الانتاج الفني فان الآثار الاشورية لا تعد شيئاً بالنسبة الى ماوجدناه من الآثار المصرية .

ثم ان وحي الخواطر لم يكن واحداً على شاطئ النيل وضفاف دجلة والفرات . فالفن المصري كان سامياً خليقاً بتمثيل الحياة المقبلة ، واعمال الآلهة المجيدة ، وجلال الملوك أبناء الشمس ، حتى إذ تناول ألوف المهن والاعمال المألوفة التي أجاد تصويرها أفاض عليها جمالاً سحرياً خلاباً .

وكأني بهذا الفن الساحر قد أحس بسمو منزلته عما في هذا العالم فاخفى اجمل ما انتج من الآثار في ظلام القبور الابدي لتفتتن به عيون الموميات (الاجسام المحنطة على طريقة قدماء المصريين) المصرية الجامدة .

أما في أشور فان النحات لم ينشغل عقله بما وراء هذه الحياة الدنيا . لأن خشونة حياته الحربية ، وحب الغزو والفتح بلا رحمة أو هوادة ، لم يتركا في نفسه فراغاً لمثل أحلام وأوهام الابدية . نعم ان كبرياء الملوك التي لا حد لمطالبها كانت المثال الاعلى الوحيد الذي كان النحات الاشوري يشتغل في سبيل مداجاتها . أمّا جمال الهيئة ، ودقة الملامح ولطافة الاوضاع والخطوط التي شغفت المثال المصري فانها لم يعرها زميله الخورزابادي أو النينوي أقل اهتمام .

ولذات السبب لم يكن الفنان الاشوري يهتم باتقان الشبه الذي كان يتوخاه مثالو « الدولة القديمة » بدافع شدة تعلقهم بمعتقداتهم الدينية ، فان ما نشعر به من العطف والانجذاب نحو تمثال الكاتب المصري ، أو الامير « رع هوتپ » ،ولاسيما نحو الملكة « طايا » الرائعة الجمال ، لايمكن أن نحس بما يضارعه عندما ننظر الى الصور الاشورية البارزة ، ذات السيقان العضلة ، أو العضلات ذوات الرأسين (في الكتف والفخذ) الضخمة النافرة ، أو الخياشيم الواسعة للانوف المعقوفة التي تنم صورها الجانبية (Profil) ، المتشابهة كلها ، عن غباوة وحشية وقسوة غشومة .

وكلما مررت بالقاعة الاشورية من متحف اللوفر (الفرنسي) ، وتأملت مافيها من عجيب الآثار ، مرَّ بخاطري ما كان عليه الناس فى عهد الرعب الذي تفشّى فيه ظلام الجهل الرهيب والاحلام المزعجة ، أي العهد الدموي الذي ساد الشَّرقَ عندما كانت السيادة والسلطان لهؤلاء السامين السفَّاحين .

ولكيْ أزيل عن نفسي ما تركته عليها هذه الخواطر المؤلمة أخرج من هناك الى الممرّ ذو السقف المعقود الموصِّل الى جناحْ الآثار المصرية حيث استَمْتع بمرأى تماثيل الآلهة وابي الهول والفراعنة ، حتى تمثال الكاتب المتواضع ، وهي ترمقني بنظراتها العميقة العذبة التي تدلّ على مُنتهى الرقة والذكاء ، وكأنها تشاركني نفس أحلامي رغم الازمنة البعيدة التى تفصل بين عَصْرَينا .

٢ — التصوير الملوّن والقيشاني

كان الشرق على الدوام مشغوفاً بالالوان الزاهية الثابتة ، وقد عَرف منذ أقدم الازمان كيف يصنعها .

وعندما تكلمنا على مصر [١] أفَضْنا فى بيان سبب هذا الذوق الذي منشأه الحاجة الى اتقاء تأثير ضوء الشمس الشديد ، ولكي تكون الالوان وسيلة الى إظهار النقوش البارزة ، والابنية التى لو تُركت بيضاء لاختلطت بما يكتنفها من الضياء واختفت فيه .

على اننا ندفع الآن أغلى الاثمان لاقتناء الابسطة الشرقية الفاخرة ، والطنافس النفيسة ذات الالوان الثابتة ، التى يعود

(١) في الجزء المختص « بمصر » الذي نشرته المطبعة العصرية باسم « حضارة مصر القديمة »

سر تركيبها الى قدماء الكلدانيين ، لان سكان بابل وأشور كانوا يفتنون بكل ماهو زاه باهر جذاب من الالوان ، حتى انهم كانوا يطلون بها جدران بيوتهم كلها ، وكذلك قصورهم ومعابدهم . وما كانت الزخارف التى على جدران « إكبتان » [1] إلا أثرًا من ولعهم الشديد بالالوان .

ومع ذلك فان تعدد الالوان كان يستعمل فى الرسوم البارزة فى مابين النهرين بأكثر تحفظ مما فى مصر .

ففي وادي النيل كانت الصوَر المنحوتة على الجدران تُطلى كلها بالالوان . بخلاف الحال فى بابل ونينوى ، حيث كانوا يستعينون باستعمال الالوان فى إيضاح بعض التفاصيل مثل لون اللحية والشعر والعيون أو احتقانها ، والقلانس والاحذية ، واهداب الملابس ، والاسلحة ، وعُدَّة الخيل

ولقد سبق لنا القول ان أشور هي التى علَّمت الاغريق ، ولذلك أخذوا عنها هذه الطريقة الفنيَّة ، كما أخذوا عنها دروساً أخرى .

وقد تردد المختصون زمنا طويلا قبل البتّ في موضوع تعدُّد الالوان عند الاشوريين . فهل كان ذلك عامًّا عندهم كما كان عند المصريين ، أم كان محدوداً كما كان يفعل الاغريق من بعدهم .

أما الآن فانه لم يبقَ للتردّد مكان بعد ما ظهر من الادلَّة القاطعة ؛ منها ، ان أثرَ الالوان الذي تمكنوا من اكتشافه يدل على ان الالوان لم تُستعمَل عند الاشوريين الا في ايضاح بعض تفاصيل معيَّنة ومتشابهة في كل التماثيل المنحوتة ، وانها لم تستعمل قَط فى سطوح واسعة كقواعِد التماثيل ، أو فى تصوير الاجسام العارية ، أو أقمشة الملبوسات . وكذلك لاسبيل للظن ان اثرها قد انمحَى وانطمسَ من مواضع معيَّنة متماثلة فى كل الحالات ، مع بقائه وثباته فى اماكن أخرى متشابهة .

واذا كان الزمن هو العامل الاوّل فى مَحْو أو طمس هذه الالوان ، فقد كان من المحتَّم ثباتها و بقاؤها فى الاجزاء المنخفضة ، وزوالها من الاجزاء النافرة فى النقوش

---

(١) اسم قديم لعاصمة مادي القديمة ، وفى مكانها الآن مدينة همدان في بلاد الفُرس .

البارزة ذاتها . ولكن الواقع غالباً يكون على عكس ذلك . فحدقات عيون الثيران المستديرة البارزة كثيراً ما نجدها باقية ملوّنة ، بينما نجد ان الفُلول (الحُفَر أو الحزوز) الغائرة التى تُمثِّل تجعُّدات الشَّعْر لم يظهر عليها أي أثَر للالوان .

وهذه الملاحظات الدقيقة كان لها اثرها الواضح عندما نبشوا النقوش البارزة ، وكانت محتفظة برونقها وألوانها . وقبلما تعرّضت للهواء الجوّي ،اذ كان الفرق أوضح بكثير مما هو الآن بين الاجزاء الملوّنة وغير الملوّنة

وعلاوة على ذلك فاننا نجد ان تعدُّد الالوان لم يكن مُستعملاً فى بابل واشور الا في صنع التماثيل ، وبغاية التحفّظ كما سبَق القول . والمواضع التى ليس عليها نقوش بارزة من الجدران ، كانت تُطلى بألوان إما بالطريقة المعروفة عند النقّاشين باسم « فرسْكو » [1] أم تُغشَّى بقوالب أو مربعات الطوب المطلوّ بالمينا بألوانها البرّاقة .

والى الآن لم يُعرف على وجه التحقيق ما اذا كان الاشوريون قد توصلوا الى معرفة دهن الحيطان بالطلاء المائي (détrempe) الذي يُطلق عليه اسم « فرسْكو » أيضاً . ولكن المحقَّق انهم استعملوا طبقات من الطلاء [2] على بناء الجدران مباشرة .

وفى قصورهم كان نظام تغطية الحُجَر من الداخل على هذا الاسلوب مبتدئاً من أسفل الى أعلى : - سِفْل يكون على الاغلب ملوّناً بلون أسود ، ويليه الى فوق ، وبارتفاع عظيم . حَقْل الحائط ،ويكون عادة من النقوش البارزة ، ويلي ذلك شريط (إزار) عريض من مربعات القيشاني يتصل بالسقف .

وعندما كان الاشوريون يصورون على الحيطان أشخاصاً ، فانهم كانوا دائماً يجعلون حدود الشكل مثل حدود نقوشهم البارزة ؛ أما التلْوين فانه لم يتألف ، كما فى مصر ، الا من لون واحد مُصْمَت . بلا ظلّ ، أو تَدرُّج لونىّ ، بقصْد التزويق أو الزخرفة .

أما التصوير بالألوان بالمعنى الحقيقي المعروف الآن فانه لم يكُن كفنّ مستقلّ ، لا فى بابل ولا في نينَوى ولا فى وادي النيل أيضاً ؛ ولكن فنّاً آخر بديعاً حلّ مكانه ،

---

(١) طريقة دهْن الحيطان بالوان مُذابة في الماء مع قليل من الغِراء ، ويُطلق عليها في مصر « التلوين بالفُرشة » .

(٢) يُعرف في مصر « بالبياض »

وهـذا الفنّ هو المختصّ بصنع مربّعات القيشـاني (أو الطوب الخزفي) ، فان السائح لايخطو خطوة في ارض مابين النهرين حتى يجد شَقَفَها (١)

وكانت هذه المربعات القيشانيّة تُستَعمَلُ بكثرة في تكسية «وَزَرات» الحيطان بأكملها . فكانت ألوانها الزاهية الخـلاّبة تمتزج بعضها ببعض امتزاجاً لطيفاً هادئاً منسجماً يدُلّ على ذوق سليم ناضج لم يفُقْه قطذوق آخر ، لتعطي رسوماً ساحرة . فلا بُدّ ان هذا القيشاني كانت تتألف منه أفخم الزخارف المعمارية التى تألقت فى ضوء شمس الشرق الساطع .

وهكذا كان جمال هـذا الطراز من الزخرفة الاشورية حتى ان كل الأمم التى تعاقبت على أرض ما بين النهرين ، من الفرس الى المغول ، قد اهتموا بتقليده ،فصارلبابل وأشور تلاميذ عادلوا اساتذتهم في المهارة والاتقان ولكنهم لم يفوقوهم.

وكان الاشوريون يصنعون هذا القيشاني (الطوب الخزفي) بحرقه أولاً في نار هادئة ، ثم يطلونه باللون والرسوم الجميلة ، ويغشّون ذلك بطبقة زجاجيةً ويعيدونه الى النار مرة ثانية .

وكانت الألوان التى يستعملونها مستخرجة من أكاسيد (جمع كلمـة أكسيد العلميّة) معدنيةً ، ولكنها لم تكن زاهية كألوان النقوش البارزة التى وُجدت على النقوش البارزة ، كالأزرق الزعفرانى ، والاخضر الزيتى (الزيتونى) ، والاصفر الفاقع ؛ والابيض كان هو اللون السائد . أما الاسود فكان نادراً ، واندر منه اللون الاحمر فى القيشانى ، مع انه كان كثير الاستعمال فى المنحوتات .

والزِنْجَفْر (سلاقون او أكسيد الرصاص الاحمر) الذي كان يستعمله الاشوريون كان يتحوّل لونه الى أصفر تحت تأثير الحرارة الشديدة ، وهكذا كان اللون الاحمر يختفي بَعد الشيّة الثانية .

أما الرسوم التى كانوا يستعملونها فى زخرفة القيشانى فانها متنوعة جداً ، وليس لها مثيل من حيث الرونق والصقل والاتقان . على ان صور الأشخاص والحيوانات لم تخلُ

---

(١) كِسَرُ الخزف ، والواحدة شَقَفَة .

من محاسن وعيوب النقوش البارزة. وقد كان الاشوريون بارعين في اختيار النماذج التي يقتبسون عنها حلياتهم . وقد توفّقوا في مَزْج الأشكال الهندسية المحْضَة ، كالشكل المعيَّن (سنبوسكة) ، والمربّع ، والنَّجمي ، والوردي ؛ مع مواضيع مأخوذة عن المملكة النباتية ، كالزهور ، والبراعم (أزرار) ، وزهرة اللؤلؤ (مرغريت) المتفتحة ، والغصون اللدنة ، والعناقيد الظريفة . وقد استعانوا ايضاً على هذه الحليات باستعمال مجموعات مُتوائمة من حروف كتابتهم المسمارية (أو الاسفينيَّة) ، حتى ان العرب من بعدهم قد توسَّعوا في تنويع هذه الحليات فاستمدّوا من طُرق تَشابك وتَميق حروفهم الكتابيَّة الجميلة نماذج أوّليَّة لزركشة ما صنعوه من الزخارف الخزفيَّة

وكثيراً ما كان الاشوريون يصنعون لوحة مؤلفة من عدة مربعات خزَفيَّة فيها مشهد أو صورة فنّية واحدة . ففي هذه الحالة لابُدّ وانهم كانوا يصوّرون ، ثم يلوّنون كل المشهد على عدد من اللوحات القرميدية المتجاورة الوضع ، ثم يحرقون هذه اللوحات متفرقةً ، وبعد إخراجها من الأفران (القمّاين) يُعاد توليفها كما نفعل نحن عندما نتلهى بقَطْع الوقت في لعبة « الصبْر » (Patience) بورق اللعب

ولا حاجة بنا الى محاولة الثناء على مهارة وسلامة ذوق الاشوريين في هذا النوع من الزخرف المعماري ، لان ذلك يفوق كل مدح وإطناب .

ويكفي أن نذكر فضلهم على العالم بانتشار هذا الفنّ في كل بلاد الشرق ، من شمال افريقا الى ضفاف نهر الكنْغ [1] (Gange) حتى شواطىء المحيط الاطلنطي (بحر الظلمات) ، حيث نجد هذه التُّحف التي مازالت ماثلة تسحر عقول السُّيّاح الغربيين وتبهر عيونهم .

---

(١) نهر هندستان ، طوله ٣١٠٠ كيلو متراً . ينبع من جبال هملايا ويصب في خليج بنغال .

٣ – الفنون الصناعية

رأينا فى الاسطر السابقة كيف ان صناعة الآجرّ المغشّى بالميناء ، الذي قوام صنعه الصلصال (طين الفخار) ، كانت مزدهرة وناجحة فى مابين النهرين . فهذه المادة الاوليَّة الكثيرة الانتشار على ضفاف الفرات والدِجلة ، وفى السهول والمستنقعات الواسعة فى تلك الجهات ، لعبت دوراً هامًّا باستعمالها في عدد وافر من الصناعات وذلك لسهولة الحصول عليها ، ولأنها كانت فى متناول الجميع .

فهذا الصّلصال انتفعوا به فى صُنْع اللِّبْن (الطوب الاخضر) والآجُرّ (الطوب المشويّ) اللذين كانا وحدهما عماد المُنشئات الاثريَّة ، وكذلك فى صُنْع الخزف والقيشاني الذي استُعمل لزخرفة هذه الابنية وغيرها . ثم انهم جبَلوا منه لوحات رقيقة قامت مقام الورق حتى امتلأت بها ما أسموها دور المطالعة (مكتبات) ، وكذلك قسّوه (حجّروه) وصنعوا منه أوانٍ زينية هائلة الحجم ، ونواويس لدفن موتاهم .

ومع كل ما مارسه الاشوريون وما نالوه من الرواج والفائدة من المصنوعات المرتبطة بالصلصال فانهم لم يصلوا بهذه الصناعة الى مايقرب من حدود الكمال .

وقد كانوا يعرفون « المخرطة » (1) . وصنعوا عددا عظيماً من الاشياء الفخّارية كما يتضح لنا من الكميات التي وصلت الينا ، ولكن قلّ أن يكون لهذه الاواني شكل فنّي منسجم يدل على مهارة خاصة أو ذوق ممتاز . والنموذج الوحيد الذي لقينا كثيراً منه هو الجرار البيضيّة الشكل المدبَّبة القاع كانها كانت تصنع كذلك لغرزها فى الرمل ، أو لوضعها فوق حامل (2) حتى ترتكز .

---

(١) الة خرط الخشب أو المعادن وغيرهما . (٢) ولعلّه يقصد انها بشكل ما يسمّونه في مصر « زلعة » أو « زير » الذي يوضع عادة على « حمّالة » .

وكذلك المصنوعات الزجاجيَّة فانها لم تنَـل عناية اكثر من الفخَّاريَّة ؛ ولذا لم تكن أنيقة الشكل والمنظر ، مع ان مادَّة الزجاج عُرفَت مُنذ أقدم الازمان فى مابين النهرين . وفى نمرود (Nimroud) عثر المنقبون على إناء زجاجيّ عليه اسم سرجون [1] (Sargon) وهو أقدم ما فى متاحفنا من هذا النوع .

وكانت أقداح شُرب الاشـوريين وآنيتهم الزجاجيـة ذات الوان مُزْمَنَّـة [2] (irisation) زاهيـة بهرت عيون السُيَّـاح لاول وهلة حتى جعلتهم يضارعونها بمصنوعات مدينة البندقية (Venise) . ولكن سرعان ما اتضح لهم ان هـذه الألوان المتألقة هي نتيجة عمَـل الوقت والطبيعة ، وانها لم تكن فى هذه الآنية عنـد خروجها من يد صانعها الساذج في قديم الزمان .

أما أنسجة الاشوريين والبابليين فلم نعثر الى الآن على أثَر يهدينا الى شيء من صناعتها . ولكن اذا أمعنّـا النظر في رسـومهم البارزة أمكننا أن نعرف شيئاً عنها من الزركشة الظاهرة على ملبوساتهم فى هذه النقوش .

على ان المؤرخين الاغريق والعبرانيين قد حدّثونا بمـا فيه الكفاية عن شهرة الطنافِس والبُسُط والاقمشة التي كانت تُصنع فى أرض مابين النهرين . وكذلك ورد فى التوراة [3] ان رجلاً اسمه عَخان « تعدّى عهد الرب » الذي كان يقضي بحرق كل الاسـلاب والغنائم عند سـقوط مدينة أريحا (بفلسطين) ، إذ رأى فى الغنيمة رداءً شنعاريًّا (بابليًّا) نفيساً ، ومئتيّ شاقل فِضَّة ، ولسان ذهب وزنهُ خمسون شاقلاً ، فاشتهاها وأخذها لنفسه ، وكان ذلك سبباً فى اعدامه وكل أهل بيته ، الخ .

وقياساً على صـناعة القيشاني يمكننا القول بان صناعة النسـيج لم تنمح قط من هذه البلاد حيث كانت رائجة وزاهرة . فاننا نجد ان الصبّـاغين والحاكة (جمع حائك) الـكلدانيين قد أعقبوا تلامذة مازالوا الى الآن بين الصُنّـاع الذين يتحفوننا بالابسطة الشرقية الفاخرة .

---

(١) الاكـادي (٢) تتلوَّن بألوان قوس قزح .

(٣) في سفر يشوع ، الاصحاح السابع والعدد العشرون وما بعده .

وخلاصة القول ان كل الفنون الصناعية قد بلغت فى بابل ونينوى شأناً عظيماً . فالحُلي والثياب والأسلحة والمفروشات نرى من صورها المحفورة انها قد بلغت من النفاسة ودِقة الصنع مكانة لم يبلغها شعب من شعوب زمانهم .

وحتى الآن نجد ان تطريز وزركشة الثياب، والمعاطف والملاحف التى يستعملها الملوك ما خرجت عن كونها صورة طبق الاصل المأخوذ عن نقوشهم البارزة . وكذلك مقابض السيوف فانها على شكل أسُود غاضبة ، وظهور المقاعد مستندة الى صفوف من الاسرى محفورة فى الخشب أو العاج . وكذلك كثيرمن الاشياء الشائعةالاستعمال، كالامشاط مثلا ، فانها مزخرفة بأشكال اشخاص محفورة عليها .

ولم يوجد فى هذه البلاد ، البذّاخة [1] بثروتها الواسعة ، شيء بسيط أو ساذج ، حتى أصبحت مضرب الامثال فى الترُفَة [2] . وعلاوة على ما كانت تُنتجه مصانعهم من كل هذه الاشياء لارضاء مطالب أهالي البلاد التى لاحدّ لها ، فانها كانت تشتغل لتسدّ طلبات الاسواق الخارجية التى كانت تموّن من مصانع كلدة واشور الشهيرة . وكذلك يصحّ أن نتخيّل وراء رخاء ونعومة عيش بابل ، وخلف خشونة ونشاط نينوى الحربي، طائفة سكتَ التاريخ القديم عنها لقلة ضوضاء أفرادها مع كثرة عددهم ، ألا وهى طائفة الصُنّاع التى ضربت بسهم وافر فى سير موكب الحضارة .

وبما انه يستحيل علينا الاسترسال فى الكلام على جميع الحِرَف التى ازدهرت فى مابين النهرين ، فاننا سنحاول الاقتصار على أهمها مما له اتصال بالفنون ، وهو صوغ المعادن ، والحفر على الحجارة الكريمة (glyptique) .

ومن خصوص استخراج وشُغْل المعادن ، نعلم ان الاشوريين ، أو بالحري قدماء الكلدانيين ، قد سبقوا كل قدماء الشعوب ، ولم يلحقهم الا الامم الحديثة . وفى الواقع نجد انهم قد عرفوا أهمّ المعادن إطلاقاً ، وهو الحديد . وكذلك عرفوا طريقة صنع الفولاذ .

وقد عزا بعض المؤرخين سيطرة نينوى الساحقة على آسيا ، وطول أمدها ، الى

---

(١) متكبّرة (٢) النعمة ورغد العيش

امتلاكهم ناصية الحديد والاهتداء الى سِرّ صُنْع الفولاذ . ولكن مثل هـذا التسلُّط لابُد وأن يكون له غير واحد من الاسباب ، ومن المحقَّق هو ان ما ذكرناه يجب ان يُعدّ من أهمها . وقد عثروا فى مستودعات قصر خورزاباد على كمية هائلة من الادوات الحديدية من كل نوع . بعضها من الحـديد فقط ، والبعض من الحديد المقسَّى حـدّه بالفولاذ ؛ منها كلاليب ، وسلاســل ، ومطارق ، وسِكك محاريث ، ومعاول ، وفؤوس ، وما الى ذلك .

أما نينَوى فلم تكن لها الاسبقية فى استعمال المعدن الثمين (الذهب) بل سبقتها اليه بابل كما سبقتها فى أشـياء أخرى عديدة . وقد وجدوا فى أقدم مقابر بابل أشياءً كثيرة مصنوعة من البرُنز ، ومن الحديد ، ومن الذهب ، مما يُثْبت بأقوى برهان ان صناعة التعدين (استخراج المعادن) كانت متقدمة عند قدماء الـكلدانيين .

ثم ان وجود الفأس والمنجل أحيانًا من المعدن [1] وأحيانًا من الصوان (الظرّان) يدلنا على ان ذلك كان فاتحة عهد الحديد والبرنز فى مطاوى الطور الظرّانى

وكان سكان مابين النهرين يستنبطون أكثر معادنهم من المناطق الجبلية المحيطة بحوضيّ الفرات والدِجلة . ويظهر انهم لم يُوفّقوا الى استخراج كفايتهم من الذهب ، فكانوا يستوردونه من خارج بلادهم ، أي من الهند أو من مصر أو غيرهما . أما القصدير فان العلماء لم يتمكنوا من معرفة مصدره على وجه التحقيق ، لانهم لم يجدوا مناجمه في كل آسـيا ، فرجّحوا انه كان يصلهم بوساطة الفينيقيين ، لان الكلدانيين استعملوه في صنع نوع فاخر من البرنز .

ويَرجع تاريخ التحف الاثرية الفنّية المصنوعة من البرونز كالدُمي [2] والمزهريّات والنقوش البرنزية البارزة الى أقدم العصور التى عُرفت في تاريخ الحضارة الكلدانية .

ولقـد مَهَر البابليون والاشوريون في عمل الرسـوم البارزة بالطَـرْق أو الضغط . فنجد أبواب قصورهم ومدنهم مكسوة بصفائح من البرونز عليها رسوم بارزة بالضغط مُتقنة الصنْع .

---

(١) لعله يقصد الحديد . (٢) جمع دُمْيَة وهي التمثال الصغير .

أمّا الحلي فقد كانت كثيرة الاستعمال فى أرض مابين النهرين . وكان الرجال كالنساء يُشنّفون آذانهم بالاقراط ، ويتقلّدون القلائد فى اعناقهم ، ويزينون معاصمهم بالأساور ، وسواعدهم بالدمالج ، وأصابعهم بالخواتم

وكانوا يصيغون حليهم من الحديد عندما كان عزيز الوجود يتنافسون باقتنائه ، ثم استبدلوا به البرونز . أما الحلي المصنوعة من الذهب والفضة فكانت نادرة جداً ، ولكن المصنوع منهما كان بالغاً حد الاتقان والحُسن .

أما صناعة الحفر على الاحجار الكريمة فجديرة بأن نخصص لها عدة صفحات ، لانها من الصناعات التى يسهل تتبع خطوات تطوّرها من بَدء الحصا المنحوته بسماجة الى الاسطوانات العقيقية الفخمة . وتاريخ هذا التحوّل يلقى ضوءاً على فن صنع التماثيل الذي يوا كبه على قدم المساواة دون أن يترك بينهما فراغاً . وقد وصل الينا من هذه الاحجار البابلية والاشورية المحفورة عدة آلاف مختلفة النوع والتاريخ والصنع . وقد سبق أن نوّهنا الى الاهمية القانونية للاختام فى أرض مابين النهرين ، والى أن بصماتها على الواح الآجر وهوَ لِيّن كانت بمثابة التواقيع (الامضاءات) ، وان كل فرد من أهل البلاد كان واجباً عليه أن يحمل معه دائماً واحداً منها ، على رواية هيرودوتس . وانه كان يستثنى منهم الفقراء المعدمين الذين كان يُكتفَى ببصمة (علامة أو طابع) أظافرهم ، كالأميين بيننا الذين يضعون علامة صليب عند عجزهم عن كتابة أسمائهم

وهذه الاختام التى كان يجب أن تكون كثرتها متناسبة مع عدد سكان البلاد حتى تكفيهم ، كانت تجدد في ظروف خاصة . فعندما كان الملك يضع الحجرالاساسى لبناء قصر أو معبد أو باب مدينة ، فان أفراد الشعب كانت تهرع الى مكان الاحتفال لتلقى باختامها فى حفائر هذا الاساس ، ثم يعودون فيشترون بدلاً منها . ولعل هذا هو سرّ عثورنا على العدد الذي لايُحصى من هذه الاختام فى أساسات تلك الاطلال وفى طبقات الجدران . واننا نرجّح ان السبب فى بقاء أكثر هذه الاختام سليماً هو لانها كانت تغرز فى الصلصال (طين البناء) وهو ليّن قبلما يصفّون عليه حجارة الاساس الكبيرة .

ونادراً ما نجد هذه الأختام مسطحة كالأختام التى نستعملها فى أعمالنا الكتابية الآن ، لان شكل أغلبها كان اسطوانياً مثقوباً من القلب . وعلى ظهر الاسطوانة الكتابة والنقوش التى يُطبع عنها ، وفى الثقب الذي فى قلب الاسطوانة يَمُرّ محور تدور عليه الاسطوانة ، فلا بُدّ انهم كانوا يمررون هذه الاسطوانة بوساطة المحور الذي تدور عليه(كما نفعل نحن الآن عندما نريد الاعلان على أرض الطرق [١]) على الصلصال الطري أو الطوب النيء لتترك عليه رسم ما هو محفور عليها ، سواء أكان كتابة أو نقشاً . والى الآن عندما يُراد قراءة أو درس ما على هذه الاسطوانات فانهم يمررونها بهذه الكيفية على سطح منبسط ليّن ، من معجون الجبس الناعم ، لتطبع عليه بشكل بارز صورة ماحُفر عليها غاطساً .

وقد اقتصرت صناعة حفر أحجار الأختام في ما بين النهرين على النوع الغاطس منها ، ولم يصنعوا النوع البارز (Camée) لأنه لم يكن لازماً للغرض الذي كانوا يستعملون فيه الأختام على ما يظهر .

ولا يمكن الا أن تكون كل هذه الأختام (الاسطوانات) التي عثرنا عليها ذات قيمة فنيَّة متساوية تقريباً ، لأننا اذا استثنينا ما صنعوهُ منها بعناية فنيّة خاصَّة لأجل الأغنياء والموسرين ، فان ما كانوا يصنعونه منها لعامَّة الشعب كان يُصنع كيفما اتفق وبلا دقَّة ليُباع بثمن رخيص ، وهذا هو الجزء الأكبر والأعمّ .

وفضلاً عن ذلك ، فأن الأشوريين لم يبلغوا ما بلغوه من إتقان صناعة حفر الأحجار الكريمة الصلبة دُفْعَة واحدة ، بل ربما قطعوا في ذلك أجيالاً عديدة . لأن قُدماء الكلدانيين بدأوا هذه الصناعة بتخطيط أشكال ساذجة حفروها على الحصا بكيفية بعيدة عن أصول وقواعد الفنّ كل البُعد . ثم تقدموا تدريجاً فجازفوا بالحفر على النهاء [٢] (albâtre) ، والجزْع الحبَشِيّ [٣] (Onyx) ، والحجَر أو الرخام السمّاقي (porphyre) وما الى الرخيص الثمن من هذه الأحجار لقلة ثقانها .

---

(١) قد تصرفنا كثيراً في ترجمة هذه الجملة وذلك لاجل ايضاح غرض المؤلف .

(٢) وهو نوع من الرخام ضعيف به قليل من الشفوفة (٣) ويسمى أيضاً عقيق يماني .

ورويداً تدرّجوا ، في أمَد طال الى أواخر عهد نينوى ، حتي استطاعوا النقش على الأحجار النفيسة التامَّة النقاء والصفاء من العقيق الأحمر (cornaline) والعقيق الابيض (calcédoine) ، الشديدة الصلابة ، التى لا يمكن حكّها أو صقلها للحفر عليها إلا باستعمال مسحوقها . وقد توصلوا الى أن يصوّروا عليها نقوشاً دقيقة الصنع من النوع البارز

أما الاختام الاسطوانية الكلدانية القديمة فانها ساذجة من حيث نقوشها ، وغير متقنَة الصنع ، وليس فيها ما يجعل لها أيَّة قيمة على الاطلاق ، إلا اذا اعتبرناها كرجع فَنِي تاريخي يستدلّ منه على تاريخ تقدُّم الفنون . أمَّابعض ما عثرنا عليه مما صنع منها مؤخراً في نينوي فيُمكن أن يُعدّ بحقٍ تُحفًا فنيةً تستوقف النظر لجمال مادتها ودقّـة صنعها ، وذوقها الفنّي

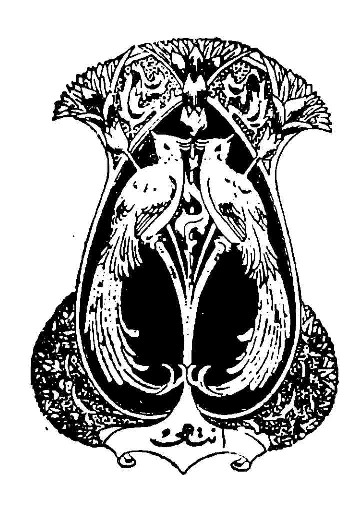
و بواسطة هذه المنتجات الفنيّة، قبل غيرها من الوسائط ، قد استطاعت الحضارة الأشورية أن تتسرب الى بلاد الغرب . نعم ، بهذه المصنوعات الثانوية التى تناولت الأشياء المستعملة يومياً كالأثاثات المنزلية التى من العاج المطعَّم ، والمزهريات (vases) البرُنزيَّة ، والأقمشة المطرزة ، والسيوف ، والأسلحة ، والحُليّ ، والحجارة الكريمة المنقوشة ، قد تسنى لعقـل وروح وذوق ونماذج سكان ما بين النهرين أن تتوغل فتوقظ عبقرية الأمم التى كانت لم تزل هاجعة فى سُبات الحيـاة الفطرية الرتيبة على شواطيء البحر الأبيض المتوسط .

* * *

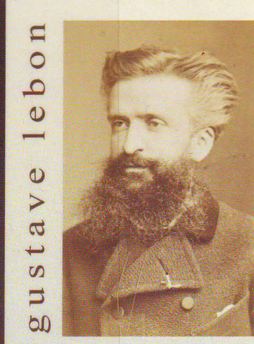
وسنرى عندما نكتب عن انتشار حضارة الشرق فى بلاد الغرب كيف ان كلدة ومصر [١] حضّرتا بلاد الأغريق ، ومهّدتا له بكدّهما المتواصل البطيء مدة أربعة أو خمسة آلاف سنة ، وكيف ان هذا العمل العظيم الذي غمطها التاريخ حقهما فيه الى الآن هو الذي ساعد على انبثاق نور المدنية

---

(١) اقرأ كتاب « مصر أصل الحضارة » تأليف الاستاذ سلامه موسى الذي نشرته المطبعة العصرية في عام ١٩٤٧ .


انتهى





gustave lebon

حضارة بابل وآشور

غوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٣١) هو طبيب ومؤرخ فرنسي، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند و«باريس ١٨٨٤» و«الحضارة المصرية» و«حضارة العرب في الأندلس» و«سر تقدم الأمم» و«روح الاجتماع» الذي كان انجازه الأول. وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. لم يسر غوستاف لوبون على نهج معظم مؤرخي أوروبا، حيث اعتقد بوجود فضل للحضارة الإسلامية على العالم الغربي.

وقد قام لوبون برحلات عدة ومباحثات اجتماعية خلال حياته في العالم الإسلامي، اعتقد بموجبها أن المسلمين هم من مدّنوا أوروبا، وقد عبرّ عن آرائه بالمسلمين وحضارتهم في كتاباته.



